ثيودور رايك

سيكولوجيا العلاقات الجنسيّة



ترجمة: ثائر ديب

سيكولوجيا العلاقات الجنسيّة

دراسات

Author:THEODOR REIK	المـــؤلـــف : ثيودور رايك
Title:PSYCHOLOGY OF SEX RELATIONS	عنوان الكتــاب : سيكولوجيا العلاقات الجنسية
Translator:Thaer Deeb	المتــرجـم : ثائر ديب
Al- Mada P.C.	النـاشـر : دار المدى للثقافة والنشر
First Edition : 2005	الطبـعـة الأولى : سنة ٢٠٠٥
Copyright © Al- Mada	الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

ثيودور رايك

سيكولوجيا العلاقات الجنسيّة

ترجمة: ثائر ديب

إلى ولدي آرثر

المحتوى

مقدمة الترجمة العربية

«تراكمت الأدبيات التي تعالج مشكلات الجنس إلى حدٍّ بات فيه الباحث الذي يعتقد بقدرته على المساهمة في هذا الموضوع عاجزاً عن التحقق من أن وجهة النظر ذاتها لم تُنْشَر عدداً من المرّات في السابق. وما من فرد واحد يمكنه معرفة كل المادة المطبوعة. لكن الهدف ليس الأسبقية وإنما الأصالة. وتبرز الصعوبة الكبرى عندما يحاول المرء أن ينسى في البداية كل ما قرأه أو سمعه من قبل، وينظر في الظواهر كما لو أنه يواجهها للمرة الأولى، دون أفكار مسبقة».

من هذا المنطلق، يباشر ثيودور رايك مقاربته سيكولوجيا العلاقات الجنسية، دون أن تستعبده، كما يقول، علاقته السابقة الوثيقة بمدرسة التحليل النفسي الفرويدي، بل على العكس، فإن مقاربته هذه تقوم، أساساً، على نقده الصارم لهذه المدرسة مقيماً صرح ما يطلق عليه اسم التحليل النفسي - الجديد، والذي يعدّه رايك «ثورة في الثورة».

وبصرف النظر عن صوابية رايك أو فرويد، فإنه يبقى مثيراً ومثقِّفاً أن نرى تلميذاً لامعاً آخر من تلاميذ فرويد المقرَّبين يخرج على مدرسته مطوِّراً ما يعتبره صائباً في هذه المدرسة، وناقضاً ما لا يراه كذلك. ففي القسم الأول من هذا الكتاب نرى رايك ينهال بالنقد على نظرية اللبيدو الفرويدية بجرأة وإقدام نادرين، وذلك من خلال مراجعة شاملة لكتاب فرويد الشهير «ثلاث مقالات في النظرية الجنسية». ولكن النقد عند رايك «لا معنى له إن لم يكن بنّاءً وإنْ لم يقدّم شيئاً أفضل يحلّ محلّ المفهوم الخاطئ»، ولذلك فإننا نرى في هذا الكتاب تفسيراً آخر للجنسية الطفلية، والانحرافات، والتصعيد، والعصاب، وعقدة أوديب، ... الخ.

غير أنَّ موضوع رايك الرئيس، الذي يشيده بحجارة النقد، هو التفريق بين الرغبة الجنسية والحب الرومانسي. وهكذا نراه يغوص في مجالات معقّدة من الغرائز والانفعالات البشرية، متتبعاً تيارات ثلاثة إلى منابعها المختلفة: الدافع الجنسي، دوافع الأنا، والحب، ومتقصّياً إدغام هذه التيارات في دفق واحد من السعادة، أو انفصالها وتعارضها.

وفي سياق بحث رايك المثير في دوافع الأنا والدافع الجنسي والحب، نجد أنه يجيب عن الكثير من الأسئلة التي تواصل زرع الحيرة والبلبلة لدى رجال ونساء اليوم: ما هي علاقة الحب بالثقافة وتطورها؟ أيمكن أن يكون ثمة اشباع جنسي دون حب؟ هل نتغاضى عن العلاقات الجنسية غير الشرعية ونعتبرها ميلاً سوّياً عادياً؟ هل ثمة ما يمكن أن ندعوه جنساً «أحادي الجانب»؟ وليست هذه، بالطبع، إلا بعض الأسئلة التي يناقشها ويحللها المؤلِّف.

ويمكن قول الكثير عن أسلوب رايك الحواري الفريد، وزخرفته كتابه بالنوادر والحكايات، والمقبوسات الأدبية، والحالات المَرَضية ذات الدلالة، الأمر الذي جعل قراءة هذا الكتاب متعة كاملة، فضلاً عن كونها تجربة في القراءة الغنية بمعلوماتها والقيّمة بأفكارها. إن رايك يقفز في حقول الأدب والفكر والتاريخ من زهرة إلى زهرة، فينشر الأريج في كل ثنايا الكتاب، لدرجة أن كثرة مقبوساته اضطرتنا بعد تردد، إلى الإحجام عن إضافة هوامش لأعلام الأدب والفكر والشخصيات التاريخية والأسطورية الواردة أسماؤهم في هذا الكتاب، وذلك حرصاً على عدم إثقال النص بهوامش كثيرة جداً.

وُلد ثيودور رايك في ڤيينا عام ١٨٨٨، ودرس في جامعتها، ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة بعد أن قدّم أوّل أطروحة كُتبت عن موضوع التحليل النفسي. ولابد هنا من ذكر تلك المساجلة التي شهدها عام ١٩٢٦ حول وجوب أو عدم وجوب صدور مرسوم ينظّم مهنة التحليل ويربطها بالسلك الطبي على نحو يغدو معه محرّماً على غير الأطباء ممارسة التحليل. وقد اتفق في العام نفسه أن رفع أحد المرضى أمام القضاء النمساوي دعوى على ثيودور رايك، الذي كان وجهاً بارزاً في جمعية ڤيينا للتحليل النفسي، وأحد المدعوين المواظبين إلى أمسيات الأربعاء التي كان يقيمها فرويد في منزله. ولم يكن رايك طبيباً بالطبع، واتهمه الرجل بأنه استخدم معه «طرائق

ضارة»... بيد أن الاختلال العقلي السافر لرافع الدعوى، وتدخّل فرويد الخفيّ لدى أحد كبار الموظفين، حالا دون تجريم رايك بتهمة «التدجيل». وكانت ثمرة تلك المساجلة كتيب فرويد «مسائل في مزاولة التحليل النفسي»، والذي يدافع فيه عن أنصاره من غير الأطباء، وكان من بينهم، فضلاً عن رايك، كل من أوتورانك وميلاني كلاين.

والحال أنه تهمنا هنا الإشارة إلى أن فرويد يشهد في هذا الكتيب لأنصاره، وفي مقدمتهم رايك، بالتأهيل الممتاز وطول الممارسة والمران وقدرتهم الفائقة التي أظهروها في مزاولتهم التحليل(*). بل وتشير بعض المصادر إلى أن فرويد وصف رايك بأنه «الرجل الذي يجسّم أملنا»(**).

كان رايك، في البداية، واحداً من التلامذة المتعصّبين لفرويد، ممّن حرص هذا الأخير على صلته بهم كلَّ الحرص دون أن تفوته الإشارة إلى ذلك كلما سنحت الفرصة. فها هو يقول في كتابه «حياتي والتحليل النفسي» الذي صدر أول مرّة في العام ١٩٢٥: «مقابل أولئك الذين هجروني، من أمثال يونغ وأدلر وشتيكل ونفر قليل غيرهم، لبث إلى جانبي عدد كبير من الرجال أمثال إبراهام وإيتنجون وفرنزي ورانك وجونز وبريل وساكس والقسّ بفستر وفان إمدن ورايك، الخ، يتعاونون معي منذ نحو خمسة عشر عاماً في إخلاص ووفاء، فضلاً عن آصرة صداقة لم يعكّر صفوها معكّر تربطني بأكثرهم. ولم أسَمِّ هنا سوى أقدم تلامذتي، أولئك الذين صار لهم اسم لامع في الأدب التحليلي النفسي»(***).

وللدلالة على تزمّت رايك لفرويد في البداية، يمكن أن نذكر كتابه الذي نشره عام ١٩٢٥ بعنوان «وسواس الاعتراف والحاجة إلى العقاب»، وهو كتاب رأى فيه بعضهم، مثل فيلهلم رايش، مبالغة خطيرة في الافتراضات التي وضعها فرويد في عمله «ما وراء مبدأ اللذّة»، والمتعلقة بغريزة الموت. فقد أكّد رايك في هذا العمل على أنَّ الميل

---

* – انظر، مسائل في مزاولة التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول، ١٩٨١.

** – انظر، قضايا في التحليل النفسي، مجموعة مؤلفين، اختارها وترجمها بتصرف إميل خليل بيدس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١، ص٩٠.

***– فرويد، حياتي والتحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط١، ص ٧٢.

الذي يحرّك كلّ كائن هو العودة إلى العدم، إلى المادة غير العضوية، هذا التأكيد الذي بدا لفيلهلم رايش كريهاً، إذْ كيف يمكن رؤية الحياة على أنها ليست سوى اضطراب من أجل السكون الأبدي، ولماذا يكون على الإنسان أن يتحرك بناءً على حاجة للعقاب الذاتي؟ وهل يمكن أن نُرجع ذلك إلى قوة بدائية فطرية أم إلى نوع من التكوين اللاحق»(*).

وعلى الرغم من كلّ هذا، فقد انفصل رايك عن فرويد لاحقاً دون أن يحول بينه وبين ذلك صداقة وثيقة أو تزمّت قديم.

كتب رايك الكثير من المؤلّفات في التحليل النفسي، والأنثروبولوجيا، والدين، والأدب، وغيرها من الحقول. ولعل الجانب الأهم من أعماله قبل انشقاقه عن فرويد هو الجانب الأنثروبولوجي، حيث يقول فرويد إنَّ رايك، ومعه عالم السلالات ج. روهايم، «سلكا في أبحاث عديدة ومهمّة لهما، الطريق الذي شقّه «الطوطم والتابو»، وقاما بتوسيعه وتعميقه أو تصحيحه»(**). أما كتب رايك بعد انفصاله عن فرويد، والتي يشير إلى بعضها في هوامش هذا الكتاب، فهي محاولة لتأسيس مدرسته الخاصة، التحليل النفسي الجديد، فإلى أيّ حدّ تمثّل نظرياته الخاصة افتراقاً مهمّاً، وثورياً، عن مبادئ فرويد؟ هذا ما يمكن لهذا الكتاب أن يساعدنا في الإجابة عنه.

يبقى أن نشير أخيراً إلى إضافة بعض الهوامش كلما لزم الأمر مشاراً إليها بعلامة (*) تفريقاً لها عن هوامش المؤلّف المرقّمة.

---

* – ج . م . بالميه ، النظرية الفرويدية – الماركسية ، ترجمة سناء نجيم ، دار القدس ، ط١ ١٩٧٤ ، ص٣٠– ٣١ .
**– حياتي والتحليل النفسي ، ص٩٣ .

سعياً وراء السعادة

لآخر مرة أقصد مقعدي المنعزل قبل أن أعود في الغد إلى نيويورك. هو لا يعدو أن يكون تلّة خفيضة لكنك ترقى إليها ببطء شديد حين تناهز الستين من العمر. يحلّ الأصيل باكراً هذه الأيام، مع أننا لا نزال في الأسبوع الأول من أيلول. وها هي بشائر الخريف في الهواء، وأوراق الأشجار الصفراء ترفّ وتصطفق قرب مقعدي، والأغصان تهتزّ مع نسيم الأصيل. وما هي إلا ساعة حتى يخيّم الظلام، والسكينة، والبرودة. قمة الجبل من جهة الغرب تتوهج كما لو أن الشمس الآفلة أراقت دمها الحار فوقها. إنه فصل الفراق.

أسفل الطريق أرى جون وجين يمرّان والذراع في الذراع دون أن يتطلعا إلى أعلى. أحبُّ هذين الزوجين الفتيين، اللذين يقضيان شهر عسلهما. إنهما مبتهجان ولكن على نحو رصين. ومن الواضح أنهما سعيدان لدرجة أن كلّ من في الفندق يبتسم لمرآهما. ولقد علّق لاروش فوكولد مرّة أن الأمر مع الحب كما هو مع الشبح: «الكلّ يتحدث عنه، وما من أحد رآه». لكن ما يقوله الدوق المتشكّك المعروف بتحرّره من السحر والأوهام ليس صحيحاً أبداً. فرؤية آلاف عديدة من الأزواج على شاكلة جون وجين كفيلة بأن تقنعه بحقيقة الحب السيكولوجية. لكنه لعله قصد شيئاً آخر. لعله نظر إلى الحب كشيء دائم، بل وأبديّ. وعندها، فإن مثل هذا المفهوم سيكون غير حكيم بالمرة بالنسبة لفيلسوف ودارس للطبيعة ألمعيّ مثله؛ فحياة الحب القصيرة لا تنتقص من حقيقته. إنه حقيقي كالزهرة، كالربيع، كالشباب، وكالحياة ذاتها. ولقد سمعت ذات مرة أغنية في موطن لاروش فوكولد تقول كلماتها:

La vie est vaine

Un peu d'amaur

Un peu de haine

Et puis bonjour.(*)

بلى، إن رؤية جون وجين لكفيلة بأن تقنع المرء بالحب.

ترى ما سرّ سعادتهما ؟ ينبثق السؤال لديك عفو الخاطر، وكأنه طالع من أعماق خفية. وتجيب: «لا تكن ساذجاً، إنهما في حالة حب». وتقف عند هذا الحد، فأنت لا تريد أن تجعل من نفسك ذاك الغبي بطرح المزيد من الأسئلة. ومع ذلك فإن ثمة مزيداً منها.

إن كون جون وجين في حالة حب لا يعني الشيء ذاته لأناسٍ مختلفين. فكلمة «حب» لها معانٍ كثيرة. لكن لندع ذلك جانباً الآن. هل جون سعيد لأنه يحب جين؟ هل هي حالة من الجنون المؤقت تلك التي تغمره بغبطة غارمة؟ ولكن لاشك أنه سيكون أقل سعادة - بل وتعيساً - إن لم ترتدّ عاطفته إليه. وإذاً، فإن جون سعيد لأنه مُحِبّ ومحبوب. ومن الواضح أن الإشباع المتأتي من كل من هذين العاملين هو من طبيعة مختلفة. وتثبت المراقبة الذاتية البسيطة أن ثمة خاصية لحالة السعادة الناجمة عن شعور المرء بالحنان مغايرة لتلك الناجمة عن كونه موضوعاً للعاطفة. ففي أن تُحِبَّ إشباع لتوق شديد، لرغبة في بذل الحنان؛ أما في أن تُحَبَّ فتحقيق لغاية أخرى، لرغبة الفرد في أن يكون مطلوباً ومرغوباً. وإذا ما كان حبّك للآخر ضرباً من المأثرة، فإن حبّ الآخر لك هو المكافأة التي تنالها من أجل ذلك. ولما كان من الممكن لهذين الشعورين أن يوجدا مستقلين عن بعضهما، فلابدّ أن يكونا مختلفين، ولابدّ من تفريقهما سيكولوجياً. فأن تُحِبّ يعني أن تتوق إلى شخص ما،

* - بالفرنسية في النص الأصلي :

عبث هي الحياة

قليل من الحب

قليل من البغض

ومن ثم صباح الخير .

أما أن تُحَبَّ فيعني أن تروق لأحد ما وتلائمه. ومن الواضح أنّ للإشباع المتأتي من كونك موضوعاً لحنان شخص آخر طابع إرضاء الأنا. فهو مرتبط بمشاعر الغرور المُشْبَع، والكبرياء المحقّقة، والطموح المُدْرَك. إنه ينفخ الأنا وينضاف إلى إحساس المرء بقيمته. أما أن تكون مُحِبّاً وحسب، فمن الواضح أنها حالة ليس لها الميزات ذاتها. فالمُحِب يشعر عندها بالذِلّ.

أن يكون المرء محبوباً ليس المكسب الوحيد الذي يناله الجانب الأنويّ في علاقة جون وجين، كما أعتقد. فهناك، مثلاً، شعور السلطة الذي يشعر به جون، والإشباع العظيم الناجم عن حمايته لها ومساعدته إياها. وثمة لدى جين نزوعات مماثلة. فهي سعيدة لأنها مطمئنة إليه ويمكنها الوثوق به، ولكنها سعيدة أيضاً لأن بمقدورها أن تؤثر عليه وتقوده. وثمة، في الوضعية السيكولوجية لكلا الطرفين، ميول إلى الهيمنة والتملّك اللطيفين أو الحاذقين متصلة بحبهما الشديد وتفانيهما، ولكنها تعمل كمكابدات انفعالية مستقلة. فجون ينظر إلى جين باعتبارها الشخص الأعزّ لديه، ولكنه في بعض الأحيان ينظر إليها باعتبارها مِلْكَهُ. وتنظر جين إلى جون على أنه لها، لكنها تتصور أحياناً أنها هي التي له.

هل هذه هي الحاجات الوحيدة التي يتمّ إشباعها من خلال اتحاد جون وجين؟ كلا بالطبع. فهما سعيدان أيضاً لأن رغباتهما الجنسية تتمّ تلبيتها. وهما سعيدان ليس لأن أحدهما يُحبُّ الآخر وحسب، بل لأنهما يعيشان سوية أيضاً. ولاشك أن الإشباع المستمدّ من هذا المصدر يختلف عن ذاك الناجم عن العاملين المذكورين آنفاً. فربما شعر جون بهذا الإشباع الخاص للجنس لدى نساء أخريات لا يحبّهن. وعلى الرغم من أن هذا الإشباع ليس له نفس العمق والإرضاء، إلا أنه موجود ويُسْهِمُ في سعادة جون ورفاهيته.

لقد قادنا التساؤل عما يجعل هذا الثنائي الشاب سعيداً إلى مصادر ثلاثة: الحب، مكاسب الأنا، والإرضاء الجنسي. وهي ثلاثة دوافع شديدة الاختلاف. وفي حالة جون وجين، تكون هذه الدوافع متحدة لدى كل منهما وموجَّهة نحو شخص

بعينه، غير أنَّ بمقدورها أن تتجه إلى موضوعات عدّة وأن تتواجد مستقلة، كل منها يبحث عن هدفه الخاص. وفي لحظات الحب الأرقى تبدو هذه الدوافع الثلاثة ملتحمة وغالباً ما يتم الخلط بينها، لكن التحليل السيكولوجي يبيّن أنها مختلفة على نحو واضح. فالجنس مقيّد إلى الجسد، والحب إلى شيء غامض ندعوه الروح. ويهدف الجنس إلى الإرضاء الجسدي؛ أما الحب فإلى إثراء الشخصية وتضخيمها؛ وتهدف دوافع الأنا إلى تحقيق الانتزاع والسيطرة. الجنس حاجة بيولوجية، أما الحب وحوافز الأنا فتبدو كمكابدات لها طابع شخصي أكثر مما للدافع الجنسي. ويبدو أيضاً أننا نميل إلى تقويم هذه الحاجات الثلاث على نحو متباين، وكأنها منبثقة من مستويات مختلفة للطبيعة البشرية. فنحن نقوِّم الحب عالياً أكثر من الجنس ودوافع الأنا. والعالم كله يحبّ العاشق، ولكن ما كل العالم يحبّ رجلاً لأنه يبتغي مصاحبة امرأة إلى الفراش.

تظهر لنا الآن سعادة جون وجين مؤسسة على توليفة Synthesis إشباعات من أنواع مختلفة: الدافع الجنسي، حاجات الأنا، والتوق الشديد للحب. وما يشعر به هذا الثنائي الشاب ليس سوى دفق واحد من السعادة، لكن هذا الدفق ذاته هو نتيجة لاندماج تيارات عدّة. ونودّ في هذا الكتاب أن نتتبع كل تيار إلى منبعه كي نتقصّى طبيعة الأنهار المختلفة التي تتحد طاقاتها في الظاهرة التي نبحث.

إن ما بدا بسيطاً في البداية يبدو الآن بالغ التعقيد. فما يدعوه الناس حباً هو في الواقع خليط من مكوّنات متنوعة جداً. ولقد مضى من الأعوام ما يقارب المئتين وخمسين منذ أن نَظَم سويفت قصيدته «كادينوس وڤانيزا» والتي نقرأ فيها:

كيف ندعو الحب هوىً واحداً
وهو مؤلّف من الأهواء كلها؟

إن الحقيقة المُعَبَّر عنها هنا ينبغي إعادة اكتشافها لأنها ضاعت. والسيكولوجي الحديث الذي يراقب جون وجين لن ينكر أنهما في حالة حب، ولكن لو سُئِل ما هو الحب، فسوف يجيب دون تردد: «إنه شكل من الحافز الجنسي كُفَّ عن الوصول إلى

هدفه». ولعل من الأفضل أن نبدأ من هذه النقطة ونباشر بحثنا الجديد بالسؤال ما هو الجنس؟ فما الذي يمكن للسيكولوجيا أن تقوله لنا عن منشأ هذا الدافع الجبّار وطبيعته؟

القسم الأول

طبيعة الدافع الجنسي

طبيعة الدافع الجنسي

ليس بمقدور السيكولوجيين أن يجيبوا عن السؤال: ما هو الجنس(١). فهذه إشكالية لا يمكنهم التنطع لها. ولابد من أن يضطلع بذلك علماء البيولوجيا، والكيمياء الحيوية، والفيزيولوجيا. وبقدر ما يمكن لنا أن نستنتج، فإن الدافع الجنسي الخام - crude sex drive هو حاجة بيولوجية تمثّل الغريزة instinct وتكون مشروطةً بتغيرات كيميائية ضمن العضوية. فالحافز urge يعتمد على إفرازات داخلية، وهدفه هو التخلص من توتر فيزيائي. ويتمّ تفعيل التنبيهات الداخلية بالتغيرات الكيميائية التي تنزع إلى إحداث تفريغ discharge، أو إطلاق release تمكن مقارنته بالإطراح. تلك هي طبيعة الدافع الجنسي الخام - لا شيء أكثر، ولكن لا شيء أقلّ.

ما الذي يمكن للسيكولوجيا أن تقدّمه بصدد تقصّي هذا الموضوع؟ إن البحث السيكولوجي في هذا الميدان هو بالضبط مثله في ميدان تظاهرات الجوع، والعطش، والإطراح، وغيرها من الحاجات الحيوية. ومهمة السيكولوجيا الفيزيولوجية هي أن تصف الإحساسات الملحوظة وتصنّفها وأن تصف المشاعر المُلذّة أو المؤلمة المُثارة من قبل هذه الإحساسات. ولقد سبق للسيكولوجي الألماني هـ. ريمك أن وصف المشاعر على نحو ملائم بأنها «الجانب الأنويّ من الإحساسات.» والحال، أنَّ سَبْر هذا الجانب هو المهمة المحددة تماماً للسيكولوجيا في هذا الميدان. ولنُضف أن السيكولوجيا العلمية ليست مؤهّلة بعد لخوض غمار مثل هذا البحث. ذلك أنه ليس للسيكولوجيين أو المحللين

---

١ - لسنا اليوم أكثر قدرة على تعريف الجنسية sexuality مما كنا منذ عشرين عاماً مضت ، عندما قال فرويد لتلامذته : «لا تنسوا أنه ليس في حوزتنا ، في الوقت الراهن ، صفة مميّزة مقبولة ومُعْتَرف بها عموماً للجنسية . فالخصائص الكيميائية التي قد نتوقعها لا تزال تنتظر من يكتشفها» . (محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي) .

النفسانيين ما يتعدّى وصف المشاعر والإحساسات وتصنيفها فيما يتعلق ببحث الدافع الجنسي الخام. فهذا الدافع تعبير عن حافز بيولوجي هو في شكله الأصلي بدئيّ وأوليّ شأنه شأن الجوع أو حاجة الإطراح. وطبيعة هذا الحافز في الأصل ليست أكثر تعقيداً من هذه الغرائز، وأهميته السيكولوجية ليست أعظم من أهميتها ما دام يُبقي الدافع في شكله البدئي وغير المختلط. وهو لا يسترعي اهتمامنا كسيكولوجيين أكثر مما يسترعيه العطش مثلاً وهو نزوة impulse خام لا تقبل أي استخدام آخر. وإذا ما تحددت الصلات الجنسية بالدافع الجنسي الخالص وحده، فإن كتاباً مثل هذا الكتاب عنوانه «سيكولوجيا العلاقات الجنسية» لا تكاد تمكن كتابته.

ولا يبدأ التعقيد السيكولوجي إلا بعد أن يتضافر الدافع الجنسي أو يتعارض مع دوافع الأنا ego - drives، تلك الحوافز الأقدم لدى الفرد. ولا تمتلئ الحاجة الجنسية بدلالتها العظيمة إلا باختلاطها مع دوافع غير جنسية. والمشكلة هي أننا حيثما نجد الدافع الجنسي، أو بالأحرى تظاهراته، يكون هذا الاختلاط موجوداً مسبقاً. ولاشك أن الجنس هو أكثر حداثة من الهدف الأول للعضوية البشرية: الرغبة في البقاء، وحفظ الذات من الفناء. صحيح أننا في بعض الأحيان نرى الحيوانات في الحرّ تهمل كل حذر؛ ونرى ديك الجبل، خلال فصل التكاثر، أقلّ اكتراثاً لاقتراب الصياد، ولكن أليس الأمر كذلك بالنسبة للغرائز الأخرى في حالات الطوارئ؟ ألا يتحدّى الإنسان الجائع كل الأخطار في سبيل الحصول على الطعام؟

نحن لا نعرف كيف أتى الجنس والجنسية إلى الحياة العضوية؛ كما لا يمكن لعلماء البيولوجيا أن يخبرونا بذلك(٢). ومن المؤكد أن الجنس لم يكن له في الأصل أي معنى شخصي. ومن السذاجة أن نفترض أن الطاقة الجنسية العمياء، التي تُدعى اللبيدو، لها

٢ – لعلّ أفضل تفسير هو ذاك المتضمَّن في الأسطورة التي عرضها أريستوفان في «مأدبة» إفلاطون والتي تحكي عن الكائن الأصلي المرأة – الرجل. ولقد قام زيوس بفصم هذا المخلوق ثنائي الجنس إلى نصفين راح كل منهما يتوق لأن يعود إليه نصفه الآخر ثانية كي يلفّ أذرعهما واحدهما حول الآخر وفي عناق متبادل يتشوّقان لأن يلتحما من جديد. أما أعضاؤهما الخصوصية المنزاحة إلى المقدمة فصارت تُستَخدم من أجل التكاثر. ولن تكون جرأة زائدة منا أن نزعم أن أريستوفان يعالج هنا أصل الحب ومنشأه أقل مما يعالج أصل الجنس، وأنه يردّ الجماع إلى إعادة الجزئين المنفصلين إلى حالة اتحادهما الأصلية. (البروتوزوا).

طابع شخصي. ويبدو الدافع الجنسي الخام بمثابة ابتعاد عن شيء أكثر منه اندفاعاً صوب شيء آخر؛ محاولة للفرار من ضغط عضوي داخل الفرد. ونحن عندما نفكّر بالدافع الجنسي أو نتكلم عنه نأخذ كمسلّمة ما هو في الحقيقة صلة غير مبرّرة بين حافزه الداخلي والتنبيه الذي يتلقّاه من الموضوع الخارجي. فهو في الأصل بلا موضوع، إحساس ضمن العضوية يتطلب إطلاقاً شأن الضغط داخل المثانة. ولا يتجه هذا الدافع، الذي لا يميّز بين الأشخاص، باتجاه موضوع مختار إلا لاحقاً. فهو في البداية لا يكون اختيارياً تماماً، وإنما يعتمد على الموضوع الأكثر توافراً. وفيما بعد تكون الموضوعات المختارة هي تلك التي تعد بأكبر إشباع satisfaction من النوع الفيزيائي، ولكن حتى آنذاك تظل مسألة الفرصة الأسهل تحظى بأهمية فائقة. ولقد دعا نابليون الزنى ساخراً: "une affaire du canapé"(*). فالاستعداد لاستبدال موضوع بآخر تكون له دلالته وأهميته عند هذا المستوى: إن لم تكن آنّا هناك، فإن ماري ستفي بالغرض(٣).

إنه لمن مصلحة الوضوح السيكولوجي أن نستطيع التفريق بين حالة الحافز الجنسي العام وحالة الرغبة في موضوع جنسي محدد. وأنا أقترح، لإيضاح هذا الفارق، التمييز بين هاتين الحالتين، بأن نطلق على الأولى اسم «الاحتياج» وعلى الأخرى اسم «الرغبة». فالشخص المحتاج يستشعر ضغطاً جنسياً قوياً دون أن يتخيّل موضوعاً محدداً. أما الرغبة فتدلّ على تمنّي الاتصال الجنسي مع شخص محدد. ويمكن مقارنة هذا الفارق بالفارق بين شخص جائع جداً، يُسَرُّ لأي طعام، وآخر يختار شرائح اللحم، ليتناولها بكل هدوء. وبالطبع، فإن هنالك انتقالات ممكنة من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية، حيث يمكن للمرء القول: «أودُّ أكل اللحم» أو «أريد بعض الفاكهة».

دعونا نتصور، للحظة، أن الاتصال الجنسي فعل يُنْجَز دون تمييز بين الأشخاص، كإجراء صحّي محض، أو كفرصة للتخلص من توتر فيزيائي. إن مثل هذا الافتراض قد

---

* – بالفرنسية في النص الأصلي : مسألة أريكة .

٣ – يقول تعليق على رسم كاريكاتوري يظهر رجلاً يركض للّحاق بالباص : «لا تركض أبداً خلف باص أو امرأة . خلال دقيقتين أو ثلاث سيأتي غيرهما» .

يكون مستحيلاً سيكولوجياً لدى الأشخاص المثقفين، ومع ذلك فلنقبل مؤقتاً أنه يمكن لرجل ما أن يتصل جنسياً بامرأة لم يرها أبداً من قبل وتغطي وجهها ببرقع. في مثل هذه الحالة المُتَخيَّلة (والتي غالباً ما تحققت في مواخير الجنود أثناء الحرب) يكون الاتصال الجنسي سطحي الإشباع، وخالياً من المتعة - شيئاً تمكن مقارنته بالتبول، وليس فيه من الانتعاش أكثر مما في قذف يزيل التوتر الفيزيائي. ولقد عبّر لي مريض عصابي، لم تكن مقدرته الجنسية مستقرة، أنه حاول مرة القيام بتجربة مماثلة: فقد قرر، بضغط من حاجته الجنسية، ممارسة الجنس مع عاهرة دون محاولة الشعور بأي تورّط انفعالي، وكما قال، دون فعالية أو اهتمام بالفعل الجنسي، ودون تعاون من طرفه. فما كان من المرأة إلا أن سألته في منتصف الفعل: «أتريد جريدة؟».

إذاً، أين يمكن لنا أن نجد الدافع الجنسي غير المختلط؟ أنا واثق من أنني لا أعلم. هل في التجارب المخبرية؟ لكنني لم أسمع قط بمثل هذه التجارب. فمن الصعب توفير الشروط الضرورية. إذ كيف يمكن إقصاء عامل الانفعال emotion، وإزالة تأثير الأفكار والاستيهامات fantasies المتصلة بالجنس، وإبعاد مفاعيل الدوافع الأخرى التي تترافق مع الحافز الجنسي؟ يبدو أننا لن نستطيع أبداً التوصل إلى التعبير السيكولوجي عن الغريزة الجنسية في شكلها الأكثر نقاءً، وبدئية. يمكن لنا أن نأمل بالدنّو منها وحسب، مع أنه من المشكوك به كثيراً ما إذا كان يمكن للتجربة المخبرية تقديم جواب تقريبي. كما أن نتائج الاستبيانات التي نشرها هافلوك إليس وكثير من الأطباء الأمريكان ليس لها سوى قيمة مؤقتة.

في بعض الأحيان توفر الحياة ذاتها شروطاً قريبة من تلك التي نودّ توفّرها في الاختبارات السيكولوجية. وعلى سبيل المثال، نقلت سيدة شابة التجربة التالية أثناء التحليل النفساني: في إحدى أمسيات الصيف الحارة، وحين كانت في مزاج قلق ومُثار بصورة غامضة، وهو مزاج تشعر به معظم الناس قبل الطمث مباشرة، ذهبت هذه السيدة إلى السينما. كان الفيلم قد بدأ، وفي الظلمة جلست في أول مقعد قادها إليه الدليل. وما هي إلا بضع دقائق حتى شعرت بيد رجل تداعب بلطف ذراعها العاري. وبالطبع نهضت مباشرة وانتقلت إلى مقعد بعيد، ولكنها لبضع ثوان شعرت بتهيج حنسي شديد مع أنها لم ترَ الرجل. لقد أفسدت حقيقة انقطاع التهيج الجنسي في طوره البدئي

القيمة السيكولوجية لهذه التجربة. وبما أن الدافع الجنسي البشري يظهر للمراقب السيكولوجي في هيئة معقدة مسبقاً، فإن من العبث أن نتوقع من معطيات الاستبيانات ما يمكن أن يسعفنا. ويبدو أن النشاط الجنسي لدى الأطفال، والقبائل البدائية، والأفراد الذين لم يتأثروا تأثراً قوياً بنموذجنا الثقافي(*) الذي نعيش فيه، هو أفضل المصادر المتوفرة للمعلومات اللازمة من أجل البحث السيكولوجي للدافع الجنسي؛ ولكن هنا أيضاً تعوقنا ندرة المعلومات المستحصلة وقيمتها المحدودة.

في نقاشنا إشكالية الجنس، نهمل عموماً أن نأخذ في الحسبان أنّ الجنس ليس كما كان منذ آلاف السنين. الدافع الخام هو ذاته بالطبع، لكن تظاهراته خضعت لكثير من التغيرات. فقد مرّ زمن كان فيه للدافع الجنسي طابع دوريّ صرف، شأنه لدى البهائم، كونه مقتصراً على فصول الحرّ. فهذا الدافع كان يتبع إيقاع العالم العضوي، القانون نفسه الذي يتحكم بتغير النوم واليقظة، الجوع والشبع، ودورة المدّ والجزر. ومع أن الثقافة تستحسن مسيرة غير إيقاعية إلا أنها لم تستطع إزالة الطابع السابق بصورة كاملة. ولا يزال الدافع الجنسي محتفظاً بشيء من طبيعته الأصلية إلى الآن. ولابدّ أن التغيرات قبل التاريخية prehistoric في البيئة، والمناخ، والقشرة الأرضية والطعام، قد تركت جميعها أثراً على عادات البشر الجنسية. كما أن هنالك تغيرات أخرى فُرضَت على هذه العادات، ليس من قبل الحياة الخارجية، وإنما من قبل قوى داخل البشر أنفسهم، وأكملت، أو بالأحرى عملت على تذويت(**) internalization تلك التغيرات الأخرى، ذلك أن الإنسان يصوغ نفسه على غرار العالم المحيط. وهكذا فإن الجنس كان له في الأصل طابع العراك، وكان يتمّ فيه اغتصاب المرأة أكثر مما تتمّ معانقتها. ولابد أن أنثى ما قبل التاريخ - لابد أنكم تترددون في أن تقولوا «امرأة» - قد عضّت رجل الكهوف المعتدي في عنقه أثناء هذا العراك. ولقد كان على البشرية أن تقطع طريقاً طويلاً من الأسنان إلى الشفاه، من العضّة إلى القبلة. وسوف نتتبع هذا الطريق لاحقاً.

* - تشير كلمة culture الإنجليزية إلى معنى الثقافة والحضارة في آن واحد . وكثيراً ما تُستَخدم كلمة ثقافة بهذا المعنى ، لاسيما عند علماء الأنثروبولوجيا ، حيث تشير إلى ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع . وبالمناسبة فإن ثيودور رايك كان متميزاً بين المحللين النفسانيين بسعة معارفه الأنثروبولوجية .

**- التذويت : إضفاء صفة ذاتية على شيء ما ، وخاصة إدماجه في النفس بحيث يصبح بمثابة مبدأ هادٍ .

نحن لم نعد نأكل مثل إنسان كرومانيون(*). لسنا من أكلة لحوم البشر، ولا ننتزع اللحم النّيء من بين أشداق الحيوانات لنلتهمه. لا نأكل الجذور من الأرض كما فعل، ولا نأكل بالطريقة ذاتها. ولقد تغيرت شهوة الإنسان للطعام في شدتها، وفي ما تشتهيه، وفي تعبيراتها، وهكذا حصل لشهوته الجنسية. ويكفي أن نتذكر واحداً فقط من تلك التحولات التي نجمت في البداية عن عوامل خارجية، ولكنها تدعّمت لاحقاً بمحددات انفعالية. فقد تلقّى الدافع الجنسي تنبيهات جديدة عندما بدأت النساء بارتداء الملابس. ولقد عمل هذا العامل غير الجنسي على تغيير طابع الموضوع المرغوب. ولقد وصف أناتول فرانس، في مشهد مؤثر من «جزيرة البطريق»، ذلك التحول الثوري الذي جرى عندما برزت النساء لأول مرة وعليهن الملابس - لعلكم تفضلون القول أنهن برزن وعليهن الأغطية. إن هذا وغيره من التغيرات التي لابد أنها حصلت خلال مئات عديدة من آلاف السنين هي التي جعلت من الإنسان بالتدريج هذا الحيوان الأليف الذي نعرف. ولكن الذي تحول ليس طبيعة الدافع الجنسي الخام، وإنما شروط إثارته وتعبيراتها. فقد حدث تغيّر كبير في هذه الشروط والتعبيرات من أشكالها الأكثر بدائية وصولاً إلى تظاهراتها اليوم، تغيّر يتسم أكثر ما يتسم بالفارق في الطريقة التي ننظر بها إلى الموضوع، وبتمييزٍ يأخذ في البداية هيئة أية أنثى وفي النهاية صورة الحبيبة. ومن الواضح أن كل إنسان يكرر في تطوره الفردي هذه المسيرة التاريخية الطويلة:

كان ثمة أحمق يلهج بصلواته
(مثلي ومثلك تماماً)
لخرقة وعظْمة وكبّة شَعر
(نحن ندعوها امرأة لا نفع فيها)
لكن الأحمق يدعوها سيدته الجميلة
(مثلي ومثلك تماماً)

ولكن أليس في أبيات روديارد كبلنغ الوقحة هذه تطور مشابه لما نجده في الدين؟

* - إنسان كرومانيون : إنسان قبل تاريخي وجدت بقاياه في كهف كرومانيون في فرنسا .

ألم يتحول الله من صورة زعيم القبلة الفاسد إلى أرقى مثال يعرفه الإنسان؟ وهل كفّ يهوه عن الظهور في بعض الأحيان كطاغية غيور وحقود؟ إنها لقلّة تهذيب حقاً أن ننظر إلى امرأة، أية امرأة بمثل هذا الازدراء البارز في أبيات كبلنغ. أما بلزاك، وهو كاتب أعظم من كبلنغ، فقد عرض على صديق له صنماً فجاً من جزر بحر الجنوب. وعندما علّق الزائر باستخفاف، حذّره بلزاك قائلاً: «صه! وما أدراك أنه ليس إلهاً؟» وما أدراك أنت أن هذه المرأة، هذه البغي أو الخادمة البائسة التي تهزأ بها، ليست ربّة واحدٍ أو كثيرٍ من الرجال.

الخلط بين الحب والجنس

تذكرون أن من بين المصادر الثلاثة التي تشكّل سعادة جون وجين - الحب، ومكاسب الأنا، والإرضاء الجنسي - اخترنا الجنس باعتباره الموضوع الأول لبحثنا، حيث قيل لنا إن الحب ليس إلا شكلاً من الجنس كُفَّ عن الوصول إلى هدفه. وقد قدّم لنا العلم الحديث، وخاصة التحليل النفسي، هذه المعلومة. فالدافع الجنسي، تبعاً لفرويد، انحرف عن غايته الأصلية أو كُفَّ عن بلوغها. والنتيجة هي الحب. هذا الانفعال الذي يبقى جنسي الطابع، بصورة لا واعية على الأقل، مهما بدا مجرداً من الجنسية.

ولقد أمكن لفرويد وتلامذته عرض القضية على هذا النحو من خلال توسيع معنى كلمة «جنس». فهي تتضمن من المعنى بالنسبة لهم أكثر مما تتضمنه بالنسبة للناس العادين. والحياة الجنسية تشتمل، بنظرهم، على كل المشاعر والنشاطات التي تجد أصلاً لها في الحافز الجنسي البدئي. وإيمان فرويد الراسخ بأن الحب، والعاطفة، والصداقة هي أيضاً جنسية في منشئها وطبيعتها يستند إلى خبرة مفادها أن من الممكن اكتشاف نزوعات جنسية تفعل فعلها بصورة لا واعية في ماندعوه الحب النقيّ، وأن من الممكن أن نجد هذه المكابدات الجنسية التي كُفَّت عن بلوغ هدفها حاضرة وفاعلة في حنان الآباء تجاه أبنائهم، والأبناء تجاه آبائهم، وفي الصداقة بين شخصين من الجنس ذاته. وليس صحيحاً، كما يؤكد خصوم التحليل النفسي، أن الجنس يلعب دوراً مفرطاً في نظرية فرويد. فعندما يتمّ تضخيم فكرة الجنس بحيث تشتمل على الحنان، والعاطفة، والغرور، والطموح، وكثير من دوافع الأنا، لن يبدو الدور مفرطاً. ولكن السؤال هو فقط ما إذا كان مثل هذا الاشتمال ممكناً.

هل كان بمقدور فرويد أن يساهم في إثبات أن الحب هو أساساً جنسي في منشئه وطبيعته، وأنه ليس إلا نسخة مطابقة للجنس، دون توسيع معنى هذا الأخير؟ لاشك أن

ذلك ما كان ليتمّ له باستخدام كلمة «جنس» بمعناها السابق على التحليل النفسي. فلقد فرّق البشر على الدوام بين الحب والجنس، ومازالوا يميّزون بشدة بينهما. ولم يتسع معنى الكلمة وتضحي تعبيراً يخلط الحابل بالنابل إلا مع التحليل النفسي(*). فسواء كنت تشعر تجاه امرأة بعاطفة أو بتهيج جنسي عابر، فإن التحليل النفسي يدعو هذه المرأة موضوعك الجنسي.

ولقد خضعت كلمة ليبيدو لهذا التوسيع الجائر وغير المبرّر ذاته. فهي في الأصل كانت تعني طاقة الدافع الجنسي ليس غير. أما لدى فرويد فقد أخذت أيضاً معنى القدرة الانفعالية التي ينطوي عليها كلٌّ من العاطفة والحنان الموجّهين نحو شخص أو عدد من الأشخاص، وحتى نحو أفكار مجرّدة. وفرويد، شأنه شأن بروكروست في الميثولوجيا الإغريقية، لديه ميل إلى توسيع المصطلح ومطّه كي يلائم فكرته. وتمكن مقارنة مثل هذا السلوك بموقف ذلك الخصم العنيد الذي جادله أبراهام لنكولن ذات مرّة:

- «حسناً، لنَرَ،» قال لنكولن لهذا المزارع، «كم ساقاً للبقرة؟»
- «أربع، بالطبع»، كان الرد السريع.
- «هذا صحيح، والآن هَبْ أننا دعونا ذيل البقرة ساقاً، فكم ساقاً يكون لها آنئذ؟»
- «ماذا؟ خمس، طبعاً».
- قال لنكولن: «الآن هنا خطؤك. وذلك ببساطة لأن تسمية ذيل البقرة ساقاً لا تجعل منه ساقاً بالفعل».

---

* - يلخّص الدكتور مصطفى زيور هذا التوسيع فيقول: «ولابد من الإشارة إلى أن مفهوم الجنسية في التحليل النفسي مرادف لمفهوم الحب بأوسع معانيه، فهو يتضمن أولاً الحب الجنسي وما يهدف إليه من الاتحاد الجنسي (أي الاتصال الجنسي بفرد من الجنس الآخر) كما يتضمن حب الذات، وحب الوالدين والأولاد، والصداقة، وحب الإنسانية عامة، وكذلك التعلّق الحميم بالموضوعات العيانية والأفكار المجردة. فكل هذه الميول، كما تبيّن خبرة التحليل النفسي، تعبر عن دوافع غريزية واحدة. ففي العلاقات بين الجنسين تقتحم هذه الدوافع الطريق صوب الاتحاد الجنسي. ولكنها تتحول في ظروف أخرى عن هذا الهدف، أو تُمنع من الوصول إليه، وإن ظلّت دائماً تحتفظ بقدر من طبيعتها الأصلية يكفي للتعرف على وحدتها». (انظر تقديمه لكتاب فرويد «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، ترجمة سامي محمود علي، مراجعة مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة، المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي، ص٥).

وبالمثل، فإن تسمية الحب والحنان شكلاً من الجنس لا تجعلهما جنسيين. والمطابقة بين العاطفة والجنس باستخدام الاسم ذاته لكليهما لا تجعل منهما الشيء ذاته.

وكان فرويد قد حذّر أتباعه وتلاميذه من أن يأخذوا كلمة جنس بمعناها الحرفي القديم. وحاول مرة بعد مرة إقناعهم أن كل مشاعر العاطفة والحب مُتَضمنة في المعنى الجديد الذي يستخدمه التحليل النفسي. كما فضّل لبعض الوقت استخدام تعبير «الجنسية النفسية» Psychosexuality كي لا يُساء فهمه ويُظَنّ أنه يقصد الرغبة الجنسية البدئية. ولكن المحاولة باءت بالفشل. وأثبتت الكلمة أنها أقوى من مشيئة فرويد ونزوعه إلى تغيير مضمونها. لقد رمى صياد البحار العميقة هذا شبكته في أوقيانوس النفس البشرية آملاً الظفر بكثير من الأسماك الكبيرة دفعة واحدة: الجنس، الحب، الحنان، الصداقة. لكن ما عَلِقَ فيها لم يكن سوى الجنس وحده. أما الأُخريات فقد فررن من عيون الشبكة الوسيعة.

وبالنسبة للسيكولوجيين والأطباء النفسانيين من أتباع فرويد سرعان ما أصبحت الفروق بين الحب والجنس متناهية في الصغر ومن ثمّ اختفت في النهاية. الأمر الذي يذكّر بذاك الموظف الحكومي الذي تحدّث عنه مرة أحد كتّاب ڤيينا الظرفاء قائلاً: «إنه يأخذ مثل هذه الرشى الصغيرة على أساس أنه غير قابل للرشوة تقريباً». وبالمثل، فإن إمكان العودة من المعنى الفرويدي لكلمة «جنس» إلى مضمون الكلمة الأصلي أضحى صعباً ودقيقاً إلى أبعد حد بحيث بات من الضروري بذل مجهود كي نتذكر أن الكلمة عنت لفرويد شيئاً مختلفاً. لقد حام فرويد حول مشكلة الحب مفترضاً أنه مؤشر على الجنس. وبالتالي فإن الجهد الذي بذله لم يكن لحلّ المشكلة بقدر ما كان لإبقائها مستورة. وبالنسبة للمحللين النفسانيين، بدت العاطفة كما لو أنها محض نسخة هزيلة من الرغبة الجنسية. ولم يجدوا صعوبة في القفز عن هذه الإشكالية؛ فعماهم النظري حال بينهم وبين رؤيتها. أما القلّة ممن كانوا مدركين لوجودها فقد أَمَلوا أن تختفي إذا ما واصلوا الاشاحة بوجوههم عنها. وهكذا فإنهم لم يتمكنوا من حشر، أو حتى إلصاق، أية فكرة أصيلة في منظومتهم الجامدة: الحب هو الجنس مطروحاً منه الجنس وكفى المؤمنين شرّ القتال.

إذا كان فرويد قد وجد آثاراً للرغبة الجنسية اللاواعية في الحنان والصداقة، فهل يثبت هذا وجهة نظره؟ إن ثمة هواء في المقعد أيضاً. فهل نقول عندئذ، إن المقعد مصنوع من الخشب والهواء؟ إن كون الحب غالباً ما يوجد متحداً وملتحماً مع الجنس لا يعني أنهما من طبيعة واحدة. فالألفة affinity لا تعني التماهي identity. ويمكنك أن تكون خدين شخص آخر دون أن تشبهه. كما يمكنك أن تكون وِلْف رجل ليس من عائلتك.

بين الحب والجنس فروق من طبيعة حاسمة تجعل من غير المحتمل أن يكونا من أصل واحد ولهما الطابع ذاته، كما يؤكد المحللون النفسانيون. وتتجلى هذه الفروق على أفضل وجه عندما تتعارض كلتا الظاهرتين في شكليهما الأنقى. وهاكم بعض الأمثلة: الجنس حافز بيولوجي، نتاج للكيمياء ضمن العضوية: أما الحب فتوق انفعالي شديد، من إبداع خيال الفرد. في الجنس دافع للتخلص من توتر عضوي؛ أما في الحب فحاجة للفرار من الشعور بالنقص والقصور. في الأول طلب للإشباع الجسدي؛ أما في الثاني فسعي وراء السعادة. أولهما يعنى بخيار الجسد؛ أما الآخر فبخيار الشخصية. للجنس معنى عام؛ للحب معنى شخصي. الأول نداء الطبيعة؛ أما الثاني فضرورة الثقافة. الجنس مشترك بين البشر والبهائم؛ أما الحب أو الغرام فقد ظلّ مجهولاً آلاف السنين لدى بني البشر ولا يزال مجهولاً بالنسبة لملايين منهم إلى الآن. الجنس أعمى لا يميّز بين شخص وآخر؛ أما الحب فمُوَجَّه نحو شخص بعينه. الأول يرخي العضلات؛ أما الثاني فيفتح مسارب الفيض في الشخصية. وحتى المُشْبَع جنسياً يمكن أن يشعر بلوعة الحب. الدافع الجنسي يخمد بعد الفعل؛ ذلك أن هنالك توتراً، فتشنجاً، فإطلاقاً. وفعل اللذة pleasure الأولي لا يمكن تذكره لاحقاً، شأنه شأن طعام خاص لا يمكن استرجاع نكهته بصورة حيوية. أما في ظاهرة الحب فلا يمكن ملاحظة مثل هذه اللامبالاة تجاه الموضوع. فكل إيماءة وكل كلمة من الحبيبة يتم تذكرها بصورة مشرقة. الجنس درامي؛ أما الحب فغنائي. موضوع الجنس لا يكون مرغوباً إلا خلال فترة التهيج القصيرة ويكفّ عن كونه كذلك خارجها؛ أما المحبوب فهو موضوع حنان متّصل.

وهكذا فإنني، لدى مناقشة إغواء lure الموضوع، أميّز بين إغرائه appeal الشخصي وإغرائه الجنسي. فالإثنان منفصلان عن نحو واضح في الواقع، لا في التوصيف وحده. إن الإغراء الجنسي يتلاشى بعد الفعل. فبقيامك بالفعل الجنسي،

تكون قد انتهيت من هذا الإغراء. أما الإغراء الآخر فهو من طبيعة باقية. وكثير من الرجال، وعدد أقل من النساء، يخلطون بين هاتين الحاجتين، مع أنهما تمثّلان وجهين متباينين من أوجه الملاحظة الذاتية. وعندما يتحد الحب والجنس ويتجهان نحو الموضوع ذاته، يكون من الصعب أحياناً معرفة أي من الحاجتين يحظى بحصة الأسد، ولكن فصلهما يمكن أن يتمّ على نحو واضح عادة في إدراكنا الحسي perception.

كيف أمكن للنظرية الفرويدية، التي اعتبرت الحب نوعاً من الحافز الجنسي المُسْتَبعَد، أن تحظى بكل هذا القبول؟ ولماذا لم يكشف الجدل الذي تأخر كثيراً أن هذه النظرية تؤدي إلى خلط مروِّع ونتائج فاسدة؟ ليس الجواب في حوزة الكثيرين من السيكولوجيين والأطباء النفسانيين. فهنالك، أولاً، التقليد الفلسفي والتعليم الطبي الذي يجب التغلب عليه. وفي هذه النقطة بالذات لم يكن فرويد أصيلاً ولا واسع الخيال. إن سلطة معظم الفلاسفة من إفلاطون إلى شوبنهور، ومعظم الأطباء من العهود الإغريقية إلى الأطباء النفسانيين في أيامنا هذه، عزّزت النظرة التي تعتبر الحب جنسياً أساساً في أصله وطبيعته، سليلاً انفعالياً للدافع الجنسي. وهنالك، ثانياً، ما لدى الأطباء من مقت aversion، طبيعي تماماً، لنشوة الشعراء والعشاق الذين رأوا في الحب ظاهرة فوق طبيعية أو ميتافيزيقية، ليست من هذه الأرض وغامضة في طبيعتها. وأخيراً، وليس آخراً، لم يكن ثمة نظرية أخرى بمقدورها أن توضح هذا الشعور وتفسّر سبب اتصاله الصميمي مع الجنس في معظم الحالات. ويوضح وجود هذه العوامل الثلاثة سبب بقاء نظرية فرويد دون نقض كل هذا الوقت. لكن الاحترام الشديد للسلطة والتقليد في الطب النفسي والفلسفة لا يمكن تبريره عندما نصادفه لدى البحاثة النقديين. ومن المبرّر، بالطبع، التأكيد على أن الحب متأصّل في السيرورات الانفعالية، وأنه موضوع للاستقصاء السيكولوجي. ولكن الخشية من أن يختلط علم النفس كعلم متميز مع نظريات الشعراء المترفّعة ويفسد بها تبدو جديرة بالازدراء. أما غياب نظرية سيكولوجية قيّمة أخرى فيما يتعلّق بأصل الحب وطبيعته فقد كان أمراً مؤسفاً لا يمكن نكرانه؛ وهذه حقيقة علينا أن نخجل منها نحن السيكولوجيين.

بقي الوضع على حاله إلى أن ظهر التحليل النفسي - الجديد neo - psychoanalaysis. وأنا أطلق هذا الاسم المؤقت على تجديد التحليل النفسي، هذا التجديد الذي يعني في

الوقت ذاته مراجعة وإعادة تقويم للكثير من نظريات فرويد. إن التحليل النفسي - الجديد هو في مناخٍ محددة مواصلة لعمل فرويد؛ وفي أخرى، بديل لها[1]. إنه ثورة في الثورة. وليس مصادفة أن البحث التحليلي النفسي - الجديد بدأ بدراسة منشأ الحب وطبيعته باعتباره متفارقاً مع الجنس ومتعارضاً معه. وسوف نعود إلى هذا الموضوع لاحقاً بعد مناقشة نظرية اللبيدو الفرويدية، هذا التأويل الخاطئ الغريب الذي طلع به التحليل النفسي على العالم. فهنا اقترف فرويد خطأً فاحشاً. أما الكثيرون من تلامذته المقتفين خُطَى أستاذهم، فقد جعلوا الأدب التحليلي النفسي، بإنتاجهم الغزير، ولكن الخالي من الإبداع، مرتعاً للمعلومات الخاطئة عن الجنس والحب. لقد لاحظوا كثيراً من الوقائع التي لا يمكن نكرانها. كما عرضوا كثيراً منها على نحو منسجم، ولكن لابدّ من تحري الدليل. ولابد أن نعترف أن كثيراً من المحللين النفسانيين هم ذوو ضمير حي شأن فرويد على الرغم من أنهم أضعف منه ملاحظةً بكثير. فبعد أن جمعوا وقائعهم، رتبوها وفسّروها كما يشاؤون. وغالباً ما يخلّف لديك تقديمهم للنتيجة النهائية انطباعاً بأنهم يتّبعون نصيحة مارك توين: «امتلك الوقائع أولاً ومن ثمّ يمكنك تحريفها كما تشاء». ليس يكفي أن تعني الصلة بين واقعتين أو أكثر شيئاً ما. بل يجب أن تكون هي أيضاً شيئاً ما.

إن لوحة العلاقات البشرية، كما يصورها المحللون النفسانيون، هي لوحة مشوهة الأجزاء. إنها تشبه صورة شخص في المرايا المحدّبة والمقعّرة التي يقف أمامها زوّار ميادين اللهو. هل أنت ذاك الذي يبدو في المرآة؟ أجل إنه أنت، ولكن مشوهاً وممسوخاً على نحو فانتازي - سميناً بصورة هائلة أو نحيلاً إلى حد مفرط، طويلاً جداً أو بالغ القصَر، بأيد وأرجل عملاقة - كالقزم أو كجوليات(*). إن مرآة التحليل النفسي تعكس الطَبيعة البشرية باعتبارها طبيعة جنسية على نحو مغاير لكل ما هو طبيعي. وما هو موضع شك ليس وجود الجنس، وإنما التقويم السيكولوجي والأهمية الانفعالية اللذان يُسبغان عليه. ولا حاجة بالوقائع لأن تكون مهمّة بحدّ ذاتها؛ فهي تستمد دلالتها وأهميتها بارتباطها مع غيرها من الوقائع. والوقائع الجنسية التي يجدها التحليل النفسي لا يمكن نكرانها في الغالب، لكنها تبدو غير متصلة بالموضوع، غير أساسية، وارتباطها بالإشكالية ضعيف مادامت لا تعنى إلا بالحاجات الجنسية الخام.

---

١ - ثمة كتاب سيصدر قريباً ، عنوانه نشوء التحليل النفسي - الجديد ، تأليف ثيودور رايك ، سوف يوضح هذا المفهوم .

* - جوليات الفلسطيني ، مارد من التوراة ، هزمه الملك داود .

ليس مــوضع شك أن الدافع الجنسي الأولي الذي يفـعل فـعله دون تميـيـز بين الأشخاص هو قوة تحرك العالم. وليس في نيتنا هنا الارتداد إلى ما قبل الفرويدية، وإنما القيام بالتفريق الذي يقتضيه البحث السيكولوجي الجديد. فالباحث السيكولوجي الذي يتفحص النظريات التحليلية في الجنس، يجد نفسه في وضع شخص يحاول دون جدوى حلّ أحجية الصورة المقطوعة jigsaw puzzle. فكثير من القطع يناسب بعضها بعضاً، لكن كثيراً منها ليس لذلك. ولا تزول هذه العقبة إلا عندما نتحقق من أن هنالك قطعاً تعود إلى صورة أخرى ويجب طرحها جانباً. ومهمتنا الأولى هي عزل هذه القطع. فهي في الأصل من علبة أخرى وقد اختلطت خطأ مع قطع الأحجية التي بين أيدينا.

الانفصام بين الجنسية والحنان

سبق لإرنست رينان أن أعلن أن عدداً قليلاً فقط من البشر لهم حقّ انتقاد النظام اللاهوتي للكنيسة الكاثوليكية، لأن قلّة فقط تعرف وتدرك أي مقدار من الحكمة والذكاء، ومن العبقرية الثاقبة، قد استُخدم في بناء هذا النظام. وللسبب ذاته، فإن قلة من الناس فقط ممن صرفوا سنوات عديدة في بحث الموضوع يمكنهم انتقاد نظرية اللبيدو الفرويدية. ولكن إذا ما قبلنا الأفكار الأساسية، وخاصة المفهوم الموسّع للجنس، فإن من الصعب على نحوٍ استثنائي أن نزيل التشوّش الناجم عن هذه التصورات الخاطئة الأصلية. ولذا فإنّ التنقية الدقيقة للأفكار تصبح ضرورية جداً.

إن المراجعة النقدية التي نقوم بها هنا لنظرية فرويد في الجنس ليست لمجرد المراجعة. ذلك أن النقد لا معنى له إن لم يكن بنّاءً وإن لم يقدّم شيئاً أفضل يحلّ محلّ المفهوم الخاطئ. ونحن في هذا الكتاب لا نناقش في نظرية اللبيدو إلا تلك الجوانب التي يتوافر لنقدها مثل هذه الشروط. ولابد أن أضيف أن معارضتي التي لا هوادة فيها لمفهوم فرويد في الجنس والحب لا تغيّر من اعتباري له واحداً من أعظم السيكولوجيين على مرّ العصور.

تستدعي العلاقة بين الجنسية والحنان Tenderness إشكالية ذات أهمية خاصة جداً: فالموقف السويّ في الحياة الحبّية لا يكون ممكناً إذا لم يتحد هذان التياران، وإذا لم تتلاقَ النزوات الجنسية مع نزوات الحنان على الموضوع ذاته. ويعود الكثير من البؤس والتعاسة في العلاقة بين الجنسين إلى الإخفاق في بلوغ هذا الاتحاد. كما أن الانفصام بين الجنسية والحنان هو سبب الكثير من المصاعب في الحياة الزوجية. وقد شغل هذا الانفصام اهتمام السيكولوجيين، وخاصة في تظاهراته البارزة مثل العنّة impotence لدى الرجال والبرود frigidity لدى النساء. أما فرويد فقد ناقش منشأ وطبيعة هذا الانفصام مرات عديدة. ومن بين التيارين، يؤكد فرويد، أن تيار الحنان هو الأقدم، ويكون موجّهاً إلى أفراد العائلة

وإلى أولئك الذين يعتنون بالطفل. ومن ثم، فإن موضوعات الحب الأولى - الأم، المربية، الأخت الكبرى - تصبح هي الموضوعات الجنسية الأولى، إلى أن يواجه الدافع الجنسي لاحقاً عاجز غشيان المحارم(*).

عندما تنشغل استيهامات الشاب اللاواعية بتلك الموضوعات، المحاطة بتابو المحارم tabu of incest، تتعطّل وظيفته الجنسية تجاه امرأة تذكّره بأمه أو بأخته. وبالتالي فإنه يصبح عنيناً، أو أن قدرته الجنسية تصبح مزعزعة ومتقلّبة، لأن شيئاً ما في المرأة يذكّره بالأشخاص المحظورين عليه. أما القسم الذي يبقى سليماً من رغبته الجنسية فيتحول الآن إلى موضوعات بعيدة اجتماعياً، لا تنتمي إلى دائرة الأشخاص الذين يفكّر بهم كبدائل لأمه أو لأخته. وعاقبة مثل هذا التجنّب في التفكير هي تبخيس degradation الموضوع. وبعبارة أخرى، فإن هذا الرجل لا يمكنه أن يؤدي وظيفته الجنسية إلا مع نساء ينظر إليهن من عل ويحتقرهن، بينما يكون عنيناً مع نساء يحترمهن ويعتبرهن أنداداً لأمه ولأخته. وعندما يتّخذ امرأة من هذه المجموعة الأخيرة موضوعاً جنسياً، فإن عليه أن يبخّسها في أفكاره واستيهاماته كي يجعلها ممكنة كموضوع للإرضاء الجنسي. وغالباً ما تفشل محاولة توحيد متطلبات الحنان مع المتطلبات الجنسية. وقد ردّ فرويد العنّة النفسية إلى عدم التقاء المكابدة الجنسية والمكابدة العاطفية. فالكفّ inhibition الملحوظ لدى البالغ ينجم عن تثبيت fixation الطفل على موضوعاته الأولى ويدلّ لاحقاً على قوة التأثيرات التي كبحت ذات مرة رغبات الصبي المحرَّمة الأولى. أما بالنسبة للنساء الباردات جنسياً - وعددهن في حضارتنا مرعب حقاً - فإنّ استنتاجاً مماثلاً هو استنتاج مبرر بالتأكيد، ذلك أن إخفاقهن شبيه من الناحية السيكولوجية بالإخفاق الصارخ لدى الرجال المصابين بالعنّة. والنساء لا يشعرن بحاجة شديدة إلى تبخيس الموضوع الجنسي، ولكن يربطن في أفكارهن بين النشاط الجنسي وشيء ما محرَّم، فلا يقوين تالياً على حلّ العقدة بين الحظر prohibition والجنسية. وحالة التبخيس لدى الرجال يقابلها مفعول الكتمان concealment لدى النساء.

* - انظر كتاب فرويد، ثلاث مقالات في نظرية الجنسية، المقالة الثالثة، «استحالات البلوغ»، الفقرة الخامسة، «العثور على موضوع»، ص٩٨ - ١٠٣ في الترجمة العربية.

إن نظرية فرويد هذه هي أفضل ما قُدِّم لنا في تفسير كثير من السمات المحيّرة في الحياة الجنسية لدى الرجال والنساء. ولكنها دون شك ليست أفضل ما يمكن الحصول عليه. فهي تبسّط الوضعية السيكولوجية بردّ جوهرها إلى العواقب الانفعالية الناجمة عن حاجز غشيان المحارم. ولا تأخذ في الحسبان وجود عوامل انفعالية أخرى تساهم في انفصال الحنان والجنس، وهي عوامل سوف نبحثها لاحقاً. إن تابو المحارم لهو جسر أضعف بكثير من أن يقوى علىٰ حمل هذا العبء الثقيل. كما أننا نعارض هذه النظرية أيضاً في الأساس الذي افترضه فرويد، والذي مفاده أن الحب أو الحنان أقدم من الغريزة الجنسية، ذلك أننا نعتقد أن الحب هو الضيف الذي حلّ متأخراً جداً على مائدة الحاجات البشرية. ولابد من الإشارة إلى أن متطلبات الدوافع الأنوية لم تؤخذ بعين الاعتبار في هذا التصوّر الفرويدي.

سوف أقتصر هنا على إعادة تقويم هذه النظرية انطلاقاً من أساسها الخاص، أي حاجز غشيان المحارم، والذي يبدو لفرويد مسؤولاً بمفرده عن الإخفاق وعن تبخيس الموضوع الجنسي. إن الحالة الأوديبية Oedipus Situation عند فرويد والمحللين النفسانيين هي القالب الذي يصوغ معظم تقلّبات الحياة الجنسية لدى البالغين. وأنا لا أشكّ بما لهذه الحالة من تأثيرات قوية، ولكنني أُنكر كونها ذات طبيعة جنسية فقط. ولقد بدا لنا الجنس حاجة بدئية، تشترطها الكيمياء الحيوية ولها طابع فيزيائي محض، وتمكن مقارنتها على أفضل وجه بحاجات الطفل الحيوية الأخرى من أكل، وتنفس، وإطراح. ومن المؤكد أن التظاهرات الجنسية لدى الطفل ليست أول التظاهرات التي تثير اهتمام الأمهات والمربّيات. فهنالك تظاهرات أكثر إلحاحاً مرتبطة بخير الطفل ورفاهه. كما أن تربية الطفل تبدأ بالاهتمام، لا بأعضائه التناسلية، وإنما بمثانته ومصرّته sphincter. وعلى الطفل أن يتعلم ضبطهما إلى حد معين. وفي هذه المهمة تكمن النجاحات والإخفاقات الأولى للتربية. ففي البداية يذعن الطفل لهذه الدوافع كلما شعر بتحفيزها، ولكنه يتعلم لاحقاً أن يتبول ويتبرز في وقت ومكان محددين.

إن نوعية الاهتمام، وضروب الكفّ والحظر، التي تُحاط بها هذه الوظائف من قبل الأم والمربية، سوف تشكّل نموذجاً أيضاً لاتجاهات أخرى من السلوك. ففي البداية يلوّث

الطفل كل شيء، بل ويفضّل تلويث الأشخاص الذين يميل إليهم كي يقوم هؤلاء أنفسهم بتنظيفه. وهنا يحصل تغير هام. حيث تبدو الأم كارهةً لأن تُلوَّث، وتنزعج إذا ما وسّخها الطفل، أو وسّخ نفسه، أو ثيابه. وتلقّن الأم الطفل تحقيق هذه الوظائف فقط حيث تريد وحين تريد. وهكذا فإن الضغط يتركّز الآن على متطلبات الطفل الطبيعية، وعليه أن يبذل جهداً كي يقصرها على أوقات وأمكنة محددة.

لا يعرف علماء البيولوجيا والسيكولوجيا حتى الآن، ورغم البحث كله، سوى القليل عن طبيعة الدافع الجنسي. وبمقارنته مع عمليات الاطراح نكون قد فعلنا أقصى ما بوسعنا في فهم طبيعته. ومما له دلالته وأهميته أن الأعضاء الجنسية مجاورة لأعضاء الاطراح ومتصلة بها صميمياً من الناحية التشريحية. فوظائف الاطراح تبقى هامة. والتدريب على المرحاض Toilet - Training ليس واحداً من أول التأثيرات التربوية التي يختبرها الطفل وحسب، وإنما هو يشكّل أيضاً نموذجاً للعديد من الارتكاسات reactions المتصلة بحاجات فيزيائية أخرى. فالطريقة التي ترتكس بها الأمهات والمربيات حيال إخفاقات الطفل في ضبط هذه الحوافز سوف تخلّف انطباعاً عميقاً لديه. كما أن ارتكاسات سلبية مشابهة سوف تواجه لاحقاً التعبيرات الأولى عن الدوافع الجنسية المبهمة ولكن القوية لدى الطفل.

لا يرفض المحيطون بالطفل تلويثهم وحسب، بل يُبدون أيضاً معارضة شديدة جداً تجاه الطفل الذي لا يذعن لرغباتهم المتعلقة بوقت الاطراح ومكانه. وهؤلاء الأشخاص سوف يعاملون أيضاً عبث الطفل بأعضائه الجنسية كما عاملوا اهتمامه بأعضائه الإطراحية ووظائفها. ويبدأ الطفل بالمطابقة بين أعضاء الإطراح وأعضاء الجنس، وكأنما هي تنتمي إلى المنطقة ذاتها، كما تُعلّمنا البيولوجيا فعلاً. وحتى في «النظريات» التي يبنيها الأطفال عن النشاط الجنسي الغامض لدى البالغين، غالباً ما تكون عمليات الإطراح مختلطة مع العمليات الجنسية المحض. ويمكن ملاحظة الأصداء الباهتة لمثل هذا التصور الطفلي بعد فترة طويلة من حياة الإنسان. خذ، مثلاً، تعريف دي موباسان للزواج باعتباره "Un changement des mauvaises humeurs pendant le jour et des mauvaises odeurs pendant la nuit"(*)

* – بالفرنسية في النص الأصلي : تبادل للأمزجة السيئة في النهار وللروائح الكريهة في الليل .

هكذا يصبح التدريب على المرحاض رائداً للتدريب الجنسي. إنه القالب الذي يصوغ ضروب الكفّ والحظر الجنسية. كما أنه واحد من أوائل التابوات لدى الطفل. والتابو الجنسي لا يتلوه زمنياً وحسب، وإنما يتبعه أيضاً كما يقتفي التائه الآثار التي خلّفها على الثلج من سبقوه. ومما له دلالته السيكولوجية أن النشاطات الجنسية والإطراحية تعتبر بذيئة عادة وتُحاط بالسرية. وعلى هذا النحو تكون التربية الإطراحية والتدريب على المرحاض قد أخذت قيمة النموذج بالنسبة للحياة الجنسية اللاحقة. فالأم والأخت، وبدائلهما فيما بعد، وأفراد العائلة الآخرون، يصبح محظوراً مسهّم كما كان محظوراً تلويثهم من قبل. وهؤلاء الأشخاص يُبدون أول ارتكاسات الاستنكار والاشمئزاز تجاه الطفل العنيد أو الذي لا يخجل، وسوف يختبر الصبي الصغير والبنت الصغيرة ارتكاسات مماثلة عندما يقاربان هؤلاء الأشخاص بنواياهما الجنسية الطفلية، وذلك لأن هؤلاء الأشخاص صارت مقاربتهم محظورة.

إن انفعالات الخجل والسرّية، التي تلقّنها الطفل في ميدان الاطراح أولاً، سوف تنزاح إلى حقل جديد. وهكذا يضع التدريب على المرحاض أساساً للمصاعب الجنسية اللاحقة. إن أسرار غرفة النوم هي من الناحية السيكولوجية تالية لأسرار المرحاض، ذلك أن هذه الأخيرة هي أول ما يعلّم الطفل الاحتشام. ومهما تكن السرية والخجل المُضْفَيان على الحياة الجنسية فإنهما تاليان لهذه الارتكاسات الأبكر، والتي تتعمم في النهاية بحيث لا تعود مقتصرة على عمليات الإطراح وإنما تطول الجسد العاري عموماً، بل وتطول أيضاً التفكير بالوظائف الجنسية والحديث عنها. وتمتد في بعض الحالات إلى ميدان لا يتصل إلا بصورة واهية بالمجال الأصلي. ولقد قيل عن سيدة محتشمة أنها تحمرّ خجلاً حتى عندما تغيّر رأيها.

هكذا يعبّد التدريب على المرحاض الدرب أمام مصاعب الحالة الأوديبية التي يعتبرها المحللون النفسانيون المصدر الوحيد لكل تقلّبات الجنس. وهم ينسون أن وظائف الإطراح الحيوية تصوغ نموذجاً للسلوك الجنسي قبل فترة طويلة من انقضاض الحالة الأوديبية على الطفل. إن إرجاع كل المصاعب إلى هذا الأصل الواحد لهو فعل اعتباطي، وقول أقلّ علمية من أن يمتهن عقولنا.

إن تابو النشاط الجنسي الباكر هو تجديد لهذا التابو الأبكر. وبالطبع، فإن الدوافع

الجنسية تُوجَّه في البداية نحو الأشخاص ذاتهم. فالطفل ليس لديه موضوع جنسي «مختار»، كما يعتقد المحللون النفسانيون. ودافعه الجنسي يتّخذ الأشخاص الأقرب في وسطه موضوعات له، وبالتالي فإنه يصارع المصاعب التي كان قد صادفها من قبل. وما يتوجب إيضاحه ليس أن دافع الطفل الجنسي يُوجَّه نحو الأم والأخت، وإنما طبيعة الكفّ الذي يواجهه عند المقاربة. فهنا نجد أن الأشخاص الذين خبر الطفل رفضهم، وتوبيخهم، واشمئزازهم هم الأشخاص ذاتهم المحظّر مسّهم الآن لسبب مختلف. إن الفصل بين الجنس والعاطفة يجد أصله هنا.

تبقى مشاعر الطفل العاطفية مع أفراد العائلة، لكنها الآن منفصلة تماماً عن الدوافع الجنسية. فهذه الأخيرة لا يمكن توجيهها إلا إلى الغرباء ممن هم ليسوا موضوعات محرَّمة - أو ليسوا كذلك بالدرجة ذاتها. أما الأمهات والأخوات فهن أشخاص محظور مسّهن ويخجل الطفل أمامهن من حاجاته الاطراحية، ومن ثم من حاجاته الجنسية لاحقاً، ويبقين موضوعات للحنان. لا بل إن موضوعات الحب يتمّ اختيارها في بعض الأحيان على صورتهن من حيث التشابه في المظهر والطبع. ولقد شكت فتاة فلاحة نمساوية بسيطة ذات مرة لأمها قائلة: «لقد نلتِها بسهولة؛ تزوجتِ أبي، أما أنا فعليّ أن أتزوج من رجل غريب». إن هذه الشكوى لا تتعلّق إلا بالصعوبة التي تشعر بها الفتاة في حبّها لرجل غريب. ولا يجب أن نفترض أنها قصدت أن من الأسهل إقامة علاقات جنسية مع والدها. لعلها تتمنى بكل جوارحها أن تتزوجه، وأن تحظى برفقته الحنون، ولكن دون أي اتصال جنسي. إن حسّ الألفة والحميمية الذي يكتسبه الفرد تجاه حلقته الاجتماعية الأولى غالباً ما يحدد على هذا النحو اختيار موضوع الحب. ولكن مثل هذه الألفة قد تشكّل بصورة لا واعية عائقاً أمام الحسّ الجنسي. فحقيقة أن امرأة ما قد تذكّر المرء بأمه أو بأخته غالباً ما يكون لها تأثير مانع أو كافّ على القدرة الجنسية.

وإنه لصحيح بما فيه الكفاية أن تابو المحارم أيضاً يكون فاعلاً هنا، ولكن خلفه يقبع الكفّ الأقدم على الإطراح، والذي يصبح بصورة لا واعية جزءاً وطرفاً من الكفّ

الجنسي. ويمكن للمرء أن يلاحظ، لدى تحليل النساء الباردات جنسياً، أن الصعوبة الجنسية تعبّر عن ذاتها في عدم المقدرة على «تبليل الرجل»، وكأن الإفرازات الجنسية مطابقة للإفرازات الأخرى. وهكذا يكرّر الكفّ الطفلي ذاته في حقل الجنس. أما الخجل والقلق، المتجذران بصورة لا واعية في مفاعيل التدريب على المرحاض، فيكونان هنا منزاحين على نحو واضح إلى ميدان مجاور.

على السيكولوجيين أن يفرّقوا بين مصاعب الحب ومصاعب الجنس؛ فهذه الأخيرة إحياء وتجديد للإشكالات التي عاناها الطفل في الأصل مع التدريب على المرحاض ومع الأشخاص المتحكّمين بتربيته. فالتابوات المُقْحَمة باكراً بقصد غرس النظافة والأناقة تصبح أنماطاً أصلية prototypes للسلوك الجنسي لدى الرجال والنساء. وإذاً، فإن الأشخاص الذين هم موضوعات محرّمة فيما يتصل بالإطراح يصبحون لاحقاً أشخاصاً محظوراً مسّهم باعتبارهم موضوعات محاطة بتابو غشيان المحارم، كما تصبح العمليات الإطراحية ذاتها نماذج للنشاط الجنسي. وهنا نجد أصل النظرة الطهرانية إلى الجنس وحقيقة أنه غالباً ما تُستخدم التعابير ذاتها لكلتا الوظيفتين (الطهارة الجنسية، الجنس كدنس، كقذارة، «قصص وسخة»). كما أن العفّة chastity تجد نمطها الأصلي في الأناقة وحسن المظهر ونظافته. ولقد ختم مدير مدرسة إيتن إحدى عظاته عندما كان دزرائيلي تلميذاً هناك، قائلاً: «والآن، يا أبنائي، كونوا أنقياء القلب، ذلك أنكم إن لم تكونوا كذلك فسوف أجلدكم حتى تصيروا». والخلاصة هنا أن من يوفّر العصا في التدريب على المرحاض لن ينعم أبداً بمتعة رؤية أطفاله أنقياء القلب، مع أنه من المشكوك فيه أنه سوف يبلغ هذا الهدف بأية وسيلة من الوسائل.

إن تأثير التدريب على المرحاض، والذي يلعب دور القالب بالنسبة للموقف الجنسي لا يتحكّم بالعلاقة بين الأشخاص وحسب، وإنما، فوق ذلك، يتحكّم أيضاً بالفاعلية الجنسية. ذلك أن أنواع الكفّ تنتقل إلى ميدان جديد في سيكولوجيا الرجال العنينين والنساء الباردات، الذين يعتبرون الجنس بمثابة شيء منحط، شأن البول والبراز، وبمثابة شيء يدعو إلى الخجل كما فعلوا في طفولتهم تجاه تلك الوظائف الأخرى.

ويتحكّم هذا النموذج بسيرورات التحفظ والانطلاق، التكتم والصراحة، الإقدام والإحجام في النشاطات الجنسية الصميمية، كما تحكّم في نشاطات الاطراح. وهو المسؤول، إلى حدٍّ بالغ، عن الانفصام بين الحب والجنس، الذي يعاني منه كثير من الرجال: فهم حيث يَحتَرِمون، لا يمكنهم القيام بوظائفهم الجنسية، وحيث يمكنهم أن يستمتعوا دون كفّ، لا يمكنهم احترام شريكاتهم. وتغدو النساء المعتبرات بدائل للأم والأخت محظورات جنسياً لأنّ تابو الإطراح القديم ينتزع الرغبة الجنسية بصورة لا واعية، ويجعل هؤلاء النساء المحترمات غير ملائمات كموضوعات جنسية. إن احترامهن يكبح الرغبات الجنسية؛ فهن نقيّات ولا يمكن تدنيسهن. أما أمام النساء الأخريات فلا حاجة للخجل، فهن غير محترمات ولا تمكن مقارنتهن أبداً مع الأم والأخت.

وإذا ما انزاح موقف التجنّب الجنسي لبدائل الأم والأخت وتعمّم، فإنّ العنّة النفسية تجاه جميع النساء تكون هي النتيجة. وفي كثير من الحالات يفرّق الرجال بصورة لا واعية بين نساء للاحترام ونساء للشهوة lust، بين اللواتي يمكن تخيّلهن في الفراش واللواتي لا يمكن التفكير بهن أبداً بهذه الطريقة. أما الحب فإنه يقدّم تصنيفاً جديداً يتجاوز هذه التفريق ويخلق موضوعاً تتحد فيه الرغبات الجنسية والعاطفية. وعندئذ يتمّ التغلب على هذا الانشقاق. وتقوم قوة جديدة بكنس النزاعات والمصاعب القديمة.

إن الحالة الأوديبية هي وريث النزاع القديم الذي يخلق حاجزاً قبل أن يكون للدافع الجنسي من القوة ما يكفي للتعبير عن ذاته. وعملية التدريب على المرحاض هي التي تصوغ موقف الفرد من الجنس لاحقاً. وهكذا فإن الخجل، والخوف، وعدم الثقة تعاود الظهور، طالعة من العالم السفلي. ونحن لا ننكر قيمة مفهوم حاجز غشيان المحارم ولكننا ننكر قيمته باعتباره التفسير الوحيد للانفصال بين الجنس والحنان.

إن فكرة الصراع بين العاطفة والجنس، والتي نصادفها هنا للمرة الأولى، سوف تعاود الظهور في الفصول اللاحقة. وإليكم الآن قصة شاعت في ڤيينا في عشرينات

هذا القرن تلقي الضوء على موضوعنا: رجل، تعتعه السُكْر، قال فجأة لصديقه، وهما عائدان من حفلة يوم العطلة، إنّه يريد زيارة المبغى. فما كان من الصديق إلا أن اغتاظ وراح يوبّخه مذكّراً إياه بأنه رجل متزوج ومع ذلك يريد زيارة بيت الدعارة. ولكن الأول صاح مهتاجاً: «انظر أيّ وغد أنت! أتحسب حقاً أنني يمكن أن أوقظ زوجتي العزيزة في الثالثة صباحاً كي أوفّر بضع كرونات؟» إن الدافع الجنسي، في هذه القصة المنطوية على مفارقة، لا يبدو منفصلاً تماماً عن العاطفة، وقوة لها شأنها الخاص وحسب، بل ويقف أيضاً في مواجهتها على نحو عنيف.

نقطة الالتقاء

من يعـاني الجـوع الشـديد لا يسـأل عن أطبـاق خـاصـة وإنما عن شيء مـا للأكل. وهكذا الدافع الجنسي البشـري، إذا ما أثيـر، فإنه يكون مـسـتـعداً لاتخاذ كلّ ما في متناوله بمثابة موضوع. وفي الحقيـقة، نحن لا نملك كلمة - حقاً ليس هنالك كلمة - نشيـر بهـا إلى هذا الموقف. وإذا ما كـانت لدينا كلمـة، فـإنهـا تعني مـا تعنيـه كلمـة القارت omnivorous، آكل كل شيء، فـيـمـا يتـعلق بالطعـام. (ودعـونا نأمل من القـدر الرحـيم أن يحـول دون نحت كلمـة مـثل omnilibidinous(*)، والتي هي المقـابـل الأقرب)(**). ولنفـتـرض أن ثمة طريقـة مـا لإثارة الدافع الجنسي الخام - مثلاً من خلال التنبيـه الميكانيكي الموضعي المتـواصل أو بتـأثيـر عـقـاقـيـر باهيّـة aphrodisiac drugs معينة. وعندئذ فإن الفرد المُنبَّه بهذه الطريقة سوف يرضي بأية وسيلة تخلّصه من هذا الحافز الذي لم يعد من الممكن تحمّله. وبالتالي فإن الدافع يبدو فراراً من شيء ما أكثر منه اندفاعاً نحو شيء ما - محاولة للهروب من الضغط العضوي.

وبالطبع، فإن الدافع الجنسي سيـتركز لاحقاً على مـوضوعـات مختـارة، ومن الطبـيعي أن تكون هذه الموضـوعـات هي الأقرب إلى مـتناول الطفل. وهنا تتـاح لنا فـرصـة أن نعـيد البحث في دور مـا يدعى بالحـالة الأوديبيـة والأهمـيـة التي تحظى بهـا. ومـا نعـرفـه إلى الآن هو أنَّ هذه الحـالة تتسم بالرغبـة الجنسيـة لدى الصبي الصـغيـر تجاه أمه وبنزوات الكراهيـة ضـد والده الذي يُعتبر بمثابـة منافس، وبمثابة دخيـل ومـتطفل. وهذان الموقـفان كـلاهمـا غيـر

* - بمعنى: ناكح كل شيء.

** - من الواضح أن في ذهن الكاتب هنا ما قاله فرويد في مطلع مقـالتـه الأولى من «ثلاث مقـالات في نظرية الجنسية»: «إن وجود الحاجات الجنسية لدى الإنسـان والحيوان يُعبَّر عنه في علم الحياة بافتراض «غريزة جنسية»، على مثال الجوع في غريزة التغذية. ولما كانت اللغة تعوزها لفظة تقابل كلمة «الجوع» فإن العلم يستخدم كلمة «الليبيدو» بهذه الصفة». انظر الترجمة العربية، ص٣٢.

واعيين. وثانيةً نقول إنه لا حاجة لمناقشة الوقائع. فالحالة الأوديبية تمكن ملاحظتها في أصدائها السيكولوجية لدى أي طفل يترعرع في نموذجنا الثقافي، كما يمكن لأي سيكولوجيّ مدرَّب رؤية بقاياها في أعراض واستيهامات العصابيين والأسوياء.

ما يتوجب مناقشته هو تفسير فرويد لهذه الوقائع التي اكتشفها، وكذلك ما يضفيه عليها من أهمية. وهنا أيضاً علينا أن نفرّق بين النزوات الجنسية البدئية لدى الصبي الصغير ونزوعاته العاطفية والتملكية. ففي طور معين من نموه تكون هذه النزوات جميعها موجَّهة نحو أمه، لكن النزوات الجنسية الخام، بحد ذاتها، ليس لها بالتأكيد تلك الأهمية الانفعالية التي يضفيها فرويد عليها في هذه الحالة. فهي وحدها لا تؤدي أبداً إلى الحالة الأوديبية. ثم أن حب التملّك والغيرة لدى الطفل، هذا الهوى passion الذي يبديه في بعض الأحيان والذي سرعان ما يُخفى ويُقمع، هو ناجم بالطبع عن عاطفته تجاه أمه. ولا يمكن أن نقول إن الدافع الجنسي في تعبيره الأولي هو المسؤول عن نزوعات الغيرة والتمرد ضد أبيه، وإنما تضافره مع الحنان والرغبة في حيازة الموضوع.

إن التباري والتنافس الباكرين هما بالأحرى ناجمين عن قوة دوافع الأنا لدى الطفل، وعن بدء الصراع من أجل الاستقلال، وعن إرادة الانتزاع will to conquer، ورغبته في أن يكون موضع إعجاب. إنه يبتغي شقّ طريقه، وعندما يتعلّق الأمر بأمه فإن قتاله من أجل نيل الحظوة لديها ومن أجل إصراره أنه صاحب هذه الحظوة، يبدو مؤشراً على أنه قد يجد طريقه مع السيدات في حياته اللاحقة. وها نحن من جديد أمام حالة يشوّه فيها الاستخدام الخاطئ لكلمة «جنس» عرض الوقائع النمطية في حياة الطفل الانفعالية.

إن الأهمية التي يضفيها التصور التحليلي النفسي على الحالة الأوديبية لا يمكن مقارنتها إلا مع أهمية الوجود الكلي للكائن الإلهي في المعتقد الديني. فعقدة أوديب Oedipus Complex، تبعاً للمحللين النفسانيين، ليست موجودة دائماً وحسب، وإنما هي فاعلة بصورة لا واعية دائماً أيضاً. إنها تخترق بصورة لا واعية كل نشاط إنساني تقريباً. وهذا يذكرنا بالسؤال الورع الذي طرحه يهوذا هالي: «آه يا رب، أين تكون، وأين لا تكون؟» وفي الحقيقة، إن الحالة الأوديبية لا تكتسي أهميتها إلا باعتبارها

طوراً انتقالياً يمرّ عبره كل طفل يعيش في نموذجنا الثقافي. إنها، إذا ما استخدمنا مقارنة شائعة، مثل نقطة التقاء السكك الحديدية التي لابد أن تمرّ عبرها كل القطارات، قادمة من محطات مختلفة وماضية في اتجاهات متباينة. فعند هذه النقطة من تطور الطفل الانفعالي تلتقي الدوافع الجنسية والنزوعات من جانب الأنا. ويخلط كثير من المحللين النفسانيين بين نقطة الالتقاء هذه ونهاية الخط. وما أن يصل قاطعو التذاكر هؤلاء إلى المحطة، حتى يأمروا المسافرين، بحماسهم المنطوي على خداع للذات: «الجميع خارجاً».

الخلط بين الجنس ودوافع الأنا

من المؤسف أننا لا نملك كلمة ملائمة للتعبير عن طاقة الدافع الجنسي. فكلمة sensuality(*) فضفاضة كثيراً. والتعبير العلمي هو اللبيدو. والأدقّ القول إنه كان اللبيدو، فالتوسيع غير المبرّر لهذا التعبير من قبل التحليل النفسي جعل الكلمة غير قابلة للاستخدام.

عندما أقام فرويد أولى نظرياته في الجنس، لم يكن قد تمّ بعد توسيع معنى اللبيدو بحيث يشتمل على الحب، والعاطفة، والاهتمام. ولذا فإن قسماً كبيراً من نظرية اللبيدو الحالية يمكن اعتباره بمثابة تاريخ لتطور الفرد الجنسي كما يراه فرويد.

وليس هذا مجال إعادة بحث كل مفاهيم هذه النظرية. ولذا لن نناقش هنا سوى بعض الأفكار وبصورة موجزة. لقد بيّن لنا فرويد أن الأطفال كائنات جنسية. ومن بين فضائله الكثيرة أنه بوّأ حياة الطفل الجنسية مكانها بين موضوعات البحث السيكولوجي. ولقد لاحظ تعبيرات مختلفة للجنسية الطفلية؛ أعني، أنه لاحظ كثيراً من الارتكاسات المُهمَلة والمثيرة للانتباه لدى الطفل وفسّرها على أنها جنسية. فهل هي جنسية فعلاً؟ هذا هو السؤال هنا. لقد بوّأ فرويد الحياة الجنسية الطفلية مكانها في ميدان السيكولوجيا، لكنه بالغ في أهميتها إلى حد بعيد بحيث بات علينا أن نعيدها إلى مكانتها الحقيقية. فهل ارتكاسات الطفل، التي يصفها فرويد، جنسية، وهل هي جنسية وحسب؟

ميّز فرويد تشكيلة من الحوافز الجنسية الجزئية partial sex - urges التي تتطور على نحو منفصل في مرحلة الطفولة إلى أن تشكّل في النهاية قوام configuration الجنسية الناضجة لدى البالغ. ويقول فرويد، إن واحدة من أولى التظاهرات هي المصّ sucking

* – الحسيّة، الشهوانية . . .

عند الرضيع. فالمصّ الإيقاعي من قبل الأصفال لأصابع أيديهم، أو أقدامهم، أو غيرها من الأجزاء، يبدو لفرويد وسيلة يتأتى للطفل من خلالها إشباع جنسي. وهذه العملية، التي تُجرى بتركيز واضح، تفضي إما إلى الرقاد أو إلى ارتكاس شبيه بالرعشة إلى حد ما(*). وشفتا الطفل تسلكان جنسياً شأن المناطق الشهوية sensitive erogenic zones. وإشباع هذه المنطقة الشهوية مرتبط أولاً بإشباع الحاجة إلى التغذية. فالنشاط الجنسي يجد المؤازرة باديً ذي بدء في الوظيفة التي تعمل من أجل البقاء، ولكنه يستقلّ عن هذه الوظيفة لاحقاً. ويوجز فرويد تصوره كما يلي: «ومن رأى رضيعاً يتراخى، بعد أن شبع من الثدي، وينام متوهج الوجنتين، مبتسماً ابتسامة الغبطة، فلابد أن يتفكّر أن تلك الصورة تظلّ نموذجاً للتعبير عن الإشباع الجنسي في الحياة فيما بعد»(**). ولقد رأيت هذا المشهد مرات كثيرة، وذكّرني أكثر برجل يتراخى على كرسيه بعد أن جرع زجاجة من الخمر الممتاز والتهم غداءً فاخراً. حاولت أن استثير لديّ الصورة الأخرى، الصورة الجنسية، لكنها بدت مُصطنَعة. وكان علي أن أركز قدرتي على التخيل، في حين تتوارد صورة الرجل الذي شرب وأكل على نحو عفوي. ورغم أن المقارنة قد تبدو متكلّفة إلا أنني لا أستطيع تفاديها.

هذا مثالٌ واحد، لكنه مثال نموذجي، عن ضروب سوء التفسير السيكولوجي في نظرية اللبيدو. فالوقائع موجودة، لاشك في ذلك. ولكن المشكوك فيه، بل وما يجب الشك فيه، هو التفسير الذي يضفيه المحللون النفسانيون عليها. فهم يلصقون عليها بطاقات للتعريف خاطئة.

يؤكد فرويد أن الجنسية لدى الطفل تُبدي علائم الانحرافات الجنسية في كل أشكالها وتعبيراتها البدئية. والطفل، تبعاً لفرويد، منحرف متعدد الصور polymorph perverse(***). بيد أننا لا نستطيع أن نعدّ الطفل منحرفاً متعدد الصور لأن ذلك يعني سحب مصطلح، ليس له قيمة إلا فيما يخصّ جنسية البالغ، إلى حقل لا يمكن

---

* – ص٦٥ من الترجمة العربية لكتاب «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية».

** – انظر ص٦٦ منه.

*** – انظر ص٧٣ من «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية».

استخدامه فيه. وعند ذلك يمكنك أن تدعو الرضيع الذي يلوّث حفاضاته قذراً، أو الوليد الذي يمصّ ثدي أمه سكيراً. إن المحللين النفسانيين يستسلمون، في حالات مثل هذه، لإغراء التشابه.

ويؤكد فرويد أن الجنسية لدى الطفل تكون في البداية مرتبطة مع حاجات حفظ البقاء وأنها تنفصل عنها لاحقاً، لكن النقطة المهمة هنا هي أنّ هذه الحاجات تكون موجودة أولاً، وتمنع الحاجات الأخرى من الظهور ما دام لها الدور المهيمن. ومما لا شك فيه أن وقتاً مهماً يمرّ قبل أن تستيقظ الحاجة الجنسية حتى في الحياة القصيرة للذبابة المسماة day - fly(*).

إن الحاجة إلى الطعام، وحوافز التبول والتبرز، وغيرها من الحاجات العضوية تتحكّم بحياة الطفل أكثر بكثير من الدافع الجنسي. فهذه الدوافع هي التي تحمي الوجود وتحفظه، وهي التي تهيّئ الفرد للكفاح في الحياة. وهي أكثر حيوية وإلحاحاً من الجنس بالنسبة للطفل. ومن غير المحتمل أن تعطي الطبيعة للدافع الجنسي مثل هذا الدور المهيمن قبل أن يكون الفرد قادراً على العيش بصورة مستقلة.

أما الأطوار التي وصفها فرويد في تطور الطفل الجنسي فيمكن أيضاً، وعلى نحو أدق، اعتبارها بمثابة أطوار لتطور الأنا. خُذ، مثلاً، الطور الجنسي قبل التناسلي pre-genital sexual phase، المسمّى بالافتراسي cannibalistic، والذي لا يكون فيه النشاط الجنسي، كما يقول فرويد، «قد انفصل بعد عن تناول الطعام». يرى فرويد أن موضوع أحد النشاطين هو موضوع الآخر؛ والهدف الجنسي ينحصر في ابتلاع incorporotion الموضوع(**). ولكن لماذا لا نؤكد على حقيقة أن الطور الافتراسي هو بالأحرى طور من أطوار الدوافع الأنوية، جهد لإدماج الموضوع بالذات، كما نفعل حين نأكل؟ فأنا لا أجد أية ضرورة لأن ندعو نزوع الطفل إلى وضع كل شيء في فمه نزوعاً جنسياً. ذلك أن الهدف، في هذه الحالة، هو الأكل دون شك. أما الطور الثاني فهو الطور السادي(***) sadistic phase. ويكون النشاط الآن موجّهاً نحو الشخص الذي سيكون موضوعاً

* – ذبابة لا تعيش سوى يوم واحد فقط .

** – انظر ص٧٨ – ٧٩ من «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية» .

*** – انظر ص٧٩ منه .

للعدوان aggression والقسوة cruelty، فهل يمكن أن ندعو مثل هذا الدافع الغريزي دافعاً جنسياً على وجه التحديد، من حيث طابعه؟ إن من الممكن أن يكون له هدف جنسي أيضاً، وقد لا يكون. فلا حاجة إذاً لتفسير القسوة والعدوان الموجودين لدى الطفل بهذه الطريقة. أليس من الملائم أكثر أن نقول إن المحرّضات stirrings الجنسية المبهمة تنسلّ لاحقاً إلى ميدان نزوات التملّك والعدوان؟ أما في الطور الثالث، فإن الحياة الجنسية للطفل تكون قد تحددت مسبقاً بهيمنة المنطقة التناسلية. وتكون مشاعر الطفل عندئذ مشابهة تقريباً لمشاعر الرجال والنساء.

أنا لا أنكر إمكان وجود بعض المسحات الجنسية المبهمة في الأطوار «قبل التناسلية» من تطور الطفل، ولكنها ليست مهمة ويمكن تجاهلها قياساً بما يكون لها من معنى عندما ترتبط مع دوافع الأنا. وبالطبع، فإنك إذا ما وسّعت معنى كلمة «جنس»، بحيث تشتمل على نشاط، وتنشيط، المنطقتين البولية والشرجية، يمكنك حينئذ أن تجد دلالة جنسية في كثير من مشاعر الطفل. لكن الأحرى بنا هو افتراض أن الدوافع الجنسية مشتقات derivatives متأخرة من ضرورة الإطراح البيولوجية، وليس العكس. فقد يكون أيضاً لحركة تنفسية معينة دلالة جنسية بحيث يمكنك أن تدعوها «رعشة تنفسية»، لكنني أؤكد أن التنفس كان، ويبقى، حاجة أكثر حيوية بكثير.

وبالطبع، فإن المُحبّ في بُرَحائه parpoxysm يمكنه أن يرغب بأكل محبوبته، لكن الأكل ليس له في الأصل أي معنى جنسي، والقبائل آكلة لحوم البشر في وسط أستراليا لم تكن تُبدي أية إيماءات جنسية عند التهامها للمبشّرين البيض. وحقيقة أن الصبيان الصغار يتمنون أن يكونوا سائقين لا تعني بالضرورة أنهم يبتغون التمتع بالإشباع الجنسي المتأتي من الحركة أو أنهم ينالون إرضاءً حسياً من الحركة السريعة. أليس من الأسهل أن نفترض أنهم يتمتعون بحسّ التحرك السريع كنوع من تضخيم قوة الركض لديهم، وما يتّصفون به من خفّة في الجري؟ ألا يتحدد اهتمام الطفل بوظائف الإطراح بالاهتمام الذي يبديه والداه بهذه العمليات البيولوجية أكثر مما يتحدّد بفضوله الجنسي الخاص؟

ولقد أكّد فرويد والمحللون النفسانيون أن الطابع الجنسي لكل هذه الظواهر يتجلّى في أعراض العُصاب neuroses والذُهان psychoses لدى البالغين، حيث تبدو لديهم

كبقايا من الحياة الجنسية الطفلية. وبالطبع، فإن هذا التفسير لا يكون صائباً إلا إذا نقلنا المعنى الموسَّع لكلمة «جنس» إلى هذا الميدان أيضاً وإلا إذا صَمَّمْنا آذاننا عن كل الاعتراضات على هذا التضخيم غير المبرّر لمعنى الكلمة. إن الوقائع التي لاحظها فرويد موجودة فعلاً، لكنه فسّرها بصورة سيئة وقوّمها على نحو خاطئ. وقد بالغ المحللون النفسانيون في أهميتها ضمن حياة الفرد أشدّ المبالغة، وذلك بإلحاحهم على الدافع الجنسي وإهمالهم أثر النزوات الأنوية. وفي بعض الأحيان يتلقّى قارئ الكتب والمقالات التحليلية النفسية انطباعاً بأن حفظ الذات ليس قانون الطبيعة الأول، وإنما الثاني، والثانوي.

لو أن الجنس، هذه الحاجة الملحّة للتخلص من توتر عضوي، يظهر منعزلاً لكانت الحياة البشرية أكثر سهولة بكثير. وما كان ليوجد عندها سوى قلّة قليلة من الصراعات الانفعالية، وما كانت نظرية اللبيدو لتظهر على الإطلاق. أما التعقيد فإنه يبدأ عندما تمتزج الدوافع الجنسية مع نزوعات الأنا.

طرق فرعية

يكمن الاستعداد disposition للانحراف، من وجهة نظر فرويد، في الطابع الأصلي للدافع الجنسي البشري[1]. وهكذا تكون الانحرافات مركّبات فطرية للجنسية. أما السلوك الجنسي السويّ فيتطور من خلال ضروب التقييد التي تفرضها التغيرات العضوية وضروب الكفّ الفيزيائية في سياق النضج. فقوى الخجل والاشمئزاز، وضروب الكفّ التي تضعها التربية في طريق الطفل الذي كان منحرفاً متعدّد الصور في الأصل، تعمل كتأثيرات كابتة suppressive. ومن الواضح أن تعبير «انحراف» perversion هو تعبير اصطلاحي. وسأورد مثالاً، يوضح المعنى تماماً، هو استيهام مريض كانت أمه معتلّة اعتلالاً خطيراً. إنه يراها ميتة في كفنها ويشعر بنزوة شديدة لأن يعضّ يد الجثمان الباردة الشاحبة. وتترافق هذه النزوة مع مشاعر قوية من التهيج الجنسي. وبالطبع، فإن هذا المريض يعبّر عن رعبه الشديد وهموده depression أمام هذا التفكير القهري compulsive، الذي يجعله يرتعد، لكنه لا يشك في أنه يثيره. ويمكن لنا أن ندعو هذا الاستيهام بأنه منحرف، وإذا ما تبع المريض نزوته، فسوف ندعوه منحرفاً بالتأكيد.

لنعدّل المشهد قليلاً ونفترض أن الرجل يشعر بنزوة لأن يقبّل بحنان يد أمه الميتة. إننا نعتبر هذا السلوك سوياً. مع أنه ليس بمقدورنا أن ننكر أن القبلة ليست إلا سليلاً للعضّة، مجرد شكل مخفَّف ومعدَّل منها. فلقد تلطّفت العدوانية الأصلية إلى حد بعيد بحيث باتت القبلة تعبيراً عن شعور معاكس من الحنان. ونحن لا نعتبر القبلة فعلاً منحرفاً.

---

١ - إن العمل الذي قدّم فيه فرويد وجهات نظره في الانحرافات الجنسية بأفضل صياغاتها هو «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، هذا الكتاب المؤثر، والذي سيحتفظ بقيمته حين يتمّ تصويب الكثير من أخطائه. فهو قائم على تبصّرات في طبيعة الدافع الجنسي مستحصلة من التحليل النفساني للعصابيين.

إن إعادة الاستقصاء الدقيقة والنزيهة لهذه المشكلة تقودنا إلى سؤال مدهش: هل الانحرافات الجنسية هي جنسية وحسب في أصلها وطبيعتها؟ والجواب مدهش أيضاً: إنها ليست كذلك أبداً. ومع أننا نعترف بأن نظرية فرويد مؤسسة على ملاحظات ممتازة، إلا أن هذه الملاحظات تمّ استخدامها منصّةً للغطس في الظلام. وأنا أعتقد أن المهيمن في كل الانحرافات ليس الجنس، وإنما دوافع الأنا. صحيح أن النزوة الأصلية هي من طبيعة جنسية، لكنها صادفت عقبات خارجية أو نفسية بينما هي في طريقها إلى الإرضاء وكان عليها أن تخلي مكانها للدوافع الأخرى، لفترة تطول أو تقصر. وهذه الدوافع الأخيرة وحدها هي التي يمكن أن تساعد في بلوغ الغاية الأصلية. وأنا أعود هنا إلى توصيف الدافع الجنسي بأنه حاجة عضوية لإزالة، أو على الأقل لتخفيف، توتر فيزيائي محض، وتحقيق إطلاق جسدي. وهذا الدافع الخام والأوليّ لا يمكنه أبداً أن يكون مصدراً للطاقة النفسية التي تؤدي إلى نشاطات المنحرفين واستيهاماتهم. أما أقصى ما يمكن أن يحققه العائق الخارجي فهو الإيقاف، أو التأخير، في حين تؤمّن دوافع الأنا الطاقة الضرورية للتغلّب على الإحباط frustration.

يمكن لنا أن نفترض على نحو مبرّر أن السادية تدمغ الانحراف الجنسي بدمغتها. فهي تنزع إلى إذلال الموضوع أو تبخيسه، إلى كسر مقاومته بالعنف، وإلى إنزال الأذى والعار به. دعونا نقبل أن الطفل يقارب الموضوع بنزوات جنسية مبهمة، ويلاقي مقاومة غير متوقعة من هذا الموضوع، كما يجد عقبات في طريقه. فالموضوع، أو إذا شئتم، الضحية، لا تريد أن يتمّ استعمالها على هذا النحو، فهي أو هو يرفضان أن يكونا أداة أو ألعوبة طيّعة. وعندئذٍ يضاعف الطفل جهوده، ويستخدم طاقته، بغية التغلّب على مقاومة الشخص المانع، وفرض إرادته، وتحقيق غايته. ويستخدم قوته العضلية للتغلب على نفور الشخص ولتنفيذ رغبته.

ومن الممكن تماماً أن يحصل هذا الربط بين الرغبات الجنسية والعنف عندما تكون مقاومة الموضوع متوقَّعة مسبقاً وتكون الغلبة متصوَّرة. ويكون مصدر الإشباع عندئذ خليطاً من إرضاء الدوافع الجنسية والأنوية. وبعبارة أخرى: إن الدافع الجنسي يتمّ كبحه وهو في طريقه إلى غايته، فيضطر أن يستدعي لمؤازرته الغريزة الأقدم. وفي هذه الحالة تحتلّ النزوات العدوانية الأقدم والأقوى مكان الصدارة. فإذا ما تمّ بلوغ الهدف بمساعدتها، نالت حصة مُعتبرة من الإرضاء الناتج. ويشبه الوضع حالة صبي صغير في

الملعب يبتغي إنفاذ مشيئته في ولد آخر يقاومه، وعندما يتحقق الأول من أنه لا يستطيع ذلك وحده، يستدعي أخاه الأكبر والأقوى لهزيمة الخصم. فهل يمكنك آنذاك أن تؤكد أن قوة الولد الخاصة وحدها هي التي تغلّبت على المقاومة، وأن النتيجة تم بلوغها بجهوده الخاصة؟

إن الإرضاء المستمدّ من النشاط السادي هو إشباع للعدوانية إلى حد بعيد. وقد يجادل المحللون النفسانيون أن من الأدقّ القول إن هذه العدوانية تعود إلى طبيعة الجنسية بحد ذاتها، حيث لا يمكن بدونها كسر المقاومة التي يبديها موضوع النزوات الجنسية. ولكن مثل هذا الجدال ليس فيه من المعنى إلا كما في القول إن العدوانية متأصلة في الجوع(٢). بيد أن الجوع ليس عدوانياً بحد ذاته. ويمكن أن يصبح عدوانياً إذا ما أُنكِرَ عليه إرضاؤه، من الخارج، ولكن لا شيء في طبيعته يدلّ على مثل هذه الخاصية الجوهرية. وهذا الجدال كله قائم على فكرة مسبقة عن طبيعة الجنس ليس لها ما يبررها إلا بقدر ما لادّعاء الصبي الصغير في مثالنا أنه وحده قد تغلب على الخصم دون عون من أحد.

إذا أخذنا في الحسبان حقيقة أن الدوافع الأنوية هي الأقدم والأكثر إلحاحاً وأن النزوات الجنسية هي الشريك الأصغر الذي يحاول أن يستقلّ بنفسه، فإن الإشكالية كلها تنتقل إلى حقل جديد. وعندئذ تنقلب أسبقية الدوافع رأساً على عقب: إن ثمة نزوة عدوانية أصلية تجاه الموضوع، نزوعاً إلى تملّكه. وهذا الدافع القديم يكتسي حلّة جديدة عندما تستيقظ النزوات الجنسية وترتبط به. وبالطبع، فإن العدوانية تكون مقيّدة في الجنسية السويّة، ولكنها قد تبرز إلى المقدمة عندما تُقَاوَم المقاربة الجنسية. ويمكن لشهوة السيطرة والانتزاع العنيف أن تستيقظ من جديد في الجهد المبذول للتغلب على هذه المقاومة. وفي هذه الظروف تأخذ السادية شكل الإرضاء بوساطة عنف الدافع

٢ – لقد بيّن فرويد فعلاً أن جنسية الرجال «تشوبها شائبة من العدوان ، أي الرغبة في إخضاع الغير ، وهي رغبة تنحصر دلالتها البيولوجية – على ما يلوح – في ضرورة التغلب على الموضوع الجنسي بإتيان أفعال مغايرة للمغازلة ، ومن ثمة تناظر السادية العنصر العدواني من الغريزة الجنسية بعد استقلاله وتضخمه عن طريق تحوله إلى مركز الرئاسة اغتصاباً» (ثلاث مقالات في نظرية الجنسية) . (ص٤٨ من الترجمة العربية – م –) . أليس من المبرَّر أكثر أن نفترض أن العدوانية الأصلية لدى الرجال تكتسب عنصراً جنسياً يصبح لاحقاً مستقلاً ، ومتضخماً ومصمماً على التحول إلى مركز الرئاسة ، مع أنه لا يستطيع التنصّل من ارتباطه مع أصله ؟

الأنوي الأصلي الذي أضحى متركزاً على موضوع جنسي. أما العنصر الجنسي فيستمد، لدى بلوغه غايته، منفعة معتبرة، ويكسب من النصر شأن الصبي الصغير الذي كسب من نصر أخيه الأكبر.

ولكن إذا كانت وجهة النظر هذه صائبة، فإن نظرية اللبيدو الفرويدية تنهار برمّتها: فالطفل لا يبدو منحرفاً متعدد الصور، والجنسية لا تحوي مكوّنات سادية، أو مازوخية، أو تلصصية، أو استعراضية. والانحرافات هي تظاهرات مفرطة للدوافع الأنوية القديمة، وقد توجّهت الآن نحو موضوع جنسي. لنعد الآن إلى مثالنا السابق: لقد تمّ استدعاء الأخ الأكبر الموجود في الملعب من قبل أخيه الأصغر العاجز عن إنفاذ مشيئته في الولد الثالث. وما إنْ يتحقق الأخ الأكبر من أن مساعدته مطلوبة حتى يطرح الخصم أرضاً، مستمتعاً بهذا الفعل العنيف استمتاعاً كاملاً، ومن ثم يمضي مبتعداً، متيحاً للأخ الأصغر أن يستمتع بحصته من الظفر.

تلك هي صورة السادية كما تبدو لي: إن طبيعة لذّتها هي في الحقيقة شهوة الانتزاع العنيف، والتسلّط، والقوة البهيمية، ويكون هذا الشكل من الإرضاء مختلطاً مع التمتع الجنسي أو ملحوقاً به. وهذه النظرية التحليلية النفسية - الجديدة هي عكس وجهة نظر فرويد تماماً كما في طابع الانحرافات وفي طبيعة الجنسية الطفلية. ولكم أن تقارنوا، مثلاً، اللوحتين المتعاكستين التاليتين: يقول فرويد إن النشاط العضلي الوفير هو حاجة جنسية بالنسبة للطفل، وإنه يستمد منها لذّة لا تعادلها لذّة. ومن ثم يشير إلى أن عدداً من الأشخاص يقرون أنهم خبروا أولى علاقات التهيج في أعضائهم التناسلية إبّان تخاشنهم أو تصارعهم مع رفاقهم في اللعب، وهو موقف يتوفر فيه التصاق كبير ببشرة الغريم فضلاً عن الجهد العضلي العام. والميل إلى الالتحام العضلي بشخص معين يشكّل نموذجاً للالتحام اللفظي (وثمة مثل ألماني قديم يقتبسه فرويد يقول: «المرء يشاكس من يحب»)(*). ويفسّر فرويد هذا الميل باعتباره واحداً من العلامات الأكيدة على أن هذا الشخص وقع عليه الاختيار كموضوع. كما يتبيّن فرويد في هذا التهيج الجنسي عن طريق النشاط العضلي واحداً من جذور الموقف السادي. ويرى أن الرابطة الطفلية التي تربط بين المخاشنة والتهيج الجنسي هي واحدة من

* - انظر ص ٨٢ من الترجمة العربية لكتاب فرويد «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية».

العوامل التي تحدد فيما بعد الاتجاه المفضّل لدافع الأطفال الجنسي(*). ويقول فرويد إن التربية الحديثة تستخدم الرياضة على نطاق واسع لصرف الشبيبة عن النشاط الجنسي أو - يصوّب فرويد نفسه - أنها تستبدل لديهم لذّة حركية بمتعة جنسية وتجبر النشاط الجنسي على العودة إلى مقوماته العشقية الذاتية autoerotic components(**).

أما أنا فأفضّل أن أفترض أن المتعة المستمدة من النشاط العضلي ليس لها في الأصل أدنى معنى جنسي بالنسبة للطفل، وهي تعبير عن إحساسه بالقوة والكفاءة. ومع أن كثيراً من الأطفال يشعرون بتهيج جنسي أثناء المخاشنة، إلا أن التنبيه الجنسي ليس هو الباعث motive على المخاشنة بالتأكيد. فهو قد اختلط مع المخاشنة وحسب، كما أنه من منشأ لاحق. فالتهيج الجنسي هو عنصر تال ينضاف إلى إشباع الدوافع العدوانية الناشطة في النزاع. وبالطبع فإن النزاعات اللفظية تنطبق عليها مناقشة مماثلة، حيث تتحدد متعة النشاط الذهني بالعوامل ذاتها. وقد تُستخدم الرياضة لصرف الشبيبة عن الاهتمامات الجنسية، ولكن ذلك لا يكافئ عودة النشاط الجنسي إلى واحد من مقوّماته العشقية الذاتية، وإنما يكافئ سحبه إلى حقل التنافس والتباري، وبالتالي إلى التعبير عن دوافع الأنا.

ولقد قال فرويد إن فكرة السادية تتراوح بين موقف إيجابي أو عنيف تجاه الموضوع الجنسي وبين تعلّق الإشباع كلية على إذلال الموضوع والنيل منه. ويقول إن هذه الحالة الأخيرة القصوى هي وحدها القمينة - إن توخينا الدقة - باسم الانحراف(***). أليس هذا سوء تفسير غريباً؟ أليس من الأفضل أن نعتبر مثل هذه الحالة القصوى تعبيراً عن العدوانية والتملّك الوحشيين، وأن الارضاء الجنسي مرتبط بها كما الفضلة التي تنتجها كل صناعة ضخمة.

إن أصل السادية هو في الدوافع العدوانية الأولية؛ وارتباطها بالنزوات الجنسية أمر ثانوي ومسحة قد تكون غائبة تماماً. وهذه واحدة من الحالات التي تكون فيها

---

* - ص٨٢ - ٨٣ من الترجمة العربية لكتاب فرويد «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية» .

** - ص١٤٢ ، الهامش ٤٥ ، من الكتاب ذاته .

*** - ص٤٩ من الكتاب ذاته .

حوافز الأنا مندمجة مع الحاجات الجنسية. وهي غالباً ما تحدث عندما تلاقي نزوة جنسية ملحاحة مقاومة شديدة من الموضوع أو عندما تعوقها عقبات أخرى عن بلوغ هدفها. فهنا يحصل تطور دينامي هام: ففي البداية، عندما يُكَّف الدافع الجنسي عن بلوغ هدفه، يفزع الشخص إلى العنف والقسوة كي ينال الإشباع. ولاحقاً، يصبح الإرضاء الجنسي مختلطاً إلى حد بعيد مع الإرضاء الآخر بحيث أن الاستيهامات أو الأفعال العنفية توقظ الرغبة الجنسية. وفيما بعد، فإن ضروب الكفّ الأخلاقية ضمن الشخص - الخوف والقلق، مثلاً - تعمل هي أيضاً عمل العوائق. ومن أجل التغلّب عليها غالباً ما يزداد أوار العنف والعدوان، ويتمّ التعامل مع الموضوع وكأنما هو تشخيص personification للكفّ. وعندئذ تصبح حالة المنع أو التحريم forbidden، كما في الانحرافات جميعاً، تنبيهاً زائداً. كما أن التغلب على أنواع الحظر والكفّ الداخلية والخارجية يزيد الإرضاء. وعندئذ يثبت اللجوء إلى العنف في خرق التابو أن النزوة السادية متأصلة في دوافع التمرد لدى الأنا.

أما الميل إلى التلصص peep والنظر بقصد التهيج الجنسي، فهو من الطبيعة ذاتها؛ إنه، لِنَقُل، شكل مخفّف من السلوك السادي مقتصر على العيون. فالتجسس على الموضوع يعني، في الأصل، تملّكه بالنظر، ولا حاجة لأن يكون له معنى جنسي. والشهوة النوعية في التلصص على النساء العاريات هي أيضاً محاولة لتملّكهن من خلال النظر بسبب وجود عوائق خارجية أو من طبيعية فيزيائية تحول دون المقاربة الجنسية المباشرة. ويمكن لهذا النشاط التمهيدي أن يستقلّ عن الهدف النهائي للدافع الجنسي وينال متعته كما لو أنه هدف بحد ذاته. إنه لمن الصعب نكران الطبيعة العدوانية لهذا التلصص. فهو، شأن السادية، مزيج من النزوعات العدوانية والنزوعات الجنسية. ومن الواضح هنا أيضاً أن التغلّب على الكفّ يعزّز الإشباع ويعمّقه.

ولا حاجة بي هنا لمعالجة الطابع السيكولوجي للمازوخية بصورة مركّزة، فقد عالجت هذا الموضوع في كتاب نُشِر منذ أربع سنوات[٣]. وحاولت أن أوضح في ذلك العمل أن

---

٣ - المازوخية لدى الإنسان الحديث ، نيويورك ، ١٩٤١ .

المازوخية هي التفاف detour بقصد بلوغ الأهداف ذاتها، من عدوانية، وقوة وثأر، كما هو الحال مع النزوات السادية؛ وأن المازوخية ليست نقيض السادية بقدر ما هي شكلها المقلوب. إنها السادية مقلوبة رأساً على عقب. فالمازوخية تحقق غايتها من خلال إظهار غريب للعكس. ويمكن التعبير عن صيغة المازوخية على أفضل وجه بعبارة «النصر عبر الهزيمة». فهي تحقق قصدها الخفي بوسائل من السلبية الصريحة والإذعان المزعوم.

وبقصد إيضاح طبيعة هذا الانحراف، سوف أورد مثالاً واحداً لاستيهام مازوخي: بينما كان مريض مازوخي ماراً في ردهة فندق، رأى WAC (عضوة في الفيلق العسكري النسائي) جالسة وقد وضعت رجلاً فوق الأخرى. وتخيّل المريض أنه لو كان تحت إمرتها، فإنها ستكون رئيساً بالغ القسوة، توبّخه وتعاقبه جسدياً، ولعلها ترفسه بكل عنف بحيث تؤذيه. ومع أن الإلحاح هنا يبدو مركّزاً على الشعور بالإذعان والعقاب، إلا أن هذا الاستيهام يهيجه جنسياً أيضاً.

وتذكّر المريض، لاحقاً، أنه في نهاية هذا الاستيهام ظهرت صورة أخرى، كنوع من الملحق تماماً. وكان قد نسيها لأنها ليست مهمة وليس لها أية دلالة، وتكاد تكون غير جديرة بأن تذكر. وقد كان لهذه التتمة المهملة المحتوى التالي: رأى لبرهة وجه الفتاة نفسها على الوسادة، وقد ارتسم عليه ذاك التعبير الذي يبدو على وجه النساء في «ذروة» الرعشة. كانت عيناها تومضان بخنوع واستسلام لا حدّ له. وبالطبع، فإن معنى هذا الاستيهام واضح: «حتى لو كُنتِ قاسية معي وعاقبتِني، سوف تمنحين نفسكِ لي في النهاية، وعندئذ ستأتي تلك اللحظة حيث تكونين ناعمة ومذعنة». وهكذا فإن المتعة المازوخية تنجم عن انزياح displacement المتعة النهائية إلى طور سابق. وإن مثل هذا المُقَام sojourn في الأفعال والاستيهامات التمهيدية هو سمة مميزة لكل الانحرافات.

أما الاستعراضية Exhibitionism فهي تعبير ملطّف أو مخفَّف عن الدوافع الانفعالية الأساسية ذاتها التي تسبب الموقف المازوخي. فالاستعراضية دعوة لشخص آخر إلى تملّك جسد الاستعراضيّ بالنظر، وهي بالتالي التفاف سلبي من أجل بلوغ الأهداف اللاواعية ذاتها التي تحاول المازوخية بلوغها بطريقتها الخاصة.

إن عامل الأنا مهيمن في كل هذه الانحرافات «الجنسية». ونحن لا ندعوها جنسية إلا لأن دوافع الأنا تعمل في ميدان الجنس. ولقد ثبت أن الدوافع الجنسية وحدها ليست قادرة على بلوغ هدفها ولذا يتمّ استدعاء العدوانية والتملّك كي يشقّا لها الطريق. وغالباً ما ينجم عن التغلب على الكفّ متعة هي عبارة عن مكسب ثانوي في هذا الإرضاء المختلط للنزوات الجنسية ونزوات الأنا؛ وفي الحقيقة فإن الرغبة في اصطناع التحريم تصبح ذات دلالة في كل الانحرافات. فالفاكهة المسروقة هي الفاكهة الألذّ. وكلما زادت معارفنا عن طبيعة الدافع الجنسي، كلما قوي انطباعنا بأنه نادراً ما يظهر كرغبة جنسية خام وأنه في تظاهره أو تجلّيه العام يكون مختلطاً مسبقاً مع دوافع مختلفة من ميدان الأنا. وتمثّل الانحرافات «الجنسية» صورة هذا الخليط تماماً، حيث تكون نسبة شهوة الهيمنة والانتزاع من الإرضاء أكبر من الحصة الجنسية المحض.

إن عبقرية فرويد السيكولوجية ستتجلى يوماً بعد يوم ويتزايد الإعجاب بها. أما منظومة الليبدو، فأخشى أنها ستلقى ذاك المصير السيئ الذي تحسّر عليه مرة هربرت سبنسر في حديثه عن «نظرية جميلة قتلتها عصابة الوقائع المتوحشة». أما التحليل النفسي - الجديد فقد توصل إلى أن البحث السيكولوجي في الانحرافات هو بحث في العنف والتبخيس، وفي الخوف والجرأة أكثر منه بحثاً في الجنس. وأعلم، بالطبع، أن وجهة النظر المعبَّر عنها هنا هي مجرد فرضية مؤقتة تفسّر بصورة فجّة وقائع معروفة لدينا، لكنني آمل أنها تفسّرها بصورة أفضل من النظرية التحليلية العتيقة، ذات النواقص والثغرات الواضحة.

ولدينا سؤال أخير: ما هي العلاقة بين الانحرافات والحب؟ وأنا ممن يعتقدون أن الانحراف هو زَيْغ aderration لنزوات العدوان والهيمنة الموجّهة نحو موضوع جنسي. وطابع الانحراف هو خليط من نسبة ضخمة من دوافع الأنا مع كمية زهيدة من الحافز الجنسي. فهل من مكان للحب، والحنان، والعاطفة في هذا الخليط؟ يا للفظاظة، على المرء ألا يفكّر هكذا. ومع ذلك، فإن الخبرة التحليلية تثبت أن هذا المزيج الغريب ممكن.

وكثيراً ما يمكن أن يتحد الهيام adoration مع الدوافع الجنسية والأنويّة. وهو يعمل آنذاك على تلطيف المذاق اللاذع للهيمنة الوحشية ويسبغ على الإشباع الجنسي نكهة غريبة، نوعاً من المذاق العذب، الذي يدوم. وأنا أعرف أناساً ممن يقدّرون هذا المزيج حق قدره، ولكن حتى هؤلاء يعترفون أنه نادر وأنه مُشَهٍّ أكثر مما هو مُغَذٍّ.

الجنسية المثلية

تراكمت الأدبيات التي تعالج مشكلات الجنس إلى حدّ بات فيه الباحث الذي يعتقد بقدرته على المساهمة في هذا الموضوع عاجزاً عن التحقق من أن وجهة النظر ذاتها لم تُنشر عدداً من المرات في السابق. وما من فرد واحد يمكنه معرفة كل المادة المطبوعة. لكن الهدف ليس الأسبقية وإنما الأصالة. وتبرز الصعوبة الكبرى عندما يحاول المرء أن ينسى في البداية كل ما قرأه أو سمعه من قبل، وينظر في الظواهر كما لو أنه يواجهها للمرة الأولى، دون أفكار مسبقة.

وتُلمس هذه الصعوبة مباشرة عندما يدرس المرء مشكلة الجنسية المثلية homosexuality. إنها تبدأ مع الاسم ذاته. فالجنسية المثلية في التصوّر التحليلي النفسي تشتمل على علاقات جنسية مع شخص من الجنس ذاته وكذلك على بذل العاطفة والحب تجاهه. ولا يرسم المحللون النفسانيون أي خط فاصل بين التهيج الجنسي الذي يشعر به رجل يمضي إلى الفراش مع بحار صادفه منذ نصف ساعة وبين شعور هذا الرجل بالحنان تجاه والده أو معلمه المفضّل. فكلاهما انفعالان جنسيان مثليان، والثاني وحده قد كُفَّ عن الوصول إلى هدفه أو حاد عنه. كما أن الإعجاب بالرجال العظماء، والصداقة، والصُحبة هي، في معناها الأدق، تعبيرات جنسية مثليّة مُصَعَّدة. أمّا النظرية التحليلية النفسية الجديدة فتميّز بحدّة بين هذه الإمكانات: إنها تفرّق بين الجنسية المثلية والحب أو العاطفة تجاه الجنس نفسه باعتبارها ظواهر مستقلة، وتدرك في النهاية إمكان اتحاد كلا الانفعالين. وبعبارة أخرى، إنها تؤكد على وجود الإمكانات الانفعالية ذاتها في العلاقات مع الجنس المماثل كما مع الجنس الآخر، كما تؤكد أيضاً على وجود إمكانات الانتقال أو التزامن. بل وأودّ أن أمضي بعيداً لأزعم أن من الممكن أن تنشأ بين فردين من جنس واحد ظاهرة مشابهة لظاهرة الغرام، خاصة بين المراهقين. فلماذا، إذاً، نطلق اسم العلاقات الجنسية المثلية على كل هذه العلاقات المتباينة، والتي تتميّز إلى حدٍّ بعيد بعضها عن بعض في المنشأ والطابع؟

ليس ثمة من ينكر أن العلاقات الجنسية المحض ممكنة مع فرد من الجنس ذاته. ويعرف أي سيكولوجي كثيراً من الحالات التي يمضي فيها رجل إلى الفراش مع رجل آخر دون أي اهتمام سوى الاهتمام الجنسي، الذي يتلاشى مباشرة مع إزالة التوتر الفيزيائي، مخلّفاً مكانه النفور والاشمئزاز واللامبالاة في معظم الحالات. غير أنَّ أحداً لا ينكر أيضاً أن مشاعر الرفقة والصداقة توجد بين الرجال، دون أثر للرغبة الجنسية. وحتى لو سلّمنا بوجود نزوات مكبوتة، لا واعية من هذا النوع، أليس من الممكن أن تكون جديرة بالإهمال واعتبارها دون أهمية عملياً؟

إن التفريق الذي يجريه التحليل النفسي الجديد في العلاقات بين أفراد الجنس الواحد لا يقتصر على ما يفعلونه أو يقولونه، بل يمضي أبعد من الأقوال والأفعال ليبلغ ميداناً رحباً من الاستيهامات والأفكار. إذ يمكن لرجل أن يفكّر بآخر بمشاعر صداقية دافئة وبقدر عظيم من الإشباع الانفعالي، بينما يمكن لرجل ثانٍ أن يتخيّل علاقات جنسية مع رجل آخر ولا يشعر إلا بالتنبيه الحسّي وحده. ولابد من الاعتراف بأن هنالك فارقاً ملحوظاً في مواقف كلا الجنسين: فنادراً ما تشعر امرأة بالتهيج الجنسي وحده تجاه امرأة أخرى، دون أثر للحنان، ولكن ذلك يحصل.

انطلقت المقاربة التحليلية النفسية لمشكلة الجنسية المثلية من وجهة النظر البيولوجية، من حقيقة ثنائية الجنس bisexuality، الاستعداد العضوي الموجود لدى كل فرد والذي يوحّد صفات كلا الجنسين. بيد أن ثنائية الجنس لا تفسّر الجنسية المثلية، وإنما هي تجعل هذا التفسير ممكناً وحسب. اسمحوا لي أن أجري مقارنة: إن الطيران غير ممكن إلا بوجود المطارات وغيرها من المعدّات المتوفرة على الأرض. لكن ما يجعل الطائرات تقلع عن الأرض ليس وجود المطارات. وتمضي مقارنتي أبعد من ذلك: إن إمكانية الطيران لا تبدأ مع تصنيع الطائرات، وإنما قبل ذلك، مع تصوّر واختراع سفينة الهواء(*). فالنشاط الإبداعي للمخترع هو النقطة الرئيسة في تاريخ الطيران. وبهذا المعنى ذاته أتجاسر على القول إن الشيء المهم في فهم العلاقات الجنسية والعاطفية بين أفراد الجنس الواحد ليس النشاطات، وإنما الاستيهامات التي تجعل هذه النشاطات ممكنة.

لا مناص من ذكر الحقائق البيولوجية، لكنها عقيمة، من وجهة النظر السيكولوجية. وعند بحث مشكلة الحب بين أفراد الجنس الواحد، من الأفضل أن نبتعد عن سلوك

* – aircraft ، سفينة الهواء ، سواء كانت منطاداً أو طائرة .

«الجنسيين المثليين»، وأعراضهم الواضحة تماماً، وأن نهتّم في المقام الأول بالاستيهامات، التي كثيراً ما تحتجب حتى عن أصحابها أنفسهم في بعض الأحيان.

وبالطبع، فإن هذا النوع من المقاربة السيكولوجية يكون نافلاً تماماً عند تحليل الجنسية الخام، لكنه النوع الوحيد الممكن بالنسبة للعدد الهائل من الحالات التي يتضافر فيها الحافز الجنسي مع الاهتمام أو العاطفة. وهذه الحالات الأخيرة هي الوحيدة التي تهمّنا هنا، فنحن نُعنى، لا بالبحارة الذين يبقون في عرض البحر شهوراً طويلة دون أن يدخلوا إلى ميناء، ولا بالسجناء وغيرهم ممن لا تتاح لهم فرصة ممارسة الجنس السويّ، وإنما بالأشخاص الذين يتوفر لهم هذا الإمكان ومع ذلك يفضّلون أفراداً من جنسهم كموضوعات للحب والجنس.

عادة ما يبدأ السيكولوجيون المهتمون بهذه المشكلة بأفكار عن الرغبة الغريبة لدى رجل يمكنه أن يمضي إلى الفراش مع رجل آخر أو لدى امرأة يمكنها ذلك مع امرأة أخرى. ولكن اسمحوا لي أن أقول: إن الغرابة ليست موجودة إلا بالنسبة للواقع المادي، المجسّد. أما في حقل الاستيهام فالرجل لا يمضي إلى الفراش أبداً مع رجل آخر ولا المرأة مع امرأة أخرى. ذلك أن أحد الرجلين يلعب دور المرأة والعكس بالعكس. وبالطبع فإن تبادل الأدوار ممكن ومعتاد، ولكن يبقى هنالك على الدوام - بصورة واعية أو لا واعية - شخصان من جنسين مختلفين حاضرين في الاستيهام. وإذا ما أخذ المرء هذا الوضع في حسبانه، فإنه سيدرك أن الاختلاف البيولوجي بين الجنسين لا يفسّر المشكلة السيكولوجية، وإنما قدرة الخيال على لعب دور الجنس الآخر وعلى رؤية الشخص الآخر في هذا الدور. ولقد ظلّت هذه المشكلة مهملة من قبل المحللين النفسانيين إلى الآن، وهذا هو انطباعي على الأقل. ومع أن للمقارنة مع الطائرة ميزتها، إلا أنني سأقوم بتعديلها بعض الشي: سوف استبدل بالطائرة المنطاد ذا المحرك، والذي يمكن من الأرض توجيه حركاته في الهواء الطلق. وبالتالي فإنه لا يكون مستقلاً تماماً ولا طيرانه حراً حرية مطلقة. وبعبارة أخرى، فإن واحداً من الشخصين في الاتحاد الجنسي المثلي يتخيّل الآخر امرأة، ولكن الهوية الجنسية الحقيقية تبقى سليمة، في الوقت ذاته، في ذهن هذا العاشق. أما الشريك فيؤدي وظيفته متخيّلاً أنه امرأة، على الرغم من إدراكه، الذي يحتجب مؤقتاً، أنه رجل.

إن صعوبة قبول هذا التفسير تبرّر تقديم مقارنة أخرى، آمل أن توضح الطابع النوعي لهذا التخيّل: عند أداء مسرحية ***تاجر البندقية*** يرى المشاهد بورشيا - التي أعلنت مسبقاً عزمها على لعب دور الرجل - متنكرة بهيئة رجل، ويستمدّ المشاهد لذّة من أدائها هذا. فالمشاهد يعرف أن بورشيا فتاة، ويستمتع بهذه المعرفة. وتسير بورشيا وتتحدث مثل رجل (فقد تدربت على ذلك في الغالب)؛ ويبقى المشاهد مدركاً في الوقت ذاته حقيقة أنها تمثّل وحسب. وعلى هذا النحو فإن الاستسلام للإيهام يضمن لذّة عظيمة، رغم معرفة أنه إيهام. وبالمعنى ذاته، فإن الجنسي المثلي يتخيّل أن شريكه فتاة، مع أنه يعلم، بالطبع، أن هذا الشريك رجل. كما يمكنه، هو نفسه، أن يلعب دور الفتاة في خياله، مع أنه يعلم، بالرغم من قوة الاستيهام لديه، أنه رجل وسيبقى كذلك. ويبلغ الأمر، بالنسبة للشخص ذي الخيال الواسع، حدّ التمثيل المسرحي أمام نفسه لمقطع أو لدور صغير بفنية عالية. ولابدّ أن تكون مشاعر هذا الرجل مشابهة إلى حد بعيد لمشاعر تلك الممثلة التي تلعب، باعتبارها بورشيا، دور الذكر. وقد يكون التمثيل تمثيل فنان، لكنه لا يمكن أن يكون أبداً دون إدراك أنه تمثيل.

لقد فات السيكولوجيين أن يلاحظوا هذا الدور المماثل في الجنسية المثلية. بيد أنه لم يَفُت ملاحظة الجنسيين المثليين لأنفسهم. وبالطبع، فإن لهذه الحالة النفسية دلالتها، ليس خلال الفعل الجنسي وحسب، وإنما بالنسبة للموقف العام للجنسي المثلي أيضاً. فهذا الاستيهام يفعل فعله حتى عندما يكون الرجل وحده ويتهيج جنسياً: فيتخيل نفسه في دور المرأة أو يتخيّل رجلاً آخر في هذا الدور.

ويسوقنا وجود هذا الاستيهام إلى سؤال شائق: هل توجد جنسية مثلية خالصة؟ أو لِنَقُل، هل هنالك موقف نفسي يغيب فيه تماماً هذا النوع من التخييل، ويرغب فيه رجل في رجلٍ آخر - أو امرأة في امرأةٍ أخرى - دون هذه التحوّل metamorphosis التخييلي؟ لاشك أن هنالك مثل هؤلاء الرجال والنساء - لا المخنّثين، الذين لا تهمّنا سيكولوجيتهم هنا، وإنما رجال ونساء لا يلعب التماثل والاختلاف في الجنس بالنسبة لهم أي دور، وينشدون إشباع الدافع الجنسي الخام وحده. إنهم يستخدمون الشريك ببساطة كأداة، باعتباره الموضوع الأكثر توافراً. ومن المحتمل كثيراً أن يتّخذ الأطفال قبل البلوغ أو أثنائه مثل هذا الموقف. وعلى أية حال، فإن استيهام الاستحالة الجنسية يكون شغّالاً في معظم الاتحادات الجنسية المثلية. ومن نافل القول إن الحالة ذاتها، مع التغييرات الضرورية في التخييل، تنطبق على العلاقات بين النساء.

ونأتي الآن إلى سؤال آخر لم نَعْتَد أن تطرحه السيكولوجيا المعاصرة، شأنه شأن السؤال الأول: ما هو الموقف من الجنس الآخر بالنسبة للأشخاص الذين يفضلون أفراداً من جنسهم كموضوعات للحب؟ والجواب الواضح السريع هو أنّهم يشيحون بوجوههم عن الجنس الآخر، ولا يبدون اهتماماً به. ولكن كلما نقّب المرء أكثر باحثاً في السيرورات السيكولوجية، قويَ لديه الانطباع بأن المكان البادي للعيان هو المكان الأفضل لإخفاء ما يجب إخفاؤه. فالواضح يمكن أن يكون واضحاً على نحو مفرط في بروزه.

وأكرر، ما هو موقف هذه المجموعة الكبيرة من الرجال تجاه الجنس الآخر؟ وبالطبع، فإن علينا أن نفرّق بين سلوكهم الاجتماعي تجاه النساء ومشاعرهم نحوهن. فسلوكهم غالباً ما يكون طاهر الذيل لا غبار عليه، يتراوح بين اللامبالاة اللطيفة والمغازلة الخفيفة. وفي حالة راقبتها، وصل الأمر إلى حدّ وجود fausse maitresse(*)، كان الرجل يتكلّف في مغازلتها ويعتبرها محبوبته أمام المجتمع وذلك للتغطية على جنسيته المثلية. ومن الممكن استنتاج الموقف الحقيقي للجنسي المثلي بسهولة من طبيعة الاستيهامات المذكورة آنفاً. فمن الواضح أن بعض الجنسيين المثليين يضطلعون بدور المرأة فيسلكون كالنساء في علاقتهم مع غيرهم من الرجال، يُحاكون الطرائق النسوية والتأنّق النسوي، ويصدرون عموماً عن موقف المرأة في بعض حركاتهم وتفاصيل لباسهم، وعاداتهم[1]. ويتفق جميع الباحثين على هذه السمات المميزة، ولكن تبقى هنالك لمسة تفلت من ملاحظتهم، على الرغم من وضوحها.

تبدو محاكاة imitation الجنسي المثلي لأساليب النساء وطرائقهن بمثابة دليل على إعجابه بهن. وهل نسينا القول المأثور: المحاكاة هي الشكل الأصدق للإطراء؟ لكن حقيقة اختيار هؤلاء الذكور النسويين رجالاً، لا نساءً، كموضوعات لهم تبدو متّسمة بالتناقض، كما تكشف الملاحظة الدقيقة عن ملامح متناقضة أخرى، لا تدمّر الثقة بصدق وأصالة مثل هذا الحب الشديد المزعوم وحسب، بل تنفيه أيضاً. إن كلّ من أتيحت له فرصة مراقبة سلوك الرجال الجنسيين المثليين مع بعضهم بعضاً يتكوّن لديه انطباع مفاده أنهم لا يحاكون الجنس اللطيف مجرد محاكاة، وإنما يسخرون منه.

---

* – عشيقة زائفة.

١ – أعلمُ جيداً أن هذا الوصف يلائم النمط الجنسي المثلي السلبي وحده، أما النمط الإيجابي الذي يختار صبياً «متبنّتاً» كموضوع فهو غالباً رجولي إلى أقصى حد في سلوكه (كما هو حال الكثيرين من الضباط الألمان الجنسيين المثليين). ولكنني أقتصر هنا على النمط الأول فقط.

وعندما تصغي إلى أحاديثهم، حين يكلّم أحدهم الآخر، تسمع بوضوح أصوات السخرية اللاواعية والاستهزاء النافر في محاكاتهم النسوية. وإليكم بعض العبارات التي التُقطَت من أحاديث بين رجال جنسيين مثليين: «عزيزتي، أنتِ فاتنة جداً!» «عزيزتي، أيّ وقت قضينا!» «دعينا نأخذ سلتينا ونمضي إلى السوق». «وأرخت شعرها وقالت...» (الحديث عن رجل آخر). وثمة نعوت تطلق على الرجال الجنسيين المثليين مثل «الحسناوات» أو «العاهرات». إن حركات مثل إزاحة خصلة مشاغبة عن الجبين، وهزّ الردفين، وهلمجرا، ليست مجرد محاكاة؛ إنها سخرية في المحاكاة[٢]. وهذه المحاولة الكاريكاتورية تنمّ على العداء، وتدفعنا لأن نفهم أن احتلال مكان المرأة في أدوار الحب والجنس ينطوي على معنى لا واعٍ، يتمثّل في إزاحة الموضوع ونيل ما كان له من دلالة وأهمية. كما أن هنالك سمات أخرى نادراً ما تكون أقلّ وضوحاً، رغم إهمالها من قبل الباحثين، كالغياب الواضح للحسد والغيرة تجاه النساء. فنحن نتوقّع من الرجل، الذي يفضّل الرجال كموضوعات، أن لا يغار من النساء. كما أننا لا ندهش من استعداده لتقديم النصح لمعارفه من النساء وصديقاته السيدات حول كيفية كسب الرجال، والتعامل معهم، ومغازلتهم، وحتى حول ملابسهن. بل يمكن للمرء أن يتفهّم أن رجلاً كهذا يبدي نوعاً من الاهتمام «الأختي» بشؤون النساء الغرامية. لكن ما يدعو إلى الدهشة في التحليل النفساني للرجال الجنسيين المثليين ليس عدم غيرتهم من النساء، وإنما محاولتهم اللاواعية لجعلهن يَغَرْنَ.

إنني أتحدث هنا عن مجموعة من الرجال ليسوا جنسيين مثليين بصورة كاملة، ولا يَقْصرون اهتمامهم كلياً على جنسهم وحده، وإنما يفضّلون الرجال على النساء وحسب. وهذه مجموعة تستحق منا اهتماماً سيكولوجياً يفوق اهتمامنا بالجنسيين المثليين الجذريين، ليس لأن أنصاف الجنسيين المثليين هؤلاء أكثر عدداً بكثير وحسب، بل أيضاً لأن إمكانية الحصول على معلومات أوفى وأكثر أهمية عن سيروراتهم النفسية هي أكبر بكثير.

---

٢ – يمكن لمحاكاة النساء في الاستيهامات أن تبلغ حدوداً خيالية غريبة ، مثل ذاك الرجل الذي أطلق على نفسه اسم «العمة كارولين» وراح يتخيّل نفسه عاهرة بجوارب طويلة هاجمها رجل ، أو يتخيل أنه فتاة لعوب «تلعب عليهم جميعاً دون أن تخصّ أحداً منهم» ، أو حتى امرأة مهجورة ، عندما تخلّى عنه عاشقه الذكر . وأكّد مريض مثلي أنه لا يستطيع الانجذاب إلى النساء لأنه هو نفسه واحدة منهن . وهؤلاء النساء المزيفات يكرهن الحقيقيات على نحو لا واعٍ . وقد قال أحدهم أثناء التحليل : «لو لم يكن هنالك نساء ، لما كنت مثلياً . كل النساء يمكن التخلص منهن ما عدا تلك القلّة التي تخلق الحاجة إلى الفرار منهن نحو الرجال» . إن ما يجمع الجنسيين المثليين بصورة لا واعية هو كراهيتهم الخفية للنساء . ومن الواضح أن عوامل مشابهة تفعل فعلها لدى النساء الجنسيات المثليات .

نلاحظ أن أفراد هذه المجموعة الأكبر ليسوا متبلّدين تجاه سحر النساء وفتنتهن، بل وأن بمستطاعهم أن يشعروا ببداية اهتمام عاطفي وجنسي تجاه النساء، لكن شيئاً ما يحدث عندئذ ويحوّل هذا الانجذاب attraction الأوليّ باتجاه رجل. ما هو هذا الشي؟ ما الذي يسبب هذا التحوّل في الاهتمام؟ سأورد بعض الأمثلة: مريض مثلي اصطحب سيدة إلى الغداء في مطعم وظلّ مستمتعاً بحديثه معها إلى أن دخل شاب وسيم من النمط النسوي وجلس إلى طاولة مجاورة مع مجموعة من الرجال. وعندها اقتصر اهتمام مريضنا على الشاب وحده، رغم أنه كان قد بدأ للتو يحسّ انجذاباً نحو رفيقته. وراح يشعر كما لو أنه فقد شيئاً لن يلقاه إن لم يتعرّف على هذا الشاب الوسيم. وهكذا التمس ذريعة، وودّع السيدة، والتحق بمجلس الشاب. وها هنا حالة أخرى تكاد لا تُصدَّق: رجل كان جنسياً مثلياً على الدوام أضحى مهتماً بفتاة، وتمخّض عن علاقتهما «شأن» حقيقي. وبعد بضعة دقائق من اتصالهما الجنسي، والذي أدّى فيه وظيفته الجنسية على نحو سوي[٣] ولو بقليل من الإشباع، مضى إلى الهاتف في غرفة نوم الفتاة، وطلب صبيّه المفضّل ليحدد موعداً معه، وراح يمازحه ويغازله بينما الفتاة تسمع. أما مثالي الثالث فهو أكثر غرابة بعد: رجل اقتصرت علاقاته الجنسية لبضعة سنين على رجل آخر، تزوج في النهاية من فتاة جميلة. وبعد بضعة أسابيع ذهبت الزوجة الشابة برحلة قصيرة. وأثناء غيابها شعر الرجل بالقلق ومضى إلى صديقه السابق ليعاود معه اتصالهما الجنسي بإشباع كبير.

ما هي السمات المشتركة في هذه الأمثلة؟ إن ميل الانجذاب عن الأنثى باتجاه الذكر هو أوضح من أن يفوتنا، لكن هنالك سمات أخرى. ألا نلاحظ نوعاً من الضغينة الكامنة؟ ألم تُسَق المرأة في كل مثال إلى الاعتقاد بأنها أوقظت اهتماماً عاطفياً لدى الرجل فلا تلبث أن تفهم فجأة وبصورة فظّة أن ذلك ليس صحيحاً، وأن اهتمامه الحقيقي هو برجل آخر؟ إن سلوك الجنسي المثلي مُفْعَم بالمرامي اللاواعية، ومهمة السيكولوجي هي أن يضع يده على البواعث الخفية لمثل هذا الموقف المحيّر.

وسوف نعمد هنا إلى مقارنة هذه المواقف بأخرى تشبهها، علّ ذلك يمكننا من تخمين هذه البواعث: هنالك، مثلاً، الظاهرة اليومية، العادية لانحراف الانجذاب. الأمر

---

٣ – ذلك ممكن جداً بالنسبة لكثير من الجنسيين المثليين . وهم يشعرون آنئذ لا كما الرجال ، وإنما كما يتخيلون أن الرجال يشعرون ويفعلون في هذا الوضع .

الذي نلاحظه في الحفلات وفي أي مكان آخر من المجتمع: شابات متزوجات يغازلن الرجال، ورجال متزوجون، شباباً أو كهولاً، يغازلون الصبايا والسيدات الفتيّات. ومن ثم فإن انفعالات الصداقة وحتى انفعالات الجنس المثارة على هذا النحو تنتقل إلى الأزواج والزوجات الشرعيين على التوالي. ولقد كشف زوج أكبر من زوجته بكثير، لا عن طبعه الشكّاك وحسب، وإنما عن تبصّره السيكولوجي غير العادي أيضاً، وذلك من خلال الملاحظة التي أبداها عند عودة زوجته من إحدى الحفلات. فقد سأل زوجته، التي بدت راغبة في ممارسة الجنس معه بعد عودتها مباشرة من تلك الحفلة العامرة، والابتسامة على وجهه: «من الذي أعجبك كثيراً هذه الليلة؟» إنّ السيدات الفتيّات لا يفكرن جدّياً بالذهاب إلى الفراش مع الرجال الذين يغازلنهم – وإلا لما كُنَّ سيدات حقاً – كما لا يعاني الرجال أية مشكلة عموماً في كبت أو نقل الإثارة الناجمة عن عبثهم مع النساء الأخريات. ويمكن القول إن الإخلاص فكرة نسبية، ومسألة تقدير.

ما هي الفروق بين هذه الانحرافات العادية deviations في الاهتمام وبين الانحرافات diversions الجنسية المثلية الموصوفة سابقاً؟ على ما أرى، ثمة فرقان: الأول، هو أن الانحرافات غير السويّة تمضي باتجاه الجنس المماثل، والثاني، هو أنها تشتمل على عنصر الضغينة والذي يُقْصَد به إثبات شيء ما للمرأة. ويمكن أحياناً ملاحظة هذه السمة الأخيرة في حالات مثل حالة تلك المرأة اللعوب التي تريد زرع الغيرة في قلب زوجها، ولكن نادراً ما نلاحظها لدى الأسوياء دون مثل هذه النوايا.

ويمكن أن نقترب أكثر من المعنى الخفيّ للموقف الجنسي المثلي عندما نقارنه مع أمثلة تتمّ فيها إثارة غيرة الشخص لخدمة مقاصد أخرى. وسأورد هنا حالة واحدة فقط تكون بمثابة نموذج لكثير من الحالات: أبدى أحد المرضى سلوكاً خاصاً محيّراً في حياته الجنسية. فقد أمسى عنّيناً بعد أن أخبرته زوجته الشابة الجميلة بمغازلاتها مع غيره من الرجال. ولم يكتفِ هذا الزوج بتشجيعها على مثل هذه المغازلات، وإنما راح يقدّم لها النصح في كيفية جَذب المعجبين وإثارتهم، مع أنَّ معظمهم من أصدقائه. وبالطبع، كان على الزوجة أن تحترم حدوداً معينة، ولكنها استخدمت ضمن هذه الحدود كل حِيَل النساء في إثارة الرجال. ومن ثم كان عليها أن تقدّم لزوجها تقريراً مفصّلاً عن أحاديثها مع المعجبين بها وعن محاولاتهم لإغوائها. وأثناء هذا التقرير كان زوجها يتهيّج جنسياً. ومن الواضح هنا أيضاً وجود عامل جنسي مثلي خفيّ وفاعل، لكن

المصدر الأقوى واللاواعي لتهييج هذا الرجل هو من نوع آخر. إن السبب وراء ازدياد قدرته الجنسية هو دفق influx قويّ من مصدر الدوافع الأنوية. إن الأمر كما لو أنّ الرجل يقول لأصدقائه: «أنتم تبذلون كل ما في وسعكم لإغوائها، ولكن دون جدوى. أنا وحدي من يمكن له أن ينتزعها ويمتلكها». وهكذا يساهم شعوره بالتفوق، وانتصاره على منافسيه، بصورة حاسمة، في تهيجه الجنسي. ويُعَدُّ هذا السلوك نسخة مطابقة لموقف الجنسيّ المثلي؛ فبمقارنة مثل هذا السلوك مع سلوك الرجل الجنسي المثلي - ابتعاده عن النساء وتفضيله الواضح للرجال، وعداؤه المكشوف في محاكاته الساخرة للجنس اللطيف - نجرؤ على أن نحزر المعنى الخفي في موقفه. وإذا ما أسسنا افتراضاتنا على هذه الخصائص، نقول إن الرجل الجنسي المثلي كان يكنّ إعجاباً عظيماً تجاه النساء في السابق، وكان يحسدهن ويغار منهن. ولقد تحوّل هذا الإعجاب الأصلي بمفاتنهن إلى اشمئزاز. وبعبارة أخرى، لقد كان هذا الشخص في طريقه لأن يحبهنّ لكنه لم يحقق هذا الهدف، أو إن كان قد حققه، فإن العداء كان النتيجة النهائية. ولا ندري لماذا. ويمكننا فقط أن نلاحظ أنه يتأرجح الآن بين العداء تجاههن وبذل الجهد لابعاد اهتمامه عنهن، ويتخلل ذلك بين الفينة والأخرى فترات من الانجذاب نحوهن.

ويمكن لنا أن نتوقع من السمة الأخرى أن تكون أكثر إيضاحاً. وهي ذلك النزوع الاستفزازي لجعل المرأة تغار من رجل آخر والمتضافر مع الغيرة من المرأة. وهو نزوع غريب وعارٍ عن الذوق لدرجة أن المرء يشك في أنه يدلّ على شيء. لكن ما يبدو سخيفاً ومنافياً للعقل غالباً ما يكون له معنى غير واعٍ مهم.

ويساعدنا أكثر هنا أن نستنتج من الأثر effect وجود باعث غير واع، وهذا على الدوام إجراء له قيمته في التحليل النفسي. والباعث خلف هذا السلوك تكشفه الجهود التي يبذلها الشخص كي يبدو غير غيور وفي الوقت ذاته يزرع الغيرة في قلب غيره. وثمة تفسير واحد فقط: يكنّ الجنسيون المثليون نقمة لا واعية عميقة الجذور ضد النساء. ويمكن لنا أن نحزر أصل هذه النقمة. إنها كامنة في الحب الخائب سابقاً، ربما في الطفولة، والذي ترافق مع غيرة جامحة. وما شعر به المرء من قبل يتم إيقاظه الآن لدى شخص آخر. فقد هجرت المرأة الصبي مرة من أجل رجل، وها هو الآن يهجر المرأة من أجل رجل، ولا يكتفي بقلب الطاولات عليها، ولا بطعنها الطعنة التي سددتها له من قبل، وإنما هو يفعل ذلك بالوسائل ذاتها، مستخدماً سخريته غير الواعية. وكما لو أنه يقول للمرأة، موضوع

حبه الأصلي، أمه وأخته: «لقد فضّلت رجلاً عليَّ، وها أنا الآن أفضّل رجلاً عليك. لقد احتللت مكانك، وسوف أكون محبوباً من قبل رجل». ويُظْهِر سلوكه، عندئذ، أنه يُبْعِد الرجل عنها، كما تغوي المرأة رجلاً وتبعده عمن ينافسها عليه.

إن الغياب الظاهري للغيرة لدى الجنسي المثلي، وجهده اللاواعي الدؤوب لأن يزرع الغيرة لدى المرأة، يثبت كم عانى ذات مرة عذابات الغيرة. وليس ارتكاسه مجرد شكل بدائي من الثأر وحسب؛ بل هو أيضاً وقاء يحميه من تكرر الطعنة. وكأن الرجل يقول: «ذلك لن يحدث لي ثانية». إنه، في عزوفه عن المرأة بعد أن صرف تجاهها بعض الاهتمام، يثأر لذلّه وخذلانه، ولكنه في توجهه إلى رجل مثله يعبّر عن تهكمه وسخريته: «بمقدوري أن أفعل كما فعلتِ بي. يمكن لي أن ألعب دور الأنثى بكل ألاعيبه وأحابيله». ومن الواضح أن القصد من هذا السلوك هو إذلال المرأة والحطّ من شأنها (انظر مثال الرجل الذي اتصل بعشيقه بعد اتصاله الجنسي مع الفتاة) وإظهار الازدراء والاحتقار تجاهها. ويتمّ التعبير عن هذا التنافس مع النساء من خلال أخذ الرجل مكانهن واضطلاعه بخصالهن النسوية، ومن خلال محاكاته الكاريكاتورية المستمرة لنواقصهن ومواطن ضعفهن. أما الغياب الظاهري للغيرة فهو إجراء وقائي لإخفاء الغيظ والأسى. في حين تكشف محاولة زرع الغيرة في قلوبهن أن ذكرى الأسى القديم قد بقيت بصورة غير واعية وأنها فاعلة لا تزال.

وهكذا يصبح ممكناً تفسير انزياح shifting الاهتمام والانجذاب. ولنتذكر ذلك الرجل الذي صرف اهتمامه عن السيدة التي يتناول الغداء معها باتجاه شاب وقع عليه دخوله كما تقع إشارة الانذار. وكأني بهذا الرجل يفكّر في لا وعيه: «لن تهتم بي الآن، بل بهذا الشاب. وأنا لا أريد أن أشعر بتلك الغيرة الممضة وأعاني ما عانيته من قبل. لسوف أجعلها تعاني هي وتغار. سوف أنصرف عنها إلى هذا الشاب الجميل». وبالطبع، فإن هذا الموقف يمكن أن يحصل حتى لو كانت المرأة غائبة. ذلك أن حضورها يمكن تأمينه بوساطة الاستيهام.

أما ذلك الشاب المتزوج، والذي عاد، خلال غياب زوجته القصير، إلى عشيقه الذكر، فلابدّ أنه فكّر في لا وعيه: «بينما زوجتي بعيدة، سوف تنجذب إلى رجل آخر؛ ولذا سوف يكون لي شأني مع رجل، كما قد تفعل هي». ومع أن الباعث على الثأر يظلّ غير واع، إلا أن من الممكن الإحساس به. وهو لا يتعارض مع، بل يثبت، وجهة

النظر التي مفادها أن موضوع الحب الذي يختاره الرجل الجنسي المثليّ غالباً ما يكون له سمات أولئك الذين أعجب بهم موضوعه الأصلي. وفي إحدى الحالات التي صادفتها كان الرجل المثليّ يفضّل الشباب الشقر، طوال القامة، وذوي البنية الرياضية. ولم يكن العامل الحاسم في تفضيله أن هذا النمط معاكس لنمطه هو، حيث كان قصيراً وناعماً، بل أنه النمط الذي أعجبت به أمه[٤]. إن العداء، والغيرة، والثأر من النساء، مع الإحساس الشديد بالنقص كرجل، هي بعض العوامل الحاسمة في الجنسية المثلية.

لا يسمح لنا المجال المتاح لمناقشة الجنسية المثلية في هذا الكتاب بمعالجة الدور الذي يلعبه تجنّب المنافسة مع الجنس المماثل في تكوّن وتطور الميل باتجاه الجنسية المثلية. فالنزوعات الجنسية المثلية لا تتطور إلا بعد أن يترك الصبي لصبي آخر منتصف الطريق، متجنّباً منافسته. وإذا ما ظهر التنافس مع الرجال الآخرين ثانية بين انفعالات الجنسي المثلي، فإن من الممكن اعتباره عَرَضاً مملوءاً بالأمل. وفي إحدى الحالات التي عالجتها أدرك الرجل نفسه هذه الميزة عندما تنافس مع رجل آخر على سيارة أجرة وصلا إليها في الوقت ذاته.

أدرك تماماً أنني أهملت كثيراً من أشكال الجنسية المثلية في هذه المناقشة. فقد فرض عليَّ الحيّز المحدود المتاح للموضوع في هذا الكتاب أن اقتصر على طور واحد من أطوار هذه المشكلة، هو الطور الذي يهمّنا هنا لارتباطه مع فكرة الكتاب الأساسية. وهو في الوقت ذاته الطور الذي لم يكتشفه التحليل النفسي حتى الآن. ولقد مرّ زمن طويل منذ أن قدّم لنا البحث فهماً جديداً لهذه المشكلة التي لا تزال دون حل. وفي العلم، ما من أخبار سيئة.

---

٤ – الصيغة التي يمكن أن تعبر عن التطور النفسي لهذه الحالة هي التالية : « تريدني طويلاً وأشقر ، مثل كارل – ولأنني لست مثله ، لا تحبني ، وإنما تحب كارل – وأنا أيضاً سأحبه » . إن واحداً من العوامل المهمة في هذا التطور هو الأنا المنكمش deflated ego المتراكب مع الشعور اللاواعي بالإثم الناجم عن نزوات الحسد والعداء . فشعور المرء بالنقص يمكن ، وإلى حد بعيد ، ردّه إلى الطفولة . وقبل أن يتمكن الصبيّ من أن يصير رجلاً بين الرجال ، لابدّ أن يُعَدَّ صبياً من الصبيان . ويسجّل معظم الجنسيين المثليين أن الآخرين سخروا منهم كصبيان وأطلقوا عليهم اسم « خنثى » sissy . وقد شعروا بأنهم غرباء ومنبوذون . وما دام هذا الشعور بالنقص والإثم قوياً ولم يضعف ، فإن الميل الجنسي المثلي سوف يبقى . وغالباً ما يسجّل الجنسيون المثليون أنهم ، في طفولتهم ، كانوا متحفظين مع البنات ، كما لو أن البنات كائنات « لا تُمَسّ » وعلى الصبيان أن يخجلوا أمامهن بينما يمكنهم أن يقوموا مع الصبيان بكل ضروب النشاط الجنسي . وليس هنالك أي شك في أن الجنسية المثلية تعني أيضاً قبول الفشل والهزيمة والابتهاج بها .

ليس ثمة جنس مُصعَّد

الحب، تبعاً لفرويد، هو نوع من التطور المكبوح للحافز الجنسي. بيد أنه من الصعب أن نتخيّل كيف يمكن للدافع الجنسي الخام أن يحيد deflect عن أهدافه الأصلية باتجاه الحنان، وكيف يغدو الحافز مجرداً من الجنس desexualized، ويبقى جنسياً في جوهره على الرغم من ذلك. فلنأتِ إلى مثال ملموس: الثنائي الشاب، جون وجين. تُرى، كيف تطور حب جون للفتاة حسب النظرية التحليلية النفسية؟ إن جين لم تكن في الأصل سوى موضوع لرغبات جون الجنسية. ولكن رغبته الحسيّة كُفَّت عن بلوغ هدفها. وعندئذ أضحت الرغبة الواعية موجَّهة إلى الحنان وحده، في حين بقيت الأهداف الجنسية الأصلية غير واعية. إن من الصعب الاقتناع بمثل هذا التفسير.

والأشدّ صعوبة بعد هو قبول التحوّل الآخر الذي يدعوه فرويد والمحللون النفسانيون بالتحول الأكثر أهمية الذي يخضع له الدافع الجنسي؛ أي التصعيد sublimation. ففي الحب بقي الموضوع على الأقل هو ذاته؛ ولم يتغير سوى الهدف. والرجل لم يعد يرغب، بصورة واعية على الأقلّ، في الإشباع الجنسي بالدرجة الأولى، وإنما في الحنان والرفقة. أما في عملية التصعيد، فقد قيل لنا إن طاقة الدوافع الجنسية تحيد عن غايتها الأصلية وتُستَخدم من أجل مقاصد أخرى، لتحقيق مرامٍ ليست جنسية وإنما ذات قيمة اجتماعية أو أخلاقية أسمى. ويؤكد التحليل النفسي أن منجزاتنا الثقافية ناجمة، إلى حدّ بعيد، عن الطاقة المعاد توجيهها في هذه النزوات الجنسية.

لنعد ثانية إلى جون وجين. إذا ما صادف جون عقبات خارجية أو داخلية تمنعه من المضي إلى الفراش مع جين، فإن طريقاً آخر ينفتح حينئذ للتخلص من الرغبة الجنسية التي تثيرها الفتاة الفاتنة لدى هذا الشاب، حيث يمكن لجون أن يستغلّ هذه الطاقة

الجنسية في كتابة رواية أو في إحراز تقدم في المصرف الذي يعمل به. ويطلق المحللون على هذا التحول الذي يعتري الدافع الجنسي اسم التصعيد.

وسرعان ما أصبح المصطلح شعاراً وصيحة حرب. وفي آن واحد تقريباً راح مثقفو نيويورك دفعة واحدة يستخدمونه في مناقشاتهم وقفشاتهم («الزواج خير من التصعيد»)(*) لكن للمسألة جانبها الجديّ على أية حال، أعني أنه يجب التساؤل عما إذا كان مثل هذا التحول موجوداً أم لا. وهل يمكن لجون، الذي يبتغي مضاجعة جين، أن يغيّر حقاً الطاقة الجنسية التي تملي عليه هذه الرغبة باتجاه كتابة رواية أميركية عظيمة؟ وهل الحماس الذي يشعر به حين يفكّر بالحبكة والشخصيات وحين يضرب مخطوطته على الآلة الكاتبة هو حقاً من منشأ جنسي وذو طبيعة جنسية؟ وهل يمكن للدوافع الجنسية أن تحيد هكذا عن هدفها الأصلي بحيث يمكن لطاقتها أن تُستخدم من أجل هذه المقاصد الأكثر سمواً ونبلاً.

إن لم يرغب جون في جين (أو في أية فتاة أخرى) على الإطلاق وانشغل بأفكار واستيهامات تتعلق بروايته وحدها، فأين هو مبرر الافتراض بأن طموحه الجديد ينجم في الأصل عن الدوافع الجنسية؟ نحن لا ننكر أن جون يعزف عن جين ويستغل طاقته كلها كي يصبح كاتباً عظيماً، أو مدير مصرف، ولكننا لا نعتقد أن هذه الطاقة هي جنس مجرد من الجنس. أليس من المحتمل أكثر أن تكون طاقة جون قد تحركت من ميدان الدوافع الجنسية إلى منطقة نزوات أخرى، مختلفة؟ دعونا نختار مقارنة أخرى: جون جائع جداً وليس لديه سوى القليل من المال. إنه يريد الذهاب إلى المطعم، لكنه يتخلّى عن الغداء ويزور معرضاً فنياً عوضاً عن ذلك. فهل يمكننا القول إن رغبته في رؤية لوحات رامبرانت تعادل تصعيد جوعه الأصلي، أي ذاك الإحساس المزعج بفراغ معدته؟ وهل هي الشهية ذاتها، في أصلها وطابعها، تلك التي تُشْبَع في المطعم وفي المعرض الفني؟

لقد بيّنت آنفاً أن كلمة جنس تعني بالنسبة لي التعبير عن دافع بيولوجي محض هو في شكله الأصلي بدئي وأولي شأن الجوع أو حاجات الاطراح. ولا يمتلئ الدافع

* – في هذه العبارة ثمة لعب على الألفاظ بين كلمتي mate (يتزوج) و sublimate (يصعد).

الجنسي بدلالته العظيمة إلا بتحالفه مع دوافع غير جنسية. وما لم يتحالف على هذا النحو، فإنه لا يكون عاملاً من عوامل تشكيل الثقافة. وحتى المؤسسات التي ترتبط عادة بالحياة الجنسية، كالزواج مثلاً، لا يمكن ردّها إلى الحاجات الجنسية الخام وحدها. وما من إجراء في العالم يمكنه أن يقلب التهيج الجنسي طاقة ابداعية ثقافية ويحوّله إلى مساعٍ سامية. وبعبارة أخرى، إن رغبات الجسد الجنسية لا يمكن لها أن تنقلب حكمة وفنون قيادة. وليس لدى الدافع الجنسي فرصة للتصعيد على شكل طاقة إبداعية وثقافية إلا بقدر ما لدينا جميعاً فرصة لأن نتحول بعد الموت إلى ملائكة نورانية محيَّرة(*) ترنّم التراتيل في السماء.

إن الزعم الذي مفاده أن الدافع الجنسي الخام يمكن استخدامه كمرقاة إلى أهداف ثقافية رفيعة ليس فيه من المعنى إلا بقدر ما في التأكيد على أن حاجة التبوّل يمكن أن تحيد عن اتجاهها وأن الضغط الناتح يُنْتَفَعُ به كطاقة من أجل تحقيق مرامٍ نبيلة. إن فكرة تصعيد الدافع الجنسي تبدو للوهلة الأولى معقولة وحاذقة. تخطر في ذهنك قصائد الحب، وسوناتات بتهوفن، وكثير من المآثر الإنسانية العظيمة الناجمة عن الطاقة النفسية التي ينطوي عليها الحبّ غير المحقَّق، والرغبة والتوق. ولاشك أن طواحين كثيرة تديرها هذه الريح. ومع ذلك، فإن هذا التشوّف العظيم ليس الدافع الجنسي الصرف أبداً. إنه الحب، الذي يختلف في منشئه وفي طبيعته. أما المحللون النفسانيون فلا يرون سوى قوة الجنس، ويرفضون أن يغنّوا أغنية القوة الأخرى أو يرقصوا رقصتها، مع أنها القوة التي جاءت منها معظم الرقصات والأغاني.

يمكن للحافز الجنسي الخام أن يُشْبَع بسهولة وهو غير قابل للتصعيد أبداً. وإذا ما تهيّج بقوة، فإنه يحتاج، بإلحاحيته، إلى إطلاق مباشر. فهو لا يمكنه أن يحيد عن هدفه الأول إلى أهداف أخرى، إلا بقدر ما يمكن ذلك لحاجة التبول أو حاجة الجوع والعطش. وهو يلحّ على الإرضاء في ميدانه الأصلي. ولا يمكن تحقيق إشباع هذا الحافز المحدود عن طريق استبدال هدف بآخر. وأودّ أن أتابع هذه النقطة إلى النهاية، ذلك أن الوقت قد حان لوضع حدّ للتشوش العام السائد الآن. وأنا أتحدث هنا عن الدافع الجنسي الخام، لا

* - sexless ، لا هي بالمذكّرة ولا بالمؤنثة .

عن تلك الأشكال التي يلتحم فيها مع دوافع أخرى. كما أشير إلى الجنس في طبيعته البسيطة والأولية، وهذا بالضبط ما عناه فرويد في الأصل عندما استخدم مصطلح الجنس.

إذا ما حاول باحث إقناعنا بأن حافز العطش أو الاطراح يمكنه أن يحيد باتجاه إنجاز مآثر ثقافية، فاننا لن نصدقه. ذلك أن الاكتشافات العلمية العظيمة والقصائد والسمفونيات لا تدين بوجودها إلى الإخفاق في إشباع هذه الحاجات الحيوية. ولست ملمّاً بالأدب والموسيقى الأكثر حداثة، ولكن حتى بضع سنين خلت على الأقل كان من الواضح أن ما من قصيدة أو مقطوعة موسيقية مهمة ناجمة عن العطش المكبوت أو عن رفض إفراغ المثانة. فلماذا علينا، إذاً، أن نصدّق أن المآثر الثقافية هي نتيجة لحيدان deflection الحاجة الجنسية الفيزيائية عن اتجاهها؟ ولماذا، والحالة ليست هذه، ندعوها جنساً وندمغها بدمغة خاطئة.

كل الدلائل تكذّب النظرية التي تزعم أن الدافع الجنسي الخام يمكن أن يتصعّد، في حين تؤيد الأبحاث كلها وجهة النظر التي تقول إن طاقة دوافع الأنا يمكن استخدامها، من خلال تنبيه مطامح البشر وآمالهم، في تحقيق مآثر ثقافية. والحب ذاته ينتمي، كما سأحاول أن أبيّن، إلى هذه الدوافع، وهنالك فضلاً عنه حاجات التميّز الاجتماعي، والتنافس، والغرور والخُيَلاء، ولكنها تنبثق عن هذه الدوافع القوية التي ندين لها - وفي بعض الأحيان لها في التحامها مع الدافع الجنسي - بمعظم منجزاتنا الحضارية، بدءاً من الجهود المبذولة لإرضاء حاجاتنا البدئية، وحتى تحقيق أعظم المآثر. وآمل، مع هذا التفريق، أن تُسدل الستارة ببطء على النظرية التي تزعم أن الدافع الجنسي الخام يساهم بمعظم الطاقة الإبداعية التي ينطوي عليها التقدّم البشري.

اعتراض مطروح

أسدلتُ الستارة في الفصل السابق على النظرية التي تزعم أن الدافع الجنسي يمكن أن يتصعّد. ووجدت نفسي متردداً ومحتاراً للحظة قبل الختام كما لو أن شيئاً لابدّ من معالجته قبل أن نصرف النظر عن الموضوع بصورة نهائية.

طالب شاب يدرس السيكولوجيا ومطّلع على وجهات نظري، طرح اعتراضاً جدياً بما يكفي لأخذه في الحسبان. وأرسل إليَّ رسالة أقتبس منها بعض الفقرات:

«هَبْ أن رجلاً، لديه دافع جنسي حبيس إلى هذا الحد أو ذاك، يلتقي بفتاة. ويعتقد هذا الرجل أنها جميلة وأنه يحبّها وتحبّه. يتصلان جنسياً ومن ثم ينتهي كل شيء، ففي اليوم التالي تماماً، يكشتف أنها بعيدة كل البعد عن المثال ideal الذي يبتغيه أو أن هنالك عشرات الأشياء التي تعترض حبه الحقيقي لها. وإذا ما لاحظ هذا النزوع لديه مرة بعد مرة فربما يستنتج أن الفرويديين وغيرهم على صواب، ذلك أن اللبيدو المحبَط لديه يتصعّد جزئياً إلى عاطفة وحنان وأنه يتنكّر بهيئة الحب ما دام الضغط (من اللبيدو) موجوداً. وبالطبع، فإن سؤالي هو: أين اقترف هذا الرجل خطأه؟ يبدو للوهلة الأولى، وفي هذه الحالة المحددة، أن فكرة التصعيد مثبتة ببرهان. ومع ذلك، فإني أوافقك على أن الحياة أكثر صعوبة وتعقيداً، فقد قرأت كتابك[1]... وآخذاً في الحسبان ما قلتَه في هذا الكتاب، سأحاول أن أجيب كما يلي: إن ضغط (أو دفع) الدافع الجنسي الحبيس ينزع إلى تشويه أو إخفاء مثال الأنا ego - ideal الحقيقي، وبخاصة الجزء غير الواعي منه والذي يشكّل معظمه. أما بعد أن يُشْبَع هذا الجوع

١ – نظرات سيكولوجي إلى الحب ، نيويورك ، ١٩٤٤ ، ولقد حذفت من رسالة الطاب في هذا الموضع مقطعاً يطري فيه الكتاب .

الجنسي، فإن الخصائص المعنوية يمكن أن تتركّز في بؤرة تُظْهِر مدى ابتعادها عن المثال. وبالطبع فإن ما قلته للتوّ يَقْصُر سواء في محتواه أو في أسلوبه عن إشباع حاجتي إلى جواب كامل».

إن هذه المساجلة لمن المساجلات التي تتقدم بروح البحث عن الحقيقة، وهي تستحق الاهتمام والردّ بأمانة وبأحسن ما يعرف المرء، بعكس بعض الرسائل السخيفة أو الوقحة. ويمكن التأكيد على وزن أو جدارة هذه المساجلة بحقيقة أن إثنين من أعظم السيكولوجيين قد حَدَسا بها - آرثر شوبنهور وسيغموند فرويد. فقد أشار فرويد في أحد المقاطع من كتاباته إلى أن الجنس (بمعناه الموسَّع) يستنفد ذاته دورياً في الفعل الجنسي وأنّ على الرغبة إذّاك أن تنتظر حتى يُثار ثانية. والانفعالات التي يصنّفها فرويد تحت مصطلح الجنس، ومن بينها الشكل المصعّد من الحنان، تجد في الفعل الجنسي إطلاقها الذي يمكن مقارنته بالانفجار. وتبعاً لوجهة النظر هذه فإن الظاهرة التي يلاحظها طالبنا هي إذاً ظاهرة شائعة ويمكن تفسيرها بطبيعة الدافع الجنسي ذاتها.

وعند شوبنهور أيضاً، نجد أنَّ الحب هو «دافع جنسي تفريقي، تخصيصي، وبمعنى دقيق تمييزي»[٢]. ويرى شوبنهور أن التقدير الفائق للموضوع وشدّة الهوى تجاهه مشروطين بحقيقة أن نوعية quality الجيل اللاحق تعتمد على اختيار الشريك. وإن إرادة النوع تحيا في الحافز الذي يحفّز المحبّ على الرغبة في موضوعه. وهكذا يتنكّر الدافع الجنسي بقناع الإعجاب الموضوعي لأن الطبيعة تحتاج هذه البراعة في التدبير من أجل مقاصدها.

إن تزايد الهيام لدى كلا المحبَّين قبل الاتصال الجنسي مباشرة هو في حقيقته إرادة الفرد الجديد في أن يتكوّن ويحيا. والطبيعة تحتال على المحبّ وتسوقه لأن يتخيّل أنه راغب في إشباعٍ شخصي عميق، بينما هو في الحقيقة يعمل على تأبيد نوعه. ولقد رسّخت الطبيعة هذا الضرب من الوهم، والخداع، الذي يموّه باعثاً أنانياً بقصد حفظ النوع:

٢ - «ميتافيزيقا الحب الجنسي» ، في «العالم كإرادة وتمثّل» الجزء الثاني .

«وتبعاً للطابع الموضّح هنا فإن كل محبّ يعاني، بعد بلوغه الإشباع في النهاية، خيبة أمل غريبة ويَعجَب أنّ ما رغب فيه بكل هذا التوق الشديد لم يُعطه ما يزيد على أي إرضاء جنسي آخر... وكل محبّ يجد نفسه مخدوعاً بعد إتمامه الفعل العظيم؛ ذلك أن التضليل الذي تستغفل الطبيعة بوساطته الفرد يكون قد اختفى».

وعبّر شوبنهور أيضاً عن أن حب الرجل يتناقص كثيراً بدءاً من لحظة تحقيقه لإشباعه: «تكاد أيّة امرأة أخرى أن تجذبه تجذبه أكثر من تلك التي سبق له أن امتلكها». هكذا يفسّر شوبنهاور الحبّ بأنه قناع لهدف الطبيعة، و«الدليل على ذلك هو أن هذا الهوى العظيم ينطفئ بإروائه، وسط ذهول المحب». وبعد تحقق إرادة النوع، فإن الوهم الذي ليس له قيمة إلا بالنسبة للنوع، لكنه يعني للفرد ذروة السعادة، لابد أن يتلاشى. وروح النوع، التي تملّكت الفرد، تعتقه ثانية. فيتقهقر، وقد تخلّت عنه هذي الروح، إلى قيده وبؤسه الأصليين، ويدرك مذهولاً أنه لم ينل من المتعة بعد هذه المكابدة الرفيعة، البطولية، اللامتناهية أكثر مما يضمنه كل إشباع جنسي. ولا يشعر، بعكس توقعاته، أنه أسعد من ذي قبل. ويدرك أن إرادة النوع قد خدعته واحتالت عليه.

إن في وجهتي نظر شوبنهور وفرويد الكثير مما هو مشترك. فكلاهما يريان في الحب اشتقاقاً من الجنس يتبدّد بالاتصال الجنسي، ويربطان الهبوط المفاجئ في الهوى بعد هذا الاتصال بإشباع الحافز، وطالِبُنا، الذي لم يقرأ شوبنهور، لديه وجهات نظر مشابهة ويفترض أيضاً أن الفرد مخدوع أو يخدع نفسه، لا لشيء إلا لكي يتحقق من أنه كان ضحية للوهم. وعلى أية حال، فإن طالِبُنا لا يبلغ الحد الميتافيزيقي الذي بلغه شوبنهور، الذي يتّهم الطبيعة بالتحايل، وإنما يقتصر على حدس مفاده أن ضغط الحافز الجنسي هو المسؤول عن التضليل.

ليس هنالك أي شك في صوابية التوصيف الذي يقدّمه شوبنهور، وفرويد، وهذا الطالب. ولقد صوّر وليم هوغارث هاتين الحالتين الانفعاليتين في لوحتيه «قبل» و«بعد»، كما عبّر آرثر شنيتزلر عنهما تعبيراً لا يُنسى في حوارياته السوداوية والمسلّية Hands Around. إن رصد التزايد والتناقص في التوتر الانفعالي هو رصد دقيق. ولكن السؤال هو ما إذا كان التفسير صائباً. فأنا لا أجد أية ضرورة للزعم بأن

الطبيعة تغشّنا. ففي نسبة مثل هذه النزوعات إلى الطبيعة تجسيم anthropomorphism مفرط، ونسيان أننا لسنا سوى جزء صغير مما أبدعته الطبيعة.

في محاولتي الخاصة لتفسير هذه الظاهرة سيكولوجياً أختار منطلقاً لتمايزي أن أنظر إلى هذه الحالة الانفعالية باعتبارها تنمّ على فروق فردية ملحوظة، رغم دقة الصورة العامة التي رُسِمَت لها. فتناقص اهتمام الرجل بشريكته ليس حاداً دائماً وقاطعاً كما يصفه الطالب. وهو نفسه قد يعترف عن طيب خاطر أن ثمة فروقاً فردية في الارتكاس تختلف باختلاف الشركاء وحتى مع الشريك نفسه. ونحن ندرك أن عاملاً مجهولاً، لم يحسب حسابه فرويد ولا شوبنهور ولا مراسلنا، يلعب دوراً معيناً ويحدّد، إن لم يكن الطابع العام، فعلى الأقل شدّة الارتكاس. كما أن هنالك بعد الحقيقة الواضحة المثبتة والتي مفادها أن الاتصال الجنسي ليس له مثل هذا المفعول المُصَحّي sobering على النساء. فالاتصال الجنسي بالنسبة لهن لا يسدّ طريق الحنان، بل يفتحه. وهن يرتكسن كما لو أن الألفة الجسدية تزيل العوائق التي حالت في السابق دون التعبير عن العاطفة ودون تدفقها الحر. أليس هذا أيضاً إشارة إلى أن عاملاً مجهولاً يؤثر على الارتكاس؟

وإليكم محاولتي في حل هذه الإشكالية: كما قلت من قبل، إن الجذب الذي يمارسه فرد من جنس معين على فرد من الجنس الآخر هو، عادة، نتيجة لمزيج من الحافز الجنسي، وإرادة الانتزاع، والعاطفة. ومن بين هذه العوامل الثلاثة الدافع الجنسي هو الأكثر عماءً وعدم قدرة على التمييز بين الأشخاص؛ والعاطفة هي الشدّ الأكثر شخصية، بينما تشغل شهوة الانتزاع موقعاً وسطاً بين الاثنين. والحافز الجنسي ورغبة الانتزاع بدئيان وأوليان. أما الحب فهو نتاج للتطور الثقافي، وفي الواقع، نتاج لتحوّل حافز الانتزاع الغريزي، عبر تأثير الحضارة. إن قوة الهوى التي تشدّ شخصاً إلى الشخص المرغوب فيه هي محصلة هذه القوى الانفعالية الثلاث، والتي تتحد بقصد تملّك الموضوع. ولا يجب أن نستخفّ ولو للحظة بحقيقة أن التملك لا يعني الشيء ذاته لدى المحب ولدى المتهيج جنسياً. فهو يعني بالنسبة للأول اتحاداً انفعالياً؛ أما بالنسبة للثاني، فيعني نفوذاً واختراقاً جسدياً. وكلا الهدفين لا

يتوافقان، لكن أياً منهما لا ينفي الآخر. فالاتصال الجنسي يمكن أن يغدو التعبير الجسدي عن المودّة والعاطفة.

ودعونا الآن نتأمل من وجهة النظر هذه ذلك الارتكاس الذي يشغل اهتمامنا. إن المكوّنين الأشدّ قوة في المزيج، أي الرغبة الجنسية وإرادة الانتزاع، يجدان تحققهما في الفعل الجنسي. أما العامل الثالث، أي العاطفة الفردية، التي قد لا تكون موجودة بالضرورة، والتي، إن وجدت، قد تتنوع شدتها إلى حد بعيد، فهي مفتقرة لما لدى العاملين الأولين من قوة إكراه. وهي كنتاج للحضارة ليست نداً لهذه الدوافع الأولية القوية التي تتبارى معها بين الحين والآخر. وهكذا فإن الأثر الانفعالي للاتصال الجنسي سيتحدد من خلال الارتخاء relaxation المفاجئ الذي يجده في الإشباع كل من العاملين الأكثر أهمية، الجنس وشهوة الانتزاع. ويكون انخفاض التوتر التالي نتيجة لإشباع هذين الحافزين الملحاحين.

ومن الواضح أن مقدار الطاقة النفسية يتضاءل كثيراً عندما يتحقق القسم الأقوى والأشد إلحاحاً من مطالبها.

وهكذا فإن الفارق بين قبل وبعد يماثل ضعف التيار الكهربائي. فالأثر هو ذاته كما حين نستبدل بمصباح جوبيتر Jupiter - lamp، الذي يُسَلَّط على شخص ما فينيره تماماً، مصباحاً قوته خمسة وأربعون واطاً. وعندها تبهت ملامح الشخص وتعتم.

هذا التفسير لا يحسم مسألة الاهتمام المتضائل إلا بطريقة عامة أو ميكانيكية. وقبل أن نتابع سنحاول أن نقرر أياً من الدافعين يحظى من الإشباع بحصة الأسد. ويبدو الجواب سهلاً، بالنظر إلى طبيعة الفعل. لابد أنه الحافز الجنسي. ولكن من المحتمل أن تقرّر الفروق الفردية لمن تكون الغلبة. فالدافع الجنسي ينال الإشباع الأعظم لدى شخص ما؛ في حين تنال حاجة الانتزاع هذا الإشباع لدى شخص آخر. ولمّا كان اتحاد هذين الدافعين يجعلهما ملتحمين دون انفصال تقريباً في هذا الوضع، فإن القرار صعب. ولقد أقنعت الملاحظة الذاتية الدقيقة كثيراً من الرجال أن انتصار الانتزاع هو بالنسبة لهم أكثر أهمية من المتعة الجنسية بحد ذاتها، أو أقنعتهم أن إشباع حاجة الانتزاع يلعب دوراً كبيراً في الإشباع الجنسي. وعودة إلى ملاحظة

الطالب السيكولوجية، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن تناقص الاهتمام بالشريك ينجم إلى حد بعيد عن إرضاء شهوة الانتزاع. ولدى تحليلي كثير من تجارب الرجال اكتشفت أن هواهم يبدأ بالتناقص حتى قبل الفعل الجنسي؛ وبدقة، منذ اللحظة التي تبدو فيها المرأة مستعدة للاستسلام.

وعلى أية حال، فإن الإشباع المتأتي عن انتزاع المرأة يتوافق لدى عدد كبير جداً من الرجال أو لدى نمط معين منهم مع تضاؤل الاهتمام المُسْتَشْعَر من قبل. فإشباع شهوة الانتزاع يجرّد الموضوع المرغوب فيه من كثير من فتنته وسحره. وغالباً ما يزيل التملّكُ الحافزَ الذي جعل كل الرغبات الأخرى، قبل الفعل، تبدو باهتة دون أهمية.

لسنا بحاجة بعد إلا إلى إضافة بضعة ملاحظات مؤقتة حول الحقيقتين المحددتين آنفاً. إن تناقص الاهتمام بالشريك بعد الاتصال الجنسي، كما قلنا، ليس حاداً دائماً ومفاجئاً كما في الحالات الموصوفة. كما أن هنالك أدلّة كافية للتأكيد على أن المرأة تبقى مرغوبة ومحط إعجاب حين تُلْهِب عاطفة قوية لا مجرد جذب عابر. وعندها قد لا يتضاءل الحنان تجاه الموضوع بعد إشباع الحافز الجنسي ورغبة الانتزاع. وما يصفه شوبنهور، وفرويد، والطالب ليس له قيمة عامة، وإنما هو فقط تجربة تتكرر لدى الرجال.

أشرتُ إلى أن النساء لا يشعرون بعد الاتصال الجنسي بذاك الانعتاق من السحر والوهم الذي يشعر به الرجال. بل إن عاطفتهن تزداد شدة، كما لو أنهن ممتنّات للرجل. وقد يكون هنالك أسباب عديدة هي المسؤولة عن هذا الفارق في الارتكاس بين الرجال والنساء. فالفعل الجنسي لدى النساء ليس له طابع الواجب أو الاختبار الذي يؤدّى. كما أن إرادة الانتزاع في شكلها العدواني هي بالتأكيد أقلّ تطوراً لديهن منها لدى الرجال. وأخيراً فإن درجة معينة من العاطفة أو الحنان تبدو وكأنها شرط أساسي للإشباع الجنسي عند النساء. ومن النادر أكثر بالنسبة لهن، قياساً بالرجال، أن يرغبن في الاتصال الجنسي لمجرد إشباع الحافز الجنسي الخام. ونادراً ما يُظْهِرنَ التملّك دون أثر للعاطفة. وأنا لا أنكر أن هذا الإمكان قد يصبح واقعاً لدى النساء أيضاً، ولكن من الواضح أنهن لا يمكن أن ينلن إشباعاً عميقاً في مثل هذه الشروط.

أُدْرِك جيداً ما في هذا التفسير السيكولوجي من نواقص، لكنه أفضل ما لديّ الآن. ولقد حسمت مسألة واحدة من خلاله: ليس هنالك أي تصعيد للدافع الجنسي. فهذه مسرحية فاشلة لن ترتفع الستارة عنها كي تؤدّى من جديد.

ليس للعُصاب منشأ جنسي

من الضروري هنا أن نبدي بعض الملاحظات حول سيكولوجيا العصاب، حيث يؤكّد التحليل النفسي أن المشكلات العصابية هي دوماً اضطرابات في الحياة الجنسية. ولقد كان لوجهة نظر فرويد هذه، والتي هي مغلوطة تماماً وغالباً ما أسيء فهمها وتفسيرها، أثر مشؤوم لأن كلمة جنس أُخِذَتْ بمعناها الأكثر أولية. وها أنا أعترف صراحة، بعد أربعة وثلاثين عاماً من الممارسة والبحث التحليليين، أن وجهة نظر فرويد في السببية الجنسية sexual etiology للعصاب تبدو لي خطأ فاحشاً، وأعتقد أن نظرية الليبدو مبنيّة على أساس فاسد. لاشك أن الرغبة الجنسية غير المشبعة يمكن أن تسبب مصاعب، بل واضطرابات من النوع النفسي، ولكن بالطريقة ذاتها التي يسببها الجوع الشديد الذي لا يعرف للشبع طريقاً وليس بأية طريقة أخرى. وعليَّ أن أقول، فضلاً عن ذلك، إن الاضطرابات الناجمة عن الرغبة الجنسة هي أقلّ من الاضطرابات الأخرى، فبينما نجد حالات لا يمكن فيها إشباع الجوع، نلاحظ أن الغريزة الجنسية العنيفة والموجعة يمكن إشباعها دوماً - من خلال الإشباع الذاتي البدئي عند الضرورة، عن طريق الاستمناء masturbation. أما الدوافع الأخرى، مثل الجوع والعطش، فلا تتاح لها مثل هذه الفرص.

ولكن ألا تلعب الاضطرابات الجنسية دوراً كبيراً في أعراض العصاب؟ هل فرويد مخطئ تماماً؟ أجل، إن فرويد مخطئ في هذه النقطة المحددة من مفهومه عن الجنس، مع أن المصاعب الجنسية تبدو واضحة في أعْرَاضية symptomatology العصاب. وما من تعارض في هذا القول. فحقيقة أن الرغبة الجنسية غالباً ما تبدو واحدة من المصاعب الأساسية التي تظهر بصورة تكاد تكون منتظمة لدى العصابيين، لا تثبت أن العصاب ناجم عن الافتقار إلى الإرضاء الجنسي. وإنه لمن مجانبة الصواب بالنسبة للطبيب

تشخيص أعراض مريض لديه صعوبة تنفسية باعتبارها دليل مرض في الرئتين؛ ذلك أن التنفس، كما هو معروف، غالباً ما يُعاق بالقصورات الوظيفية للقلب/

أما بالنسبة للتحليل النفسي الجديد فإن مشكلات العصابيين ومصاعبهم الجنسية تبدو بمثابة العَرَض الأبرز لسبب أعمق جذراً. والوظيفة الجنسية من وجهة النظر هذه هي مجرد موظف رئيس لدى سلطة مركزية. وحين يخفق هذا الموظف لابدّ أن يكون هنالك خطأ ما لدى الحكومة التي يمثّلها. إن إعلان فرويد الأساسي عن السببية الجنسية للعصاب هو إعلان خاطئ. فمن دون ضعف في الأنا ما من عصاب ممكن. والعصاب هو اضطراب في الشخصية كلها، وليس في مجالها الجنسي وحده.

ليس هذا مجال تقديم نظرية في منشأ وطبيعة العصاب. وسوف أقتصر على ملاحظات مؤقتة مفادها أن العصاب اضطراب انفعالي ناجم عن تزعزع الثقة بالنفس لدى شخص ما. وهو اضطراب يؤدي إلى ضروب من القلق، والكفّ، وأعراض تعكس الإخفاق في تحقيق غايتين، الحب والعمل.

إذا ما نظرنا إلى أولى هاتين المأثرتين اللتين تتطلبهما الحضارة من الفرد، لابد أن نسأل إن لم يكن صائباً أن المصاعب الجنسية تلعب دوراً كبيراً في تاريخ وأعراض معظم العصابيين. إنها تفعل، لكن هذه المصاعب ليست السبب في العصاب، وإنما هي عملياً أثر لاضطرابات في الأنا. ومن الضروري إعادة العربة إلى مكانها الصحيح بعد أن وضعها المحللون النفسانيون أمام الحصان. فالأمر يختلف اختلافاً عظيماً إذا ما قارنا المشكلة باعتبارها سبباً أو أثراً. ويبرر لنا طابع التحليل النفسي إجراء مقارنة نستمدّها من الكيمياء: إن النتيجة ليست ذاتها عندما نصبّ الماء على حمض الكبريت وعندما نصبّ حمض الكبريت على الماء.

يقوم تأكيد المحللين النفسانيين أن لكلّ عصاب سببيته الجنسية على خداع بصري. وهذا ليس مجرد رأي، وإنما هو واقع. ومن الممكن دون شك إثبات أن فرويد لا يفرّق، حين يتحدث عن الجنس، بين مكوّنات ثلاثة: الدافع الجنسي، وحافز الانتزاع، والرغبة العاطفية. وهذا ما أثبتناه في هذا الكتاب. إن ضروب الكفّ، والقلق، وأعراض العصاب لا تنجم عن أية صعوبة في إشباع الحاجات الجنسية الصرف والبسيطة، وإنما عن الإخفاق في تحقيق إشباع متزامن لدافع التسلّط ومطلب الحب وعن الإخفاق في

جعل الموضوع الجنسي موضوعاً للحب أو الشخص المحبوب موضوعاً جنسياً. وليس ثمة عصاب في المستويات الحضارية الدنيا. فهو ابن الحضارة التي تقدّمت ثقافياً، لكنها لم تتقدم بما فيه الكفاية. والعصاب الناجم عن الحافز الجنسي غير المحقق وحده هو أمر لا يمكن تخيّله. فهو ينجم دوماً عن إخفاق الجهد الفردي المبذول لجعل الجنس والحب وشهوة السلطة في انسجام.

إن الأنا، وقد تحدّته الحوافز الغريزية من جهة والمتطلبات الثقافية من جهة أخرى، يفرّ، وقد أُضْعِفَ كثيراً، إلى ملجأ العصاب. وخلف المصاعب الجنسية، التي يمكن إزالتها بيسر، إنْ كانت ناجمة عن الدافع الجنسي وحده، تكمن إشكاليات جدّية وخطيرة: إشباع كل من الرغبة الجنسية والجوع الملحاح للعاطفة، فضلاً عن رغبة المرء في أن يكون محبوباً ومميّزاً. لكن الجنس، عند مستوى ثقافي معين، لا يمكن إشباعه إن لم تُشْبَع أيضاً متطلبات الأنا، وخاصة متطلبات الحب. ويعتقد معظم تلاميذ فرويد أن الخوف من الجنس، والشعور بالإثم الناجم عنه، والخوف من الخصاء castration هي العوائق التي تحول دون الحياة الجنسية المشبعة. ولكنهم مخطئون على نحو يثير الأسى. ففي المستوى الثقافي لأولئك الذين يخضعون وحدهم للعصاب، لا يمكن أن يكون هنالك حياة جنسية مشبعة إنْ لم تُشْبِع متطلبات العاطفة أيضاً، وإنْ لم تكن حياة حبّية مشبعة في الوقت ذاته.

وإليكم حالة، واحدة من بين آلاف الحالات، تُظْهِر أية عواقب تنجم عندما نؤسس تحليل العصاب على السببية الجنسية المغلوطة: عانت امرأة شابة، مطلّقة، أعراض قلق شديد. وحاول محللها النفساني أن يخلّصها من شعورها بالإثم المتعلّق بالجنس، آملاً أن يزول قلقها بإقامة علاقات جنسية مع رجال آخرين. وأخفقت المحاولة، ثم أعيدت، لكنها فشلت من جديد. ولم يَزُل قلقها بمضاجعة رجال مختلفين. فالحب وحده يمكنه اجتراح هذه المعجزة، لكن المحلل لم يتعامل إلا مع «وقائع الحياة» كما يراها هو؛ وتتوافق هذه الوقائع، بالنسبة له، مع وقائع الحياة الجنسية. وهكذا استمر قلق المرأة، بل وتفاقم، كما هو متوقع لهذه العلاقات الجنسية غير الشرعية حين تقيمها أية امرأة حسنة التربية مع رجال ليس لديها تجاههم أي اهتمام. ولم تتمّ الإشارة في تحليها قط لكلمة أو فكرة الحنان. كانت الفكرة الوحيدة هي الجنس والشعور بالإثم المرتبط

بالنشاطات الجنسية. ولاشك أن فرويد، الذي أعتبرُ وجهات نظره في الجنس مغلوطة، لم يصل به الأمر أبداً إلى حدّ التفكير بأن الجنس، بهذا المعنى الضيق للكلمة، يمكن أن يكون دواءً للعصاب. ولقد انساق خطأ جيل بأكمله إلى ردّ مصدر كل المشاكل النفسية إلى الحياة الجنسية، وكأن العلاقات بين الكائنات البشرية مقصورة على عامل بسيط من الإرضاء الجنسي. بيد أن الجنس لا يتظاهر إلا بوصفه الوجه الخارجي لإشكالات أعمق جذراً لدى الفرد، لمصاعب التملّك، والانتزاع، والحسد، والعداء.

لا يدلّ العصاب على إخفاق في الحياة الجنسية، بل في الحياة الحبيّة. ومع أن للتحليل النفسي جدارة حقيقية في إزالة الكثير من حالات الكفّ والكبت الجنسية، إلا أنه أخفق في معالجة مشكلة العاطفة. فحتى بعد التحليل، بقي كثير من الرجال والنساء عاجزين عن الحب، وعن بذل الحنان وتلقيه. إن كثيراً من المرضى الذين أتوا إلى المحللين النفسانيين بمشكلات انفعالية متصلة غالباً بحياتهم الجنسية، تخلّصوا من حالات الكفّ وبلغوا مواقف سوية حيال الجنس. لكن كثيراً منهم لم يبلغوا سوى الإطلاق الجنسي الميكانيكي المحض في علاقاتهم الجنسية المتعددة. ولعلهم كانوا يخشون الهلاك، قبل خضوعهم للتحليل النفساني. ولكن بعد إزالة الكفّ الجنسي، تبيّن أن قلّة قليلة منهم فقط كانت تخشى حقاً أن يصل الأمر بها إلى هذا الحد.

في إحدى مقالات فرويد ثمة مقطع بارز يقول إن مجموعة من العصابيين لا تُتمّ العلاج. وإنهم يفضلون، كما يقول فرويد، «الشفاء بالحب». وذلك يعني أنهم وقعوا في حب أحد ما ولم يعودوا بحاجة للعلاج التحليلي. ولكن ألم يقل لنا إن العصاب لا ينجم إلا عن الإخفاق في الحياة الجنسية؟ فإذا كان هذا القول صحيحاً، فإن عملية الشفاء لا يمكن أن تكتمل إلا حين يتمكن المريض من تأدية وظيفته الجنسية بصورة سليمة. فكيف يكون الوقوع في الحب علاجاً، وبديلاً للمعالجة التحليلية النفسية؟ وهل يتوافق هذا الدواء مع القول، الذي تكرر مرة بعد مرة، إن الجنس والجنس وحده هو الإشكالية في العصاب؟ لقد تمكّن الساحر العظيم فرويد، عند مناقشة المنشأ الجنسي للعصاب، من جعل مشكلة الحب تختفي عن الأنظار. وبينما هو يوضح أن القبعة السوداء العالية ليست سوى رمز قضيبي phallic symbol، سحب منها فجأة فكرة الحب.

يتحدث المحللون النفسانيون عن الجنسية - النفسية psycho - sexuality (التي

ليس فيها من المعنى إلا بقدر ما في الاطراح النفسي)، وعن الحب باعتباره جنساً كُفَّ عن الوصول إلى هدفه (والذي هو هراء محض وساذج)، وعن التصعيد (الذي يعجز عنه الدافع الجنسي)، وهلمجرا. ويزعمون أنّهم حين يتحدثون عن الجنس لا يقصدون الحافز الجنسي الخام وحده. ولكن لماذا لا نكون صريحين؟ إنهم يقصدون الدافع الجنسي، وليس أي شيء آخر. ونحن كمراقبين نتصرف مثل ذلك الطفل الصريح الذي أكد أنَّ الامبراطور كان عارياً في الحقيقة(*).

لقد اتّخذت الهوة التي قسمت العالم هيئة الأعضاء التناسلية الأنثوية، ليس بالنسبة لفرويد، وإنما بالنسبة لكثير من تلاميذه، أما الصوى(**) على طريق الشفاء فلها شكل القضيب. إنهم مثل صبيان المدارس المفرطين في نموهم، لا يرون في العلاقة بين الجنسين سوى الحافز الجنسي الخام. فليعلموا إذاً أن هنالك مشكلات أخرى؛ وأنهم لن يتمكنوا من الإشاحة عنها بوجوههم إلى الأبد. إنهم مثل الأطفال حين يرسمون صورة جانبية لشخص، فتراهم يضعون كلتا عينيه في جانب واحد من جهة.

ومن الضروري هنا إبداء بضعة ملاحظات تتعلق بمداواة العصاب. وثمة مثل لاتيني قديم يؤكد أن "Similia similibus curantur". فالمرض يداوى بتلك الوسائل الأكثر ملائمة لطبيعة الشكاية. والمحلل النفساني يتوقع الشفاء لمريضه كنتيجة لانقشاع الكبت الذي يحول دون التدفق الحر لرغباته الجنسية. ويجادل هذا المحلل: ما دام العصاب ناجماً عن الافتقار للإشباع الجنسي، فإن الهدف لابد أن يكون إزالة كل العوائق وضروب الكفّ التي تحول دونه، وضمان إمكان الإرضاء الجنسي الكامل. تلك هي الخطة الوحيدة، كما يعتقد كثير من المحللين.

ولكن كيف نبلغ هذا الهدف؟ يقولون: إن الطريقة الملائمة هي إحياء reliving تاريخ المريض؛ سدّ ما في ذكرياته من ثغرات خضعت للقمع والكبت؛ إعطاء حرية الكلام والتفكير لكل نزوات ونزوعات العدوان، والغيرة، والدناءة؛ إنقاص متطلبات الأنا الأعلى super - ego بالغ القسوة (والذي ندعوه مثال الأنا)؛ وتقوية الأنا الواهن، الجبان. ولكن ألا يكافئ هذا الإجراء إزالة الحواجز التي تمنع المريض من أن يحب؟ ألا

* – إشارة إلى قصة «ثياب الإمبراطور الجديدة» لهانز كريستيان أندرسن .

** – جمع صوة ، وهي المَعْلَم على الطريق .

تعني هذه التسوية مع نزوتيّ العدوان والتملك الشديدتين أن تحمّل المريض لها وإضعاف شعوره بالإثم سيجعلانه أكثر قدرة على الشعور بالعاطفة والحنان؟ وأكرر، ما الذي ستقدمه تقوية الأنا للإشباع الجنسي حين لا تفعل سوى تهدئة الدافع الجنسي الخام؟ إنها لن تنفع أبداً. ألم نَقُل إن التطور الانفعالي للحب يعيقه ضعف الثقة بالنفس، والنفور من الذات، ومشاعر الإثم والإحساس بانعدام الشأن[1]؟ والاستنتاج واضح تماماً: ليست المصاعب الجنسية سوى تعبيرات واضحة عن مصاعب أخرى، عن شرٍّ خفي. إن كون بعض الرجال والنساء عنينين وباردات، وكونهم منحرفين جنسياً، ولا يستطيعون أداء وظائفهم الجنسية، هي مجرد تظاهرات لإخفاقهم وإخفاقهن في محاولة توحيد الجنس، وشهوة السلطة، والعاطفة. والحاحهم على حاجاتهم الجنسية لا يعني سوى أنهم لا يدركون تلك النواقص الأخرى، وأن صراعهم الانفعالي، أو كفاحهم العاطفي، بقي غير واع.

ولقد ثبت أن لتقصّي مشكلة الجنس الفردي قيمته في المداواة التحليلية النفسية، ذلك أنَّ هذه المشكلة تلامس المشكلة الأكثر عمقاً وأهمية وتحرّض النزوعات اللاواعية. فالصراع بين التملّك، والجشع، والعداء والحاجة إلى الحب ينعكس، على أوضح وجه، في العلاقة بين الجنسين، لأن الاخفاق في دمجها لا يُرى في أي مكان آخر أكثر مما في هذه الاضطرابات الجنسية. ولكن ذلك لا يتطابق مع السبب الحقيقي للعصاب إلا بقدر ما يتطابق الظل مع الجسم.

إن المداواة التحليلية لا تنجح بحلها الإشكالات الجنسية للمريض، وإنما بتعزيزها ثقته بنفسه بحيث يكتسب أو يستعيد قدرته على الحب وعلى تحقيق مطامحه. وسأحاول أن أبيّن، مستخدماً التشبيه، الطريقة غير المباشرة التي يقطف بها التحليل النفسي ثمراته العلاجية (وهذه مناهج عمل التحليل النفسي الجديد على تحسينها): في الحرب الرهيبة التي نعيشها الآن، تلقّى عدد من الطيارين أمراً بقصف مستودع للذخيرة أو مصنع للبارود في x. لكن الطقس السيء لم يتح لهم رؤية جيدة، فلم يصيبوا المصنع. ومع ذلك، انفجر المصنع بعد بضعة دقائق. فكيف أمكن ذلك؟ لقد

---

١ – انظر كتابي ، نظرات سيكولوجي في الحب ، ١٩٤٤ .

أصابت القنابل مباني أخرى في الجوار. وبلغت ألسنة اللهب أطراف المصنع، وكانت النتيجة أنه انفجر في النهاية. وبالمثل، فإن أثر التقنية التحليلية النفسية في حل المشكلات الجنسية هو أثر غير مباشر. فالرصاصة لا تصيب الدريئة، اللبّ اللاواعي للعصاب، وإنما تصيب مكاناً في الجوار. إنها لا تصيب الهدف، بل تستقر بقربه. وبالتالي، فإنها تؤثر، بصورة لا يمكن تفاديها، على كل الجملة الانفعالية emotional system. فهي تنزلق من المحيط الملموس إلى المركز النفسي السري. إن الحب، وليس الجنس، هو المشكلة في العصاب.

نحن نقيس الصحة النفسية لشخص ما تبعاً للمعايير التالية: إلى أي حد هو قادر على الحب والعمل، على بذل الحنان وإنجاز ما يرغب في فعله؟ ولكلتا المهمتين، الاجتماعيتين من حيث طبيعتهما، إنجاز يعد قاسماً مشتركاً لهما، فالحب أيضاً هو إنجاز شخصي. والهدف هو تحقيق الذات الذي يتخطى نطاق الأنانية. وإن لم يكن هذا جديراً بالعناء، فما من شيء جدير إذاً.

وقائع الحياة وحكايات الجنيات

يُعَدُّ إطلاع الأطفال اليوم على وقائع الحياة ضرورةً تربوية. ومنافع هذا الحل لكثير من مصاعب الأطفال الانفعالية هي أوضح بكثير من أن نطريها. ويمكن إبراز فضائل هذا النهج الجديد بمقارنته مع النفاق القديم، والأكاذيب، وغموض الأجيال السابقة. ومع ذلك فإن هنالك بعض النواقص في النظام الجديد[١]. وسوف أكتفي بالإشارة إلى إثنتين منها: الزمن الذي تُعطى فيه هذه المعلومات وعدم اكتمالها؛ فهي تُعطى متأخرة على الدوام، بعد أن يكون معظم الأطفال قد اطّلعوا على وقائع الحياة، وبنوا بأنفسهم بعض النظريات، خلائط متنافرة من العناصر الحقيقية والزائفة. ويبدو هكذا أن التنوير enlighte-ment ليس أول معرفة يتلقاها الطفل. في ڤيينا العشرينات كانت تعيش سيدة جاهلة نوعاً ما وأصبحت واحدة من الـ nouveaux riches(*)، وشاعت أقوالها الفكهة على الألسنة في المدينة التي يحب أبناؤها المزاح. ومرة بينما كانت هذه السيدة تشاهد من مقصورتها في المسرح أول عرض لمسرحية كتبها آرثر شنيتزلر، سُئلت في فترة الاستراحة كيف وجدت المسرحية، فقال: «المسرحية جميلة جداً، لكنها لا تناسب العرض الأول». وبهذا المعنى، فإن إطلاع الأم أطفالها على وقائع الحياة أمر حسن وجدير بالثناء، لكن تمثيلها لا يناسب العرض الأول. ولست أعرف كيف يمكن للوضع أن يصبح أفضل.

أما النقيصة الأخرى فهي أكثر جدية، كما يبدو لي. إن الأمَ والمدرِّسة لا تطلعان الأطفال على كل وقائع الحياة. إنهما لا تطلعانهم على ما يجعل الرجل وزوجته يتحدان بجسديهما ونفسيهما. وهما تقدمان معطيات تشريحية أو بيولوجية، لكن وقائع الحب

---

١ – لست متحمساً لقصص العصافير والنحل ولاشك أن منظر الأهل الباردين ، الحياديين أو المرتبكين وهم يحكون عن وقائع الحياة يربك الأطفال .

* – محدثو النعمة ، بالفرنسية في النص الأصلي .

ليست فيزيائية وحسب وإنما سيكولوجية أيضاً. وهكذا لا يقال للطفل ما الذي يعنيه الجنس وما هو الحب. وأنا أفهم جيداً ذاك الصبي الصغير الذي علّق بعد إطلاعه على وقائع الحياة من قبل صبي آخر: «ربما يفعل أبوك وأمك مثل هذه الوساخات، لكن أبي وأمي لا يفعلانها أبداً». فهل تشكّل المعلومات البيولوجية عن الجنس وحدها إعداداً كافياً للصبيان والبنات؟ ألا يتوجب أيضاً تثقيف المراهقين بشأن الفروق السيكولوجية بين الجنسين؟ وهل يجب أن يظلوا جاهلين بالقوى الانفعالية في الدوافع الأخرى التي تصوغ حياتهم؟ ليس ثمة مكان لتعليم هذه الأشياء في مدرستنا. فحصة البيولوجيا لا تتضمنها، كما أن حصة السيكولوجيا تستثنيها.

ولكن لنترك للمدرّسين الاهتمام بهذه الإشكاليات (التي لست كفؤاً لمناقشتها)، ولنعد إلى الإشكاليات التي يواجهها البالغون. لقد علّمنا الأطباء والسيكولوجيون وقائع الحياة، كما اطّلعنا عليها عن طريق الكتب، والمحاضرات، والندوات. وأصبح العلم بالنسبة لنا المعلم الذي نكون في حضرته كما الأطفال؛ نصغي بانتباه، والرهبة تملؤنا مما يقوله لنا. وفي قسم السيكولوجيا سمعنا الكثير عن اللبيدو، وعقدة أوديب، ومكوّنات الجنسية. وهنا قيلت أشياء كثيرة تتخطى الحقيقة وأشياء حقيقية كثيرة لم تُقَلْ. وأجزم أن كثيراً من النظريات التي تعلمناها على هذا النحو ليست وقائع، وإنما هي خرافات خطيرة، الأمر الذي ينجم عن الإيمان الحرفي بها وأخذها كما لو كانت حقائق علمية. الحب باعتباره جنساً مكفوف الهدف، الطابع الافتراسي الذي يَسِمُ الجنسية الطفلية، شهوة الطفل الجنسية في المصّ، تطابق منشأ الحنان والشهوة؛ هذه كلها ليست سوى حكايات جنّيات أما النظريات الأخرى فهي خلائط من حكايات الجنّيات والعلم، أو مبالغات مفرطة في الوقائع الصحيحة. خذوا، مثلاً، عملية التصعيد الحقيقية، والتي تمكّننا من تحويل دوافع الأنا الموجَّهة إلى إشباع حاجاتنا الأشد حيوية، وجعلها في خدمة مقاصد أخرى أكثر سمواً، في حين يلفّق التحليل النفسي حكاية جنّيات محض حين يعلّم أن الجنس يمكن أن يتصعّد. كما أن حالة أوديبية حقيقية توجد في حياة الطفل، لكن التحليل النفسي يردّ كل تطور الحضارة إلى هذا المصدر. وهذا التفسير محض مبالغة مفرطة شأن تلك التي نجدها لدى سويفت في مغامرات جاليفر مع العمالقة(*). صحيح أن البالغين يبدون للأطفال على

* - «رحلات جاليفر»، أربع رحلات خيالية، هجائية وساخرة، كتبها جوناثان سويفت.

أنهم عمالقة، ولكن ليس هنالك أبداً مثل تلك الهولات monsters التي وصفها جاليڤر (هل تذكرون أن قساً ايرلندياً كان معاصراً لسويفت شجب كتاب الأخير لأنه مليء بالأكاذيب غير المعقولة التي، من طرفه، «لا يكاد يصدّق كلمة منها»؟) إن في الكتب ومقالات المحللين النفسانيين مئات من القصص، ولكنّ أقلّها هو المحكي بذلك النثر المُلهَم كما في قصص فرويد، الذي كان قاصاً بالفطرة فضلاً عن كونه عبقرياً في العلم. فهو وحده، بطريقته المقنعة، استطاع أن يُقنع معظمنا بأن الجنس، الدافع الجنسي الخالص، هو القوة المفردة الأعظم التي تؤثر في النفس البشرية. وما من أحد غيره جعلنا ننسى أو نتخطّى حقيقة أن الحب والجنس مختلفان تماماً؛ وما من أحد غيره استطاع أن يعمينا عن الدور المهيمن الذي تلعبه دوافع الأنا وما يتحدّر منها في النفس البشرية. وما من عبقرية حقيقية دون خطيئة فادحة. وخطيئة فرويد تدعى نظرية الليبيدو. وكنتيجة لهذه الخطيئة الفاحشة اكتشف فرويد قارّة سيكولوجية جديدة، مثل كولمبس تماماً، الذي اكتشف أميركا، بينما هو يسعى وراء الهند. ونحن جميعاً كنا في موقع من رافقوا كولمبس في رحلته، والذين أخبروا الإنسان عن عجائب العالم الجديد الذي اكتشفه، هذا العالم الذي ظلّ كولمبس معتقداً أنه الهند، حتى يوم مماته. لقد عرف عالماً جديداً، لكنه لم يتحقق من هويته. أما التأكيدات الصاخبة التي يطلقها المحللون النفسانيون فيمكن مقارنتها بالحكايات عن الطريق البحري الجديد إلى الهند والتي راح يحكيها بحارة كولمبس العائدون.

ليس لدينا اعتراض على حكايات الجنيات إذا ما تمّ تقديمها على ما هي عليه حقاً. وثمة كثير من الحقائق السيكولوجية في كثير من هذه الحكايات، بل في معظمها، ولكنها ليست من نوع الحقائق التي يدّعي المحللون النفسانيون اكتشافها. إن حكاية القبلة التي أيقظت الجمال النائم(*) تمثّل بصورة جميلة الطريقة التي يقع فيها الحب على الفتاة بعد أن قبّلها الرجل المناسب للمرة الأولى. ولا حاجة بنا لأن نعتبر الشفاه أعضاء تناسلية منزاحة كي نصدّق معجزة العاطفة العذرية المنبثقة. كما أن السياج الشائك الذي يحيط بها قد يرمز إلى تحفظها ومقاومتها العذريين، ولا حاجة بنا للتفكير بغشاء البكارة. ولا شك أن من الممكن إثبات الرمزية الجنسية. لكن المسألة هي فقط ما إذا كانت هذه الرمزية مناسبة ومنطقية في هذه الحالة والحالات المشابهة.

* – إشارة إلى قصة الأطفال الشهيرة «الفتنة النائمة» أو «الأميرة النائمة».

لاشك أيضاً أن حكاية سندريلا تحتوي على رمزية جنسية، كما في ملاءمة الحذاء لقدم سندريلا، لكن الشيء المهم الوحيد في الحكاية، كما فهمتها، هو أن السرد يصوّر القسمة الإنسانية المتعلقة بالشرعية النموذجية Typical Validity. والأحداث في مثل هذه الحكاية هي بالنسبة للسيكولوجي مرايا تنعكس فيها السيرورات النفسية للشخصيات. أليست سندريلا هي النموذج الأمثل للفتاة التي تقطف النصر عبر الهزيمة، والتي تدع لأخواتها أن يطأنها متوقعةً أن تنتصر عليهن في النهاية، والتي تتحمل كل الإذلالات لأنها تعرف أن يوماً سيأتي تذلّ فيه مضطهديها ؟ يبدو لي أن الاهتمام بهذه النقطة هو أكثر قيمة بكثير من التركيز على الرمزية الجنسية في ملاءمة الحذاء لقدم سندريلا، وهي، بالطبع، رمزية لا ننكر شرعيتها. ولا يمكن أن يكون هنالك شك في أن الرمزية الجنسية تتحكم بميدان واسع من الأفكار غير الواعية، لكن الـ furor symbolicus(*) لدى كثير من المحللين النفسانين هو أمر يدعو إلى الأسف مثل أية خطيئة تعصبية أخرى. إن تصوّر الطائرة باعتبارها رمزاً قضيبياً في المقام الأول وأنها خلف هذا النطاق يمكن أن تُستخدم كآلة للطيران هو تصور فاسد. ومن يقرأ كثيراً من الكتب والمقالات التحليلية يتلقّى انطباعاً بأن مؤلفيها تعلموا تطبيق التفسير الرمزي بإفراط ولكن من غير حكمة.

ولاشك أن هنالك مادة جنسية لا واعية غزيرة في حكايات الجنيات، ولكن ليس هنالك كثير من الجنسية الخام فيها. وهي، في الواقع، عادة ما تخلط الجنس مع الحب، كما يجب أن نتوقع من حكايات جنيات ومن سواها. لكنني أعرف حكاية واحدة، على الأقل، ينفصل فيها الجنس عن العاطفة بصورة بالغة الوضوح. وهي استثناء، فضلاً عن كونها حكاية للبالغين. وسوف أحكيها لكم لأنها تتعلق بالفكرة الأساسية لهذا الكتاب. وقد كتب هذه الحكاية بيتر ألتنبرغ، الكاتب البوهيمي، الذي عاش في ڤيينا عند مطلع هذا القرن(**). وسوف أوجزها مركّزاً على محتواها الأساسي:

كان هنالك ملك وملكة سعيدان في حياتهما الزوجية، ولكنهما انتظرا طويلاً قبل أن ينعما بولادة طفل. وعندما ولد هذا الطفل، أقام الملكان السعيدان احتفالاً عظيماً

---

* - التعصب للرمزية .

** - يعني القرن العشرين .

دعيا إليه كل جنيات المملكة. لكن مصادفة سيئة حالت دون دعوة الجنية الصغرى (أم أنها تلقّت الدعوة متأخرة؟). كل واحدة من الجنيات ظهرت في القصر الملكي وانحنت فوق مهد الطفل كي تنعم عليه بهبة، تكون بمثابة أمنية للمستقبل. واحدة تمنّت أن يصبح قوياً، وأخرى أن يصبح ذكياً، وثالثة أن يصبح وسيماً، وهلمجرا. وأخيراً، ظهرت الجنية الصغرى أيضاً، من تلقاء نفسها. وانحنت فوق مهد الصغير وقالت: «أمنيتي لك أن لا تكون قادراً على معانقة امرأة إلا حين تحبها». واختفت في الحال. شبّ الأمير قوياً، ذكياً، ووسيماً كما تمنّت كل الجنيات. وذات يوم جاء إلى الجنية الصغرى بطلب غريب: «آه، يا عزيزتي الجنية، ارفعي عني ليوم واحدة، لمرة واحدة، هِبَتك المشؤومة التي وهبتي إياها عند مولدي. في كل يوم أرى راعية من نافذة قصري. إنها ترتدي الأسمال البالية، وليست جميلة حتى. بل أعتقد أنها شرهة وغبية، لكنني مجنون بها، وأريدها. فقط هذه المرة....». كان الجنية متأكدة، وهي المثالية العظيمة، أن التجربة سوف توقظ الشاب وتخيّب أمله، فاستجابت لطلبه. وفي صباح اليوم التالي سُمع في قصر الأمير ما يشبه قصف الرعد، وانشقّ سقف حجرته وظهرت الجنية. خطت نحو سريره وسألته: «والآن، يا أميري؟» فتح الشاب عينيه اللتين يغالبهما النعاس وقال بابتسامة ودودة: «ليس الأمر سيئاً، ليس سيئاً أبداً».

هذه حكاية جنيات حديثة، وسوف أكون راضياً لو أنها أفادت في تذكير القارئ بالطابع المختلف لكل من الجنس والحب. إنها دواء موثوق، دون غلاف سكري، ولعلها تنفع في أن تذكّرنا بأن هنالك كثيراً من المتعة في هذا العالم دون أثر للحب.

إن في حكايات الجنيات كثيراً من الكنوز الدفينة تتعدّى سر الجنس. وما تخفيه وتكشفه في آن واحد معظم هذه الكنوز ليس واحدة من وقائع الحياة وحسب، بل من حقائقها أيضاً.

القسم الثاني

الحب ودوافع الأنا

مفهوم جديد للحب

كما هو الحال في العلوم الأخرى فإن المكتشفات موجودة أيضاً في السيكولوجيا، وهي بمثابة لُقىً سعيدة فضلاً عن كونها نتاجاً للعمل الشاق، الدؤوب والمديد؛ ذلك أن السيكولوجيين يقومون بحملات جسورة إلى بلدان مجهولة، وبغزوات لآخر قارّة غامضة على هذه الأرض، النفس البشرية. بيد أن هذه اللُقى، مهما تكن، تختلف عن الكشوف الجديدة في حقول العلم الأخرى، كالكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا. وعلى سبيل المثال، فإن كل ما اكتشفه السيكولوجيون العظماء، مثل شوبنهور، ونيتشه، وكيركيجارد، وفرويد، في أعماق الحياة النفسية كان مُكْتَشفاً من قبل، ولكن ليس من الناحية السيكولوجية. وكان يعيش بين ظهرانينا غُفْلاً، غير مميَّز أو مُسَاءً فهمه. لم يكن غائباً. وإنما كان محتجباً وحسب. كان يعيش حياته السرية في الأقوال المأثورة، وفي أعمال الشعراء الإبداعية، وفي مؤلفات الفلاسفة العظماء ورجال الدين، وفي ما يتلفّظ به كثير من البشر الذين هم سيكولوجيون دون أن يعلموا. وكثيراً ما صدر هؤلاء جميعاً عن نفاذ بصيرة حيال ظاهرة لا يدركون كنهها بصورة واعية، فتلفظوا بأقوال مذهلة دون أن يدركوا قيمتها وأثرها السيكولوجيين، تماماً مثل الهمج البدائيين حين ينثرون حولهم، بلا اكتراث، الذهب والمجوهرات دون معرفة بقيمتها.

وبهذا المعنى، فإن التفحّص الدقيق لأي اكتشاف سيكولوجي يبيّن أنه في الحقيقة ضرب من إعادة الاكتشاف. والتبصّر الذي سبق أن ظهر لأحد ما في لحظة إلهام خاطفة نلتقيه ثانية، حيث يكتشفه السيكولوجي على نحو مستقل، واضعاً إياه بلغة علمه، ومتفحّصاً إياه بمناهج هذا العلم وبروح البحث.

إن اكتشافي البسيط الذي قمت به منذ سبعة عشر عاماً، والمتعلق بطبيعة الحب ومنشئه السيكولوجيين، له مثل هذا الطابع. فهذه المعرفة كانت معروفة من قبل لكنّها

فُقدت؛ ولابد من إعادة اكتشافها. ولعل في إعادة الاكتشاف هذه من الجدارة مثلما في إيجـاد دولار فـضيّ على درب سلكه الآلاف قـبلك دون أن يروه. ولعل شـعـاعـاً من الشـمس السـاطعـة وقع على القطعـة النقـدية في اللحظة ذاتهـا التي مـررتَ بهـا، فانعكست الصورة على شبكية عينيك.

حـاولت أن أعـرض هذا الاكـتـشـاف عرضـاً ضـافـيـاً في كـتـاب نشـرته منذ عـهـد قريب[١]. وفي هذا الفصل، حيث لا نعـالج سوى الحب بين الجنسين، وما يدعى بالغرام romance، يكفي أن نتعـرّف على الخطوط العريضة لهذه النظرية. وبما أنني لا أريد أن أكرر نفسي، سوف أختـار مقاربة جديدة وشكلاً مختلفاً للعرض. وسوف يتيح لي هذا الموجز المكثّف صياغة نظريتي على نحو أدق وتصويب بعض الأجزاء من عرضي السابق لها.

في موضوعـات واسعـة المنظور مثل موضـوع البحث السيكولوجي في الحب، من المفيد أن تنسى كل ما تعرفه، أو ما تعتقد أنك تعرفه، وأن تلقي جانباً بما قرأته أو سمعته، وتقـارب المشكلة ببساطة كمـا لو أنها المرة الأولى. ولقد سبق للإمبراطورة أوجيني، زوجة نابليون الثـالث، أن رأت من نوافذ قصرها مظاهرة للجماهير الجائعة. ولم تفهمْ مطالب الشعب. ومـا كـان من وصيفتهـا إلا أن قـالت: «لكن الشـعب، يا صاحبة الجلالة، يريد أن يأكل». فردّت الامبراطورة: "Je n'en vois pas la nécessité"(*). إنه لتعليق يدعو إلى السخرية. وها نحن نقول، ليس بمثل هذه الروح، بل ببساطة، إننا لا نرى ضرورة للحب. فمـا هي الضرورة لأن أشعر بالغرام أو العـاطفة تجاه شخص من الجنس الآخر؟ ما معنى هذا التوق الشديد؟ هل هو حيوي، وضروري كما الهواء، وكما إشباع الجوع أو العطش؟ ألا يمكن للمرء أن يصرف العمر كله دون حب؟

قد تبدو هذه الأسئلة ساذجة، لكن إجاباتها تفضي إلى لبّ المشكلة بأشدّ الطرق استقامة. والجواب لا شك فيه: ليس الحب ضرورياً ضرورة إشباع حاجتي الجوع والعطش الحيويتين. ليس الحب ضرورياً ضرورة الجنس. قد ينكر الرومانسيون والشباب ذلك، لكن الوقائع عنيدة جداً. ومما لا يمكن نكرانه أن الغرام خبرة يجهلها الكثير من البشر

---

١ – نظرات سيكولوجي في الحب، نيويورك، ١٩٤٤.

* – بالفرنسية في النص الأصلي، لا أرى ضرورة لذلك.

والأعراق؛ فأسلافنا القدماء لم يعرفوا الحب بالمعنى الذي نعطيه نحن للكلمة. وإذا ما كانت ملايين كثيرة من البشر عبر مئات عديدة من آلاف السنين من التطور البشري قد استطاعت العيش من دون حب، فكيف يمكن لأيٍّ كان أن يؤكد أنه حيوي؟

من الواضح أن الحب لا يولد مع الإنسان وأن هذا الأخير يشعر بالحاجة إلى الحب ويكتسب القدرة عليه لاحقاً. وهذا يسوقنا إلى استنتاج أن الحب لا يكون ممكناً إلا بعد بلوغ طور معين من التطور وأنه نتاج للحضارة، بل سأستدرك سريعاً وأقول إنه نتاج نوع معين من الحضارة. ويؤكد بعض الدارسين الحصيفين للشرق الأدنى أن الحب، كما نفهمه، ليس معروفاً لدى كثير من الثقافات الشرقية. (ولعل من المفيد التذكير هنا أنه ينبغي عدم الخلط بين الرغبة الجنسية الجامحة والغرام).

والسؤال الذي يقتضي جواباً هو: لماذا أضحى الحب ضرورياً؟ ما هو الحب، وما الذي آتى به إلى الحياة؟ ما معناه وما بغيته؟ ليس لدي نظرة ناعمة وأنيقة لأقدّمها. ولكنني أعِدُ بتقصي هذا الموضوع بروح البحث العلمي وباعتباره خبرة انفعالية قد تكشف للسيكولوجيا عن طابعها ومنشئها. فحتى ظاهرة مراوغة، وفانتازية في بعض الأحيان ، مثل الحب، يمكن النظر إليها بطريقة واقعية ورصينة.

لابد في البدء من إيضاح بعض النقاط تفادياً للخلط والتشويش. كنّا قد أشرنا من قبل إلى أن الفروق بين الحب والجنسُ كثيراً ما تمّ تجاهلها بحيث ظهرا في أغلب الحالات كما لو أنهما الشيء ذاته. أما أنا فأؤكد أنهما متباينان في طابعهما ومنشئهما، وأودّ أن أثبت ذلك. لقد تعامل التحليل النفسي مع كلتا الظاهرتين باعتبارهما ظاهرة واحدة، ولا يزال. ولم يحصل أي تقدم في ما يتعلّق بتحليل الحب منذ أن أعلن فرويد أنه ليس سوى جنس مكفوف الهدف. وحين يأخذ المرء في حسبانه أن عمر هذا المفهوم يقارب الأربعين عاماً فإنه سيقرّ أن ميدان البحث التحليلي النفسي هو ضرب بطيء من البلاد(*). ويمكن للمحللين النفسانيين أن يقولوا كما قالت الملكة لأليس: «والآن، ها أنت ترين، إن الأمر يتطلب منك الركض بكل ما أوتيتِ من قوة كي تبقي في مكانك».

* – إشارة إلى حكاية الأطفال الشهيرة «أليس في بلاد العجائب» .

وهنالك سبب آخر لسوء الفهم الذي لا يقتصر على المحللين النفسانيين، وإنما يتقاسمه معهم غيرهم: إنه الخلط بين أن يكون المرء محبّاً وأن يكون محبوباً. وقد يبدو هذا الخلط مدهشاً لأن كلتا الخبرتين تبدوان جدّ مختلفتين، بيد أنه غالباً ما يحصل رغم ذلك. وكل واحد منا، أنتم وأنا، ينزع لأن يخلط بين حالتي الكينونة هاتين، ويعتقد أنه محبّ بينما هو في الحقيقة يبتغي أن يكون محبوباً أو يحسب أنه مفعم بالعاطفة لأن قسطاً وافراً منها يُبْذَل تجاهه. وكي أوضح ما أعنيه، سوف أقصّ عليكم قصة صغيرة أوردها بينيت سيرف في ***مجلة السبت الأدبية***[٢]: في ملجأ للأيتام كانت هنالك بنت صغيرة منفّرة إلى أبعد حد، وذات عادات سيئة وسلوك مستهجن عزلها عن أترابها. وكان الأطفال يجتنبونها ويكرهها المدرّسون. أما القيّمة على الملجأ فكانت تنتظر، بلهفة، مبرراً منطقياً كي تصرفها إلى مدرسة إصلاحية أو تطردها بطريقة أو بأخرى.

بعد ظهر أحد الأيام بدا كما لو أن فرصة القيّمة قد حانت. ذلك أن فتاة أخرى كانت تشارك الأولى حجرتها كارهةً نقلت أن جارتها تجري مراسلة سرية مع أحد ما من خارج الملجأ. قالت الفتاة: «لقد رأيتها وهي تكتب الرسائل يومياً منذ أسبوع وإلى الآن. ومنذ برهة أخذتْ رسالة وأخفتها في شجرة قرب جدار القرميد».

لم تكد مديرة الملجأ ومساعدتها تستطيعان إخفاء سرورهما. واتفقتا: «سوف نعرف في الحال قرارة الأمر. أرينا أين تركتْ الرسالة».

وبالفعل، فقد وجدتا الرسالة بين أغصان الشجرة. وانقضّت المديرة عليها، وقرأتها، ومن ثمّ هزّت رأسها وناولتها بصمت إلى مساعدتها.

كان مكتوباً: «إلى كل من يجد هذه الورقة: أحبك».

هل تعبّر رسالة الفتاة الصغيرة في هذه القصة عن حاجتها لأن تحبّ أحداً ما، كائناً من يكون؟ لا بالتأكيد! ففي الملجأ مئات ممن تحبّهم. صحيح أن ما تقوله الرسالة هو «إلى كل من يجد هذه الورقة: أحبك»، ولكن معناها هو بالأحرى: «إلى كل من يجد هذه الورقة: أريد أن تحبني»، أو «أنا مستعدة لأن أحبك إذا ما بذلت نحوي قليلاً من

---

٢ - روى القصة في الأصل ماير ليڤين في Collier's Magazine .

العاطفة». أليس المحزن في القصة هو أن الطفلة لم تكن تشعر أنها محبوبة؟ ألم يكن الآخرون يجتنبونها وينفرون منها؟ وشعور المديرة بالخجل، ألا يُظْهِر بوضوح كاف سبب هذا الوضع؟ إن الطفلة الصغيرة تتوق للحب؛ تريد أن تكون محبوبة من أحد ما. وفي الواقع، إن رسالتها المحزنة تسأل: «أما من أحد في هذا العالم يريد أن يهتمّ بي؟»

ولكن ما دام كون المرء محبّاً يختلف عن كونه محبوباً، كما تبيّن الملاحظة السيكولوجية، فكيف أمكن الخلط بينهما؟ والجواب، بالطبع، هو أن هنالك صلة بينهما، أو علاقة متبادلة. فكل من يحب شخصاً ما يأمل، بصورة واعية أو لا واعية، أن يكون محبوباً من قبل هذا الشخص. وليس صحيحاً أبداً أن هذه الاستجابة re-sponse تشكّل شرطاً للعاطفة، وإنما هي المكافأة المتوقَعة التي يُكافأ بها المرء على شعوره هو. فأن يحب المرء ليس سوى شارع باتجاه وحيد. ولعل الحب لن يدوم طويلاً دون بصيص من هذا الأمل. وحين سأل ضابط بحري فتاته عند وداعها قبل أن يمضي في البحر: «أتنتظرينني، حتى لو لم أعد لسنين؟» ردّت الفتاة ردّاً رائعاً: «إنْ أردتَ أن أنتظرك». ذلك أن من المهم بالنسبة لها، وبالنسبة لكل منا، أن تكون مطلوبة. وليس ثمة شك في أن رغبة المرء في أن يكون محبوباً هي أقدم من حافز الحب لديه.

لقد صغت على نحو مؤقت الفكرة التي مفادها أن المغازلة أو التودد هي في الأصل عَرْض غير واعٍ للرغبة: «انظر، أود أن تحبني بهذه الطريقة». فنحن في إظهارنا الحنان والعاطفة نشير إلى ما ينبغي على الشخص الآخر أن يبذله تجاهنا. وبالتالي، فإن حبك للآخر ليس طريقة وحسب لكسب حب الآخر لك وإنما هو هدفك أيضاً. وباتّباعنا هذا الالتفاف نصل إلى الرغبة الأصلية. والانزياح shift من كون المرء محباً إلى أمنيته أن يكون محبوباً هو المقابل والمكسب. أن نفعل للآخرين ما نريد منهم فعله لنا هو شكل بدائي من العَرْض بالمقلوب presentation by reversal. ولا أستطيع أن أتمالك نفسي عن ملاحظة أن هذه الطريقة في إظهار الأشياء لا تصبح ضرورية إلا حين نفتقد العاطفة ونرغب فيها. وإذا ما كنت قد فسّرت التعابير غير الواعية على نحو صائب، فإن المعنى الأساسي يجد تعبيراً واضحاً في هذه الأغنية التي يغنيها الأطفال أثناء لعبهم:

أحبّ القهوة،

أحبّ الشاي،

أحبّ البنات

عندما يحببنني.

ولعل من المناسب، قبل أن نتابع، إبداء بعض الملاحظات حول الطابع العام لموضوعنا، خاصة وأن هذه الملاحظات تتعلّق بمجمل الإشكالية التي سنعالجها في الفصول اللاحقة. أي نوع من الإشكاليات هو الحب؟ الحب إشكالية قيمة؛ أي أن ظاهرة الحب يستحيل تفسيرها ما دامت الفروق في القيمة غير محسوسة أو مُدْرَكة. وأنا أشدد على الفروق في القيمة لأن من الممكن تماماً إدراك ما في خصال الأشخاص من فروق دون تقييمها. فالقبائل البدائية ونصف المتحضرة قادرة تماماً على فعل ذلك. ولكن مثل هذا التفريق ليس كافياً.

لا تصبح ولادة الحب ممكنة إلا حين تُضْفَى على شخص ما قيمة تفوق القيمة المضفاة على شخص آخر أو بالأحرى على كثير من الأشخاص. أما حين تعتبر شخصاً ما مساوياً لك، فكيف يمكنك أن تحبه أو تحبها؟ وما الذي يدفعك عندها إلى ذلك؟ وأين يكمن ما يحرّض على مثل هذا الشعور الغريب؟ وجوابي هو أن الحب لا يكون ممكناً إلا حين تعزو إلى شخص آخر قيمة أسمى من القيمة التي تعزوها إلى ذاتك، وحين تراه أو تراها، من نواحٍ محددة على الأقل، شخصية متفوقة عليك.

إنه لمن المدهش أن نجد ضرورياً التأكيد على أن إشكالية الحب لا يمكن تخيّلها دون هذا المعنى المميز للقيمة. ومع ذلك فإن هذا القول كان مستحيلاً ما دامت مقبولةً عموماً لدى الأطباء النفسانيين والسيكولوجيين وجهةُ النظر التحليلية النفسية التي تعتبر الحب شكلاً من الرغبة الجنسية التي تجرّدت عن الجنس. بيد أن الازدهار الزائف لهذه النظرية، والذي كان مشروطاً بتضخيم ونفخ مصطلح الجنس، تمّ تجاوزه الآن.

ليس مهماً ما إذا كانت القيم المضفاة على موضوع معين حقيقية أو متخيَّلة. ولعل دراسة الحب هي ضرب من البحث في الوهم، لكن القيم الوهمية لها واقعها النفسي. ولقد عانى ملايين البشر وماتوا من أجل هذه القيم الوهمية خلال آلاف السنين

من تطور الحضارة. والآن، بعد أن وضعتُ أساساً مفاده أن الحب لا يكون ممكناً إلا حين يتمّ تقويم الأفراد على نحو متباين، سوف أعود إلي فكرة أن الحب يظهر متأخراً نسبياً في تاريخ النوع البشري. فالقدرة على تقويم البشر والحاجة إلى هذا التقويم لا تتواجد إلا بعد بلوغ طور معين من تطور الحضارة وتطور الفرد.

الاستعداد الانفعالي

لقد سبق لقصة الغرام الفردي أن حُكِيَتْ وأُنْشِدَت مئات آلاف المرات، في مئات آلاف القصائد، والروايات، والمسرحيات. لكن السيكولوجيا لم تَحْكِها. وهكذا حدث أن العلم الوحيد الذي يُفْتَرض به أن يكون قادراً على وصف الظاهرة وتفسيرها أضحى عيياً وأخرس أمامها. ألا يمكن لنا أن نتناول هذه الظاهرة بلغة العلم؟ هل في الموضوع ما يمتنع على البحث؟ مهما تكن الأسباب، فإن القصة السيكولوجية للحب بقيت غير محكيّة.

ولقد أدرك الشعراء العظماء أن الحب إشكالية سيكولوجية. فباسانيو، حين كان عليه أن يختار بين الصناديق الثلاثة، يسمع هذه الأغنية:

قل لي، أين يولد الحب
في العقل أم في القلب؟(*)

بيد أن حلّ الإشكالية ليس مهمة الشاعر. وما يقدّمه ليس حلاً وإنما إلماعاً. وهو لا يفسّر؛ وإنما يلمّح إلى التفسير. لا يحلّ الأحجية وإنما يشير إلى الحل على شكل فزّورة. ومثل كاهن إغريقي، يخفي ما تشتمل عليه الصور البلاغية الغامضة المترعة بالمعنى. فالمعنى موجود، ولكنه لا يتكشّف ولا تسمعه سوى الآذان القادرة على سماع ما لم يُقَلْ.

يدرك السيكولوجيون أن ثمّة أشياء غير ملموسة في هذه الإشكالية، لكنهم يعنون بغير الملموس شيئاً لا يجب مسّه. في حين أن هذا الإهمال للموضوع، حتى لا نقول هذا التجنّب، هو الذي ليس مفهوماً. لعلهم لا يؤمنون بوجود الحب. لكن الشكّ ليس مبرراً. إذ أن الإيمان ليس ضرورياً. والسيكولوجي الذي يبحث في حقل الدين لا حاجة به لأن يؤمن بالله. كلا، ليس عدم الإيمان، وإنما عدم الثقة بأنفسهم، هو ما يجعلهم يشيحون بوجوههم عن هذه الإشكالية. وليسوا هم من يواجهها بازدراء، بل هي التي تواجههم وتواجه عجزهم.

كل المحاولات القليلة الجهيضة التي بذلها السيكولوجيون لتفسير ظاهرة الحب

---

* – من مسرحية شكسبير «تاجر البندقية».

الرومانسي الغريبة انطلقت من الموقع ذاته: يولد الحب عندما يشعر شخصان من جنسين مختلفين بانجذاب أحدهما إلى الآخر. وبعبارة أخرى، فإن الحب يولد عندما يلتقي الولد والبنت. ولكن إذا كان الحب يولد في هذه اللحظة، فمتى كان جنيناً؟ إذ لابد أنه كان موجوداً في مكان خفي قبل فترة طويلة من ولادته.

وباعتقادي، إن الحالة الانفعالية قبل اللقاء ربما كانت الجزء الأشد أهمية من القصة غير المحكية. ذلك أن الاستعداد، وإن لم يكن كل شيء، هو قسم هام وكبير. فالوقوع في الحب مأثرة انفعالية لها تاريخ طويل قبل أن تجد تحققها. وأن تكون في حالة حب لهو أمر أكثر وضوحاً بالتأكيد من السيرورات السابقة على ذلك والتي تحدث في القرار المظلم للنفس البشرية وتجعل تطور الحب ممكناً./

كي نجيب عن السؤال، لماذا أضحى الحب ضرورياً، لابد في البدء من دراسة الحالة الانفعالية للشخص الذي لم يصبح محباً بعد لكنه سيصير. ذلك أن منطلقات واضحة ومحددة لابد أن تتواجد داخل هذا الشخص فتجعله مستعداً للغرام. إذاً، ما الذي كانت عليه حالة جون السيكولوجية قبل أن يقع في حب جين؟ بيد أن سؤالنا، كيف يبدو المحب المقبل، ليس فيه من المعقولية إلا بقدر ما في استفسار البنت الصغيرة: «ماما، كيف يبدو اللص؟» فالجواب عسير؛ إذ يمكن أن يكون طويلاً أو قصيراً، سميناً أو نحيلاً، أشقر أو أسمر. وبالمثل، فإن من الصعب القول كيف يبدو توم، أو ديك، أو هاري(*) قبل أن يصبحوا مُغْرَمين.

ومع ذلك، فإن من الممكن عموماً توصيف السمات الانفعالية لهذه الحالة. ثمة شعور معين بالحنين nostalgia، والقلق، والاستياء لدى جون، توم، ديك، أو هاري. وهو لا يعي بالضرورة هذه الحالة. وإذا ما وعاها فإنه قد يجد لها كثيراً من الأسباب، فقد يقول إنه غير راضٍ عن عمله أو عن وضعه في العائلة. وإذا ما كان شديد الاستبطان(**) intro-spection، فقد يكتشف أن جذر متاعبه لا يكمن في الظروف الخارجية بقدر ما يكمن في عدم رضاه عن ذاته. وخلال ممارستي، كنت أجد على الدوام، كلما استطعت النفاذ إلى الحالة الانفعالية، أنَّ الغرام ينمو على تربة عدم الرضا عن الذات.

إن القلق، والفزع، والاستياء الملحوظ قبل بزوغ الحب هي أعراض ثابتة في سيكولوجيا هذه الحالة. وهي طرف الخيط الذي يفضي إلى لبّ الإشكالية. ومهما اختلفت الحالات باختلاف الأفراد قبل أن يجدوا أنفسهم مغرمين، فإن السمة المشتركة

* – أسماء إنجليزية شائعة، تُستخدم كما نستخدم اسمي زيد وعمرو في العربية.
** – الاستبطان، فحص المرء أفكاره ودوافعه ومشاعره.

هي هذا الاستـيـاء. وبالطبع فـإن عـمق هذا المزاج mood يتنوّع إلى أبعـد حـد، من الاضطراب الخـفيف إلى الضـيق الحاد، ومن الانزعـاج الذي نادراً ما يُحَسّ إلى الزلازل الانفعـالية. لقد وقع روميو في حب جوليـيت كردّ فعل مباشر على إخفاقه مع روزالين. وقبل أن يلتقي جولييت كان ضحيةً لسوداوية melancholy عميقة.

الحب فـرار من الذات، ترياق للنفـور منهـا، وفي بعض الأحيـان ترياق حـتى لكره الذات الذي يشعـر به المرء. إن جـون، توم، ديك وهاري يريدون الابتـعـاد عـن ذواتهم؛ وإيجاد مـلاذ لهم في الغـرام لأنهم تعبوا من كونهم أنفسـهم. أمـا إذا كـانوا راضين عن ذواتهم، فإن الحب لا يمكن أن يمسّهم.

إن حالتهم قبل أن يَفِدَ الغرام إلى حيواتهم هي حالة حرجة، لها طابع الأزمة الداخلية. وفي هذا الوقت تظهر مسألة القيمة، لأن الإشكالية التي يواجهها كل هؤلاء الأشخاص، مع أنهم لا يدركونها في العـادة، هي إشكاليـة التـقويم الذاتي. ترى، مـا هو سبب عـدم رضاهم عن ذواتهم؟ إنهم يشعرون بإحباط غير واعٍ إذ يقارنون ما هم عليه مع ما يتمنون أن يكونوه، وما أنجزوه مع ما يرغبون في بتحقيقه. ويشعرون بإحباط غير واعٍ إذ يخشون أن يكونوا قد أخفقوا. ويجدون أنفسهم عاجزين عن بلوغ ما توقعوه لأنفسهم.

كتب باسكال مرة أن النفس كريهـة ("Le Moiest haissable"). ويبـدو أن مـثل هذا الشعور بالنـفور من الذات أو حتى كرهها يظهـر دورياً لدى كل من يترعـرع في نموذجنا الثـقافي. وظهـور هذا العامل الانتقادي الذاتي وتكرر ظهوره هو سمة لها دلالتها لدى الأشخاص الطموحين الذين يتشـددون على أنفسـهم بالمطالب. إن سـوء ظن المرء بنفسـه وعدم ثقته بها، والشعور بالنقص، والرغبة في ذات أفضل هي خطوات تمهيدية ضرورية لتطور الحب، الذي هو محاولة لإعادة توطيد تقدير المرء لذاته. أما إذا كنّا راضين عن أنفسنا، فلماذا ننشد ذاتاً أخرى أفضل ونسعى خلفها؟ الحب يعقب النفور من الذات. وهو يتلو الهمود وفي بعض الأحيان يتلو اليأس[1]. ومن خلال شدّة الحب يمكن لنا أن نقدّر قوة الشعور بالنقص التي دفعت النّواس في الاتجاه الآخر.

١ – عبّر الشاعر الفلسفي أندريو مارڤل عن هذه المشاعر في قصيدته «تعريف الحب» منذ حوالي أربعمائة سنة مضت :

كمولد النفيس والغريب
حبّي نادر المولد :
عن اليأس منفطر
وعبر المستحيل .
وحده القنوط الرحب
أراني شيئاً فائقاً كهذا
أمّا الأمل الواهن فلم يقوَ قط على الطيران
وعبثاً ظلّ يخفق بجناحيه المبهرجين .

إن عدم الانسجام ضمن الذات مشروط بمقارنة لا واعية بين أنانا الفعلي والشخص المثالي الذي نودّ أن نكونه، والذي هو أكثر وسامة، وأفضل، وأذكى، وأشجع، وأكثر فاعلية مما نحن عليه. وكل واحد تقريباً يخلق في أواخر طفولته صورة لمثل هذه الذات الأسمى، والتي ندعوها مثال الأنا ego - ideal. وهذه الذات الخيالية، هذا الشخص الذي ليس نحن بل ما نودّ أن نكونه، ليس من خلق الذات وحسب، وليس مجرد نتاج لتخيّل الفرد. فثمة أشخاص محددون في حياة كل طفل يتخذهم بمثابة نماذج، كالأطفال الذين يمتدحهم الآباء والمدرّسون والذين يبدون كما لو أنهم قد حازوا على الفضائل كلها وحققوا كل ما هو بعيد عن المتناول. وفضلاً عن هؤلاء الأشخاص الواقعيين، فإنّ أشخاصاً متخيّلين يؤثرون على الطفل من خلال قصص الأطفال وكتبهم. وتصبح هذه الشخصيات القصصية موديلات models يودّ الطفل أو المراهق أن يصوغ شخصيته على غرارها. ونحن ندعو هذه الشخصيات موديلات الأنا eog- models.

وتسبق موديلات الأنا خلق مثال الأنا وهي، بعبارة أدقّ، الأسلاف الواقعية أو المتخيَّلة للمثال الأسمى، الذي لا يُطَال. وثمة انتقال سهل من موديل الأنا إلى مثال الأنا. ونحن جميعاً نصرف طاقة انفعالية مُعتَبرة خلال قسط كبير من عمرنا جاهدين لمضاهاة هذا المخلوق المتخيَّل، الذات المثالية. إن الأفكار المتعلقة به تشغل استيهامنا غير الواعي، حتى لو كنا في بعض الأحيان منصرفين ومنكبين على تحقيق غايات الحياة اليومية. نحن نعلم أن لدينا نواقص، وأخطاء، ومواطن ضعف، ونحن مستعدون لتقبّلها إلى هذا الحد أو ذاك. أما في استيهامنا، الذي نحلم خلاله بمثال الأنا، فإننا نبلغ مرتبة الكمال. فمثال الأنا هو ذاتنا المرغوبة. وسوف تشغل الحبيبة مكانه لاحقاً؛ فهي انتقاله إلى الحياة الواقعية. وهي الحلم بذات أسمى وقد تحقق. وهي تنجز بشخصها ما لم نستطع نحن بلوغه. فيها يصبح الاستيهام مجسّداً. فموضوع الحب يتمتع بتلك الخصائص التي نفتقر إليها على نحو مؤس، يُفْلح حيث نخفق، ويحقق الآمال التي أنكرناها على أنفسنا. إن ذلك النوع الخاص من الحنين، والذي ندعوه حباً، يواصل التشوّف إلى ذات مثالية.

بيد أننا استبقنا ذروة التطور الانفعالي. نحن لا نزال في ميدان الاستيهام؛ أما الواقع، ومعه تحقق هذه الأحلام، فلا يزال نائياً. وفي بناء مثال الأنا نحن مقيّدون إلى الشعور بالفجوة بينه وبين ذاتنا الفعلية. وكلما كنّا أكثر طموحاً، كلما ازدادت حدّة شعورنا بالهوّة التي تفصلنا عن أن نصبح هذه الشخصية الحلمية. وتبيّن الخبرات

التحليلية كيف تحلّ شخصية الحبيب لاحقاً محلّ الرغبة في ذات أفضل. ويمكن لنا دراسة هذا التطور في قصة نشوء الحب لدى الأطفال. وتتذكّر شابة متزوجة كم كانت متيّمة في طفولتها بفتاة أخرى. كانت معجبة بها وتودّ البقاء بقربها دوماً، لكنّها كانت تخجل أشدّ الخجل من مقاربتها، وتشعر أن قلبها يخفق حين تنظر إليها الفتاة المحبوبة، وهلمجرا. ولقد اعتادت قبل النوم أن تستحضر في مخيّلتها صورة تلك الفتاة. وعلى الدوام كان حلم اليقظة السعيد هذا يبزغ باستيهام أنها هي نفسها ستنهض في الغد وعلى رأسها تلك الخصلات الذهبية بدلاً من شعرها الغامق.

في آلاف الأمثلة كهذا المثال ندرك أن المحبوب هو بديل substitute، إنه الوريث لمثال الأنا. فهذا المثال، وقد انزاح من ذات خيالية إلى شخص متخيَّل، يتثبّت في النهاية على شخص واقعي بخصال «نادرة في روعتها الفريدة، ومدهشة في تضافرها». وهكذا فإن الوقوع في الحب يعني أَسْرُ صورةٍ متخيَّلة copture of image. فالموضوع تمّ خلقه قبل أن يظهر، وكان حاضراً في الاستيهام قبل أن يتواجد في الواقع. وليس ثمة حب من أول نظرة لأن كل شيء كان مُعَدّاً من الناحية السيكولوجية. والوقوع في الحب يعني ملاقاة الصورة المتخيَّلة. وهذه الصورة هي التي تملي اختيار الحب. فدانتي لم يتعرّف ببياتريس قط، وبترارك لم يعرف على الإطلاق لورا التي كتب لها سونيتاته المشبوبة. ومارك توين وقع في حب صورة فوتوغرافية لفتاة لم يرها في حياته.

إن الصورة الحلمية لشريكنا المقبل تعيش وجوداً مديداً، مبهماً. فنحن جميعاً كنا في البدء نحبّ الحبّ. والانتقال من الصورة المثالية إلى الموضوع الواقعي هو سيرورة يسيرة وغير حرجة، خاصة لدى الرجال. ولقد شكت فتاة كانت قد رأت شاباً محدداً مرة واحدة من أنها تتمنى لو أن بمقدوها وضع حدّ لأحلام اليقظة المتعلقة به. «لا أعرفه؛ وليس لديّ عنه سوى القليل القليل كي أنشغل باستيهامات تدور حوله. إنني أستبق الواقع إلى حد كبير. لعله ليس كما أتخيله. أريد أن أقابله ثانية فعليّ أن أعرف كيف وإلى من تتجه أحلام يقظتي». إنَّ هنا بعض الواقعية في قلب الشعور الرومانسي. أما الكثير من الشباب الذكور فهم أقلّ واقعية، لكن موضوع الحلم يكون موجوداً لدى كلا الجنسين قبل الموضوع الواقعي، وحضور الحلم يولّد أمنية وإرادة لقائه مجسّداً. إنها رغبة شبيهة برغبة كاتب مسرحي يريد رؤية الشخصيات التي تصوّرها تظهر وتتحرك على الخشبة الواقعية. أما رافع الستارة عن مثل هذا العرض فهو دوماً تشديد حلم اليقظة المتعلّق بمثال.

تضارب الإرادات

لطالما وصف العشاق والشعراء انفعالات المحبّ لدى مصادفته المحبوب وصفاً مشرقاً نابضاً بالحياة بحيث لا يمكن لنا أن نجاري هؤلاء المختصّين. ونحن نودّ بالأحرى أن نفهم السيرورة اللاواعية التي تفضي إلى بداية الهوى. ولقد ميّزنا في الأطوار التمهيدية، بوصفها عوامل حاسمة، عدم الرضا عن الذات الناجم عن عدم تحقيق المتطلبات الداخلية، وخلق أناً مثاليٍّ، وانزياحه إلى شخص متخيّل. وعندما تتّسع الشقّة بين الذات والمثال، وعندما يزداد التوق والحنين إلى هذا المثال، فإنها تكون اللحظة التي يبدو فيها موضوع واقعي جديراً بعاطفتنا، وخليقاً بأن يصبح تشخيصاً لأحلام يقظتنا السرية. وقد تكون مزايا هذا الشخص واقعة أو متخيّلة؛ فهذا التمييز ليس مهماً. ونحن جميعاً نعرف شباباً تظهر لهم إوزّاتهم دوماً على أنها بجعات. وها هو الشبح المتصوَّر مسبقاً يتجسّد الآن لدرجة أن طبيعته لا يعود ممكناً إدراكها باعتبارها تخييلاً imaginary[1].

تظهر القيم المتفوقة لدى المحبوب جدّ جلية وطاغية بحيث أن نوعاً من الدهشة العاجزة قد يكون هو الشعور الأول لدى الشباب، إعجاب لا يجرؤ على مقاربة الموضوع ويُقصي المقارنة مع الذات. أما التفحّص التحليلي النفسي لهذه الحالة فقد يكشف لحناً لا واعياً مصاحباً لهذه الثيمة theme، لحناً من الحسد والتملّك، ضرباً من الجشع، ورغبة في حيازة الموضوع، واستدماجه incorporation مع مواهبه الطبيعية إلى الذات. وعندما تظهر مثل هذه السمة، يصبح واضحاً أن الشخص الذي تريده هو الشخص الذي تريد أن تكونه. وقد يبدو غريباً أن يبدأ الحب بصورة غير واعية بمثابة حسد وغيرة؛ لكن ذلك لا يبدو بمثل هذه الغرابة حين نأخذ في الحسبان ما سلف: الإحباط الداخلي لدى

١ - «المجنون ، والعاشق والشاعر جميعهم مصنوعون من الخيال» (شكسبير) .

الشخص، الإحساس بنواقصه وعدم جدارته، النفور من ذاته ورغبته في ذات أفضل. إن الحسد هو الجانب غير الملحوظ من الإعجاب الذي يثيره المحبوب. ويمكن القول إن الحب ينبثق من روح الحسد والغيرة غير الواعيين.

أليس هذا الشخص الآخر كل ما تبغيه؟ أليس مدهشاً أن يكون هو أو هي؟ إن الفرد الذي يريد التخلّص من ذاته المنغِّصة يود أن يتبادل الأمكنة مع هذا الشخص الذي يثير إعجابه. وهنا الحدّ الذي يتمّ عنده تصوّر الغرام، وتصوّر الحب الحقيقي فضلاً عن الافتتان، الذي هو سرابه(*). إن الحب الذي لا يكلّ عن العطاء كان مرة، في منشئه الخفي، حافزاً للانتزاع، لحيازة مزايا الموضوع النفسية والجسدية وتملّكها. والحب هكذا هو التغلّب على هذه النزوعات اللاواعية من الحسد، والغيرة، والجشع؛ محاولة ناجحة لتجنيب الذات مشقة هذه الانفعالات المتزايدة. ولقد استبق غوته هذا التبصّر السيكولوجي حين قال: «في مواجهة التفوق الكبير للآخر ما من دواء سوى الحب». وبالطبع فإن الغرام لا يشير إلا إلى مخرج واحد فقط من مخارج هذه الحالة الانفعالية المتوترة. وثمة مخارج أخرى، كالكراهية، أو صرف الاهتمام، أو عدم الاكتراث بمعنى آخر.

عند التفحّص التحليلي لبدايته اللاواعية فإن الحب لا يبدو ذاك الانفعال السكّري العذب الذي تشتمل عليه حكايات الغرام؛ فثمة حسد، وغيرة، وتناول للموضوع بروح السلب rapacity واشتهاء ما هو للغير. يريد المحب أن يعانق محبوبته ويعاملها بحنان، لكن النزوعات اللاواعية الأولى هي الطمع، والرغبة في الاستيلاء عليها وامتلاكها، وإجبارها على أن تكون له. وتشتدّ هذه الدوافع وتصبح أكثر إلحاحاً إذا ما قوبلت بفتور واقعي أو مُصْطَنع من قبل المحبوب، ذلك أن المحب لابد أن يشعر بشدة التعارض بين موقفه الانفعالي وموقف الموضوع. قال شاب عن فتاة كانت تبدو متحفظة: «إنها تجعلني أشعر بالصغر وعدم الأهمية». وقالت فتاة عن رجل: «كيف يجرؤ على مثل هذه الثقة بالنفس». إن الإمهال البارد، وعدم الاهتمام الفاتر، والنأي، والتدمير الهادئ للموضوع المفتون تفعل فعلها في الرجل لا باعتبارها منغّصات تبعد عنه ما هو راغب فيه كلما حاول بلوغه وحسب، بل باعتبارها تحدياً يواجهه بالضبط. إن عدم تأثر الفتاة

* - fata morgana.

بالاهتياج والاضطراب اللذين يشعر بهما في داخله يوقظ لديه أمنية أن يغمرها برغبته الخاصة: «سوف تستيقظ وتغنّي!» إنها لا تبدو رابطة الجأش، واثقة من نفسها، ومكتفية بذاتها وحسب، بل أيضاً عصيّة لا تُطال، وهذا الموقف يثير لديه كل نزوات الانتزاع. ولقد دهش رجل فكّر بفتاة محددة عندما تمتم: «سوف أجعلها؛ أقْسِم، سوف أجعلها تحبني».

إنه الآن يشعر بالتوتر القائم من قبل في داخله بوصفه توتراً بينه وبين الموضوع. وأؤكد أن هذا التوتر هو واحد من الشروط السيكولوجية الأساسية لتطور الغرام. فمن دونه قد تثير المحبوبة كثيراً من الاعجاب، والودّ، والتعاطف، والرفقة والانسجام، لكنها لا تستطيع أن توقظ مشاعر الغرام. ومن دون هذا التوتر يمكنك أن تفكر بامرأة إلى حدّ العبادة، لكنك لن تشعر بها مثل ڤيروس ينغل في دمك. فهذا التوتر الخلاّق هو شرط مسبق لازم للغرام، لدرجة أن تجدده ودوامه هو الذي يحفظ وجود هذا الأخير. أما حين لا يوجد مثل هذا التوتر الخلاّق، فإن من الممكن أن يكون هنالك حافز جنسي ولكن ليس ثمة حافز للحب، ليس ثمة هذا الشعور المحدد، هذا الترقّب الذي يقطع الأنفاس، هذا الوعد بالسعادة المسمّى غراماً. إن الحب محاولة لتجسير الفجوة بين شخصين، بيد أن الحاجة للجسر تؤكد على وجود هذه الهوّة.

يبدو أن لمسة الفتور والنأي تعزّز هذا التوتر، ولعلها واحدة من الشروط التي تساند تطوره، فضلاً عن إثارتها لرغبة الانتزاع. ولقد رأيت خلال الأعوام القليلة الأخيرة كثيراً من الفتيات، طموحهن الكبير هو أن يكنّ خليلات جاهزات لتمشية حال الرجال rough and erady. ويبدو أنهنّ يفكرن بأن من الضروري أن يكنّ جدّ ودودات مع الجنس الآخر، وأن يمحين الفوارق النفسية بين الجنسين، ويستخدمن لغة سوقية بل ويحكين الحكايات الوسخة كي يجذبن الرجال. وباعتقادي أنهنّ مخطئات وأنهن يُطحِنَّ هكذا بفرصهن مع الشباب بصورة غير واعية. فالألفة التي ينشدنها لا تقتضي توليد قلّة الاحترام بل على العكس، فإنها قد تولّد رفقة طيبة وعلاقة أخوية رائعة، لكن من المؤكد أن هذه ليست الحالة الانفعالية التي ينبثق منها الغرام. فغياب التوتر الخلاّق يحول دون تطور الغرام أو يقضي عليه في المهد. وأن تكوني صديقة أحد الشباب لهو شيء جميل، ذلك أنه يمكنك مقاسمته كل ضروب التجارب والمغامرات، ولكن ليس

تجربة الحب الأرقى. والحب ينتهي إلى الاتحاد النفسي، بيد أنه يبدأ من إدراك شكل محدد من أشكال الاختلاف.

إن الخطوة التي لا يمكن تفاديها في تقدم الحب هي التحول عن الحسد اللاواعي الذي يجد فيه الهوى واحداً من جذوره. فإذا لم يختف الحسد، فإنه يؤدي إلى مشاعر العداء. ما من حسد وديّ. فهذا الانفعال يشتمل ضمناً على كل بذور الكراهية، خاصة حين لا يكون المرء راضياً عن نفسه. وهذا النوع من الحسد هو مواصلة لشعور مستمد من فترة الحضانة وأفضل ما يعبّر عنه هي عبارة «أنا أيضاً» التي غالباً ما نسمع الأطفال يتلفّظون بها. وهو يتحول بسرعة إلى نقمة على الآخر المتمتع بامتياز. وهكذا فإن الطور التالي من التطور اللاواعي يتّسم بالعداء تجاه الشخص «المحبوب». والعداء، أو الكراهية، هو سَلَف غير واعٍ للحب، على الرغم من أن العاطفة، قد لا تعقبه بالضرورة[٢].

بضغط من الحسد تُجرى محاولة مركّزة للحطّ من قيمة الشخص المحسود والذي هو محطّ إعجاب، وللإقلال من شأنه في أفكار المرء، وتلطيخ صورته، التي تهدّد بإقصاء كل ما عداها والتحكّم بالنفس تحكماً مطلقاً وشاملاً Totalitarian. وفي بعض الأحيان قد تتكلّل هذه الثورة الانفعالية ضد ديكتاتورية شخص واحد بالظَفَر، لكنها غالباً ما تكون محاولة عقيمة للحفاظ على حرية المرء واستقلاله. ويحدث أحياناً - وكثيراً ما يصوّر كتّابنا المسرحيون وروائيونا هذه الحالة - أن يؤدي الصراع الداخلي حتى إلى تضارب مُعْلَن بين إرادة المحب وإرادة المحبوب، وإلى مشاهد عنف. ومن الممكن للحقد الضاري أن يُنشب أظفاره بين شخصين قُدِّر لهما أن يكونا حبيبين وقد يخلق جواً شبيهاً بذاك الذي يسبق العاصفة. ففي بعض الأحيان لا يكون هنالك سوى ترقّب صامت بين الإثنين، كل منهما يناور من أجل احتلال موقع أفضل، ويناوش تحقيقاً لمنفعة. ويمكن مقارنة كرّهما وفرّهما بحركة الثنائي الراقص. فعندما ينقل الرجل ساقاً إلى الأمام، تبعد المرأة ساقها إلى الخلف، والعكس بالعكس. وفي هذا الوقت يمكن الشعور بإرادة الانتزاع والهيمنة على نحو لا واعٍ. ومن ثم، فإنه غالباً ما يكون من المستحيل أن نحدد ما إذا كانت هذه الحاجة أم التوق الشديد للحب هي الحاجة الأقوى.

---

٢ - لعل من المفيد أن نتذكر أن هذا المفهوم الذي يبدو فيه العداء بمثابة السلف غير الواعي بالضرورة للحب، يفترق بصورة حاسمة عن فكرة التجاذب الوجداني ambivalence في التحليل النفسي .

غالباً ما تخفق محاولة صرف الصورة image من استيهام المرء لأن قوتها أصبحت شديدة جداً. وعندها فإن هذه هي اللحظة المناسبة لقيام النزوعات المعاكسة بهجوم مضاد وبالطاقة القصوى. إن موجة مضادة تغمر الشخص وتطغى عليه، وذلك غالباً حين يشعر أنه قد صار آمناً، بعيداً عن الخطر. إن الرجال والنساء (والرجال أكثر) يهدهدون أنفسهم إلى مثل هذا الأمن الغادر قبل فترة قصيرة من أخذهم على حين غرّة. وفي بعض الأحيان يبلغ تمنّعهم عن الاستسلام لهواهم حد حماية الذات. («هروب إلى الأمام»). ولقد قالت فتاة في مثل هذه الحالة: «أعلم أنني لا أريد أن أحبه، لكنني أتمنى أن لا أفكّر فيه كثيراً إلى هذا الحد». وفي بعض الأحيان، حتى الخوف من الوقوع في الحب يأتي متأخراً جداً. أشبه بشخص في زنزانة ينتابه الذعر إذ يفكّر أنه موقوف.

إن أثر الهجوم المضاد العنيف هو كنس كل المشاعر السلبية، وانتصار الحنان والعاطفة. وسرعان ما يزول كل أثر يدلّ على أن الحب لم يحرز نصره إلا بعد معركة مريرة في العالم السفلي.

جوهر الغرام

يبدو الغرام، في أوجه وفي اكتماله، كما ندرسه لدى جون وجين، كأنه يطمس كل الأطوار السابقة، ويمحو كل المصاعب والعثرات الموجودة ضمن الأنا. فالرغبة القديمة في رقيّ الذات، وفي ذاتٍ أفضل، وأنبل، تكون قد اختفت أو بالأحرى تحققت في الشخص المحبوب. لقد أصبح الأنا أخصب وأرحب. ولم يعد ضرورياً للمرء قط أن يكون كاملاً بذاته، فموضوع الحب يظهر بوصفه تشخيصاً للكمال. وما من سبب، بعد، لعدم الرضا عن الذات وعن القسمة. بل على العكس، فإن المحبّ يعتقد أنه «شخص محظوظ». ألم يحظَ بكنز لا يستحقه؟ إنه يشعر باتّضاع humility لم يكن يعلم أنه قادر على تحمّله، مع أنه يشعر بالزهو والافتخار في الوقت ذاته. ولقد قالت بنت وقعت في الحب للمرة الأولى مخاطبة أمها: «أشكركِ لأنك وهبتني الحياة». فباكتساب ذات أفضل، يمثّلها الموضوع، يبدو المحبّ متفوقاً على نفسه. ويشعر أن في داخله ذخيرة عظيمة من القوة والطاقة التي لم ينتفع بها من قبل، كما يشعر بنهوض مفاجئ في الأنا. إنها فرصة جديدة للعيش ناجمة عن الإقدام وعن الثقة بالنفس وما أنجزته. وفي ظلّ سلطان هذا السحر وطغيانه، يختفي الحسد والجشع. فمن يحبّ يودّ أن يعطي، وتبدو شهية العطاء لديه مفتوحة لا تنضب. ويخلي العداء المكان للحنان، والحسد للودّ.

والسؤال الذي يهمّنا هنا هو: هل يبلغ الفرد هدفه (أو هدفها) السيكولوجي في الغرام؟ هل ينال ما تمنّى الحصول عليه؟ هل يحلّ الغرام الإشكالية التي نغّصته بصورة لا واعية؟ إن كان يفعل، فإننا لندرك أيّ إسهام عظيم هو إسهام الحب في السعادة البشرية، وندرك لماذا يمضي جون وجين، وآلاف الثنائيات مثلهما، متألقين ومشرقين بكل الرضا. لقد رأينا جون في البداية غير راض عن نفسه، بصورة لا واعية، لأنه لم يرتفع إلى مستوى متطلباته الداخلية الخاصة؛ ومن ثم رأيناه حاسداً لجين، حاسداً

لمواهبها، وهدوئها، وثقتها بنفسها. ولقد لاحظنا أن الضغينة والنقمة التي يشعر بها تجاهها في لا وعيه، والتي هي شديدة الشبه بما يعتمل لدى المعدم تجاه الثري، هي حافز لانتزاعها والهيمنة عليها. وهذه الانفعالات لا يظهر أي منها على السطح إذ تغمرها الموجة المضادة ويبدو كما لو أن الاكتمال بالغرام يعني الإقلاع عن كل هذه المطالب غير الواعية.

ولكن لو نظرنا إلى ما هو أعمق، إلى ما تحت السطح النفسي، فسوف نلمس أن هذه الانفعالات قد غُمرت لكنها لم تُطْرَد. فأهداف الحبّ يتم بلوغها بطريقة حاذقة من خلال نوع من التسوية السيكولوجية. ولقد قلت من قبل إن عدم الرضا الداخلي عن الذات يتلاشى لأن المحبوب شغل مكان الذات الأفضل المرغوبة. وتحقّق مثال الأنا بالوكالة by broxy، وتمّ إشباع الرغبة في امتلاك الموضوع بوساطة الشكل اللطيف للغرام. كما بلغت نزوة الانتزاع هدفها. وعن طريق التفاف غير واع، تحققت الرغبة في جعل الشخص المحسود والمثير للإعجاب ملكية خاصة. وفي هذا الوقت يتمّ الشعور بالانسجام الصارخ لدرجة أن العاشقين يؤكدان أنهما ليسا شخصين إثنين قط وإنما شخص واحد وحيد. وفي هذا التوحّد، هذا الاندماج النفسي، تتكلل بالظفر النزوعات الخفية على الرغم من أنها الآن مغمورة. فهذه النزوات المهزومة تواصل وجودها على نحو خفي وتشكل حركة سرية بينما يحكم الحب. وهي مستعدة دائماً للظهور إذا ما ضعفت هذه الحكومة. وتتجلى قوتها حين يفشل الغرام، وحين يعاود الشخصَ عدمُ الرضا، عن المحبوب في البداية، ومن ثم عن نفسه.

يمكن للوهج أن يخبو وكأنه لم يكن أبداً. كل أمارات الحب يمكن أن تكون موجودة دون انفعالاته. ويمكن عندها مقارنة مشاعر المحب بمشاعر رجل يواظب على الكنيسة بعد أن ألحد. ولقد قال رجل أثناء التحليل: «إنه عصر آخر ذاك الذي قبّلتها فيه، أو أنني كنتُ واحداً آخر». يمكن للأحلام العذبة أن تنقلب الآن إلى كابوس. ويرتدّ النوّاس رجوعاً، وتنتعش معه من جديد كل المشاعر القديمة: يظهر العداء ثانية، وشهوة الهيمنة، وأخيراً الحسد والغيرة. ولن أعالج هنا هذه الأطوار، فقد سبق لي أن عالجت سيكولوجيتها في كتاب سابق.

علّق الكاتب الفرنسي بول جيرالدي مرة أن قصة علاقة الحب «هي دراما معركتها مع الزمن». ويبدو أن الزمن يقف عادةً في صفّ النزوعات المكبوتة وأن الغرام لابدّ أن يَفْسد. وفي بعض الأحيان يبقى الحب على قيد الحياة بينما يتبخر الهوى. ويحدث تحوّلٌ إلى الرفقة والصداقة، قد تبقى فيه من الغرام السابق أشد السمات نفاسةً. وعند هذا الحد، فإن التوتر الخلاّق، الذي انبثق منه الحب، يتضاءل إلى حدّه الأدنى. وبدلاً من الشعور المشبوب فإن الثنائي الآن يرعى أحدهما الآخر، وهذا انفعال من نوع مختلف، أكثر رسوخاً ودواماً.

لقد بلغنا الآن نقطة يمكن أن نجيب فيها عن بعض الأسئلة التي أثارت فضولنا. ما الذي يجعل الحب ضرورياً؟ لقد أضحى ضرورياً مع التطور الثقافي للشخصية. ولقد ارتبط صميمياً بالتطلّب المتزايد الذي يفرضه المرء على نفسه ولا يستطيع أن يحقّقه. وتنشأ الرغبة في الحب مع الشعور بأنني تعبت من كوني نفسي. ومكان مثال الأنا والذات الأفضل الخيالية، يقبل المحبُّ موضوع الحب بوصفه تحققاً لأحلام يقظته. فالحب ليس نشداناً للذات، بل للذات الأفضل. ولا يمكن لهذا الهوى أن ينشأ لدى الفرد إلا بعد أن يصبح قادراً على تمييز قيم أسمى لدى الآخر. وكل من يميّز على هذا النحو لابدّ أن يكون قد بلغ مسبقاً مستوىً ثقافياً معيناً. ومن دون هذا التمييز ومن دون الرغبة في امتلاك هذه القيم الأسمى، ما من شخص يمكنه أن يقع في الحب. وليس هنالك تقييم مماثل يؤثر على الرغبة الجنسية، التي هي، تبعاً للنظرية التحليلية النفسية، منشأ الحب.

طابع الغرام قريب من طابع الطموح، تلك الزلّة التي بها تهلك الملائكة. فهو قائم على رغبة مُتْلِفة لدى المرء في كسب مكانة رفيعة، وتحقيق مقصد سامٍ، والسعي لأن يصبح أفضل بكثير مما هو بالفعل[1]. وفي بعض الأحيان يدرك بعض الأشخاص جيداً أن الطموح الأصلي المتعلّق بذواتهم يحلّ محله في الحب هذا الطموح الآخر. ولقد قالت لي فتاة منذ بضعة أيام: «إن لم يكن بمقدوري أن أكون شيئاً ما أنا نفسي، فإنني أريد الزواج من شخص يمكنه أن يكون كذلك». ونحن لا نقدّر جيداً الدور العظيم الذي تلعبه في حضارتنا حاجة النساء الانفعالية لأن يكنّ فخورات برجالهن. فمعظم النساء يشعرن

---

١ – في كتابي السابق، نظرات سيكولوجي في الحب، أكّدت على التشابه بين الحب والتعصب الفني والديني. ولم أكن مخطئاً في تمييزه على هذا النحو. فهو عضو في هذه العائلة، لكن الطموح هو أقرب الأنسباء إلى الحب.

بخطأ أن يحببن من يحتقرنه، ويخجلن من التورط الانفعالي مع رجل لا يحترمنه فينقمن عندئذ على الرجل وعلى أنفسهن. ما كل شمعة تريد أن تمنح الضوء، لكن كل شمعة تتمنى أن تسطع. والحب يزيح أهمية الذات وإكبارها إلى اهتمام بالموضوع، الذي يصبح الآن هو الشخص المهم إلى درجة التضحية بالنفس من أجله وإنكار كل سعي وراء الشرف الشخصي. ولا يمكن أن يكون مصادفة أننا نستخدم تعابير متشابهة للحب والطموح الجامحين: افترسه أو أتلفه الطموح، طموح جامح، وهلمجرا. إنه اللهب ذاته ذاك الذي يتأجج في كليهما. وتفسّر هذه القرابة أيضاً لماذا لا يمكن للحب والطموح بلوغ غاياتهما في الوقت ذاته. فهما قوتان متنافستان. ومن يبقى شديد الطموح لا يمكن أن يكون عاشقاً مولّهاً. ومن يقع في الحب يتخلّى في الحال عن طموحه إلى بلوغ الأنا المثالي. ويستبدل بهذا الطموح طموحاً آخر، طموحاً إلى انتزاع وامتلاك موضوع الحب الذي حلّ محلّ مثال الأنا. صحيح أن بمقدورك أن تعبد أرباباً عدّة، بيد أنك لا يمكن أن تعبدهم بالتكريس والحماس نفسهما. ولعل هذه الألفة بين الحب والطموح تساعدنا على أن نفهم لماذا يمتاز التوق الشديد للحب لدى الرجال بطابع أشد عنفاً بكثير منه لدى النساء ولماذا لا يمكن لهذا التوق، بالرغم من ذلك، أن يغطّي كامل محتوى حياة الرجل/

قارن أحدهم الحب الإفلاطوني ببندقية لا نعلم أنها معمّرة. حسناً، إن ذلك ليبدو طريفاً ولابد أنكم ستبتسمون، كما هي العادة، عندما تُفْتَضَحُ فكرة طنانة رنانة. بيد أنكم ستدركون حين تستعيدون جديتكم أن هذه ليست دعابة مليحة. فأنتم تعلمون أن ما يدعى بالحب الإفلاطوني ليس المثال ideal كما يظهر في محاورات إفلاطون، بل هو بعيد عنه، وأن الحب، بالمعنى الذي نعطيه إياه، لا يمكن أن يتّسم بمثل هذا الخطأ. فترافق الحب في معظم الحالات مع الرغبة الجنسية ليس له علاقة بطبيعة الحب ذاته. والكيميائي الذي يدرس التحام مادتين لن يؤكد أنهما المادة ذاتها أو أن لهما الخواص نفسها. فألفتهما لا تعني أنهما متطابقتان أو أن لهما الصيغة ذاتها. والحكم الخاطئ على الحب بأنه جنس مكفوف الهدف بناءً على هذا الترافق الحميمي كان واحداً من الأخطاء القاتلة في التحليل النفسي. وسوف تكون مهمتنا أن نجد كيف حصل التحام الحب والجنس، ما الذي سبقه، وما هي النتائج؟

ويبدو لي أن ما وجدناه حول منشأ الحب وتطوره لا يترك مجالاً للشك فيما يتعلق بالاستنتاجين التاليين: ليس الحب متأصّلاً في الحوافز الجنسية، وإنما هو نتاج لتطور أنا الفرد، وخاصة للرغبة في رقيّ الذات واكتمالها.

الحب ارتكاس انفعالي على اشتداد الشعور اللاواعي بالحسد والجشع وما ينتج عنهما من نزوعات عدوانية وتملّكية تجاه الموضوع. ومن الملائم أن نميّز الحب الرومانسي على أنه رغبة في الانتزاع أو حافزاً للتملّك مكفوف الهدف.

لست عازماً على الإجابة عن كل الأسئلة المتعلّقة بطابع الغرام وتطوره، لكنني بلغت نقطة في البحث هي أقرب إلى جوهر الإشكالية من محاولات السيكولوجيين السابقة. وحالما تمّ بلوغ هذه النقطة، فإن أسئلة جديدة تطرح نفسها. ويدرك الباحث أن جهوده، التي بدت للوهلة الأولى وكأنها قد حلّت المشكلة، لا تتعدّى ما في كشف أمكنة الإخفاء التي تحجب غيرها عن النظر من إنجاز متواضع. فالبحث يعني نقل علامات الاستفهام من نقطة إلى أخرى.

ثمة أسئلة كثيرة، قديمة وجديدة، تجب مناقشتها، لكن الحيّز المتاح لسيكولوجيا الغرام ضمن حدود موضوعنا هو حيّز محدود. ولذا سوف نهتمّ بإثنين فقط من الأسئلة التي تستحق اهتمام السيكولوجيين. إن الترافق الصميمي للحب والجنس واضح جداً، ولقد وُضع الجنس ويُوضع على نحو ثابت في المقدمة من قبل المحللين والأطباء النفسانيين، بحيث غفلوا زمناً طويلاً عن أن منشأ الحب هو التربة الداكنة لدوافع الأنا. فقدوم الحب إلى الوجود كارتكاس لإرادة الانتزاع والهيمنة، اللتين يثيرهما الحسد والجشع، سوف يسم طابعه إلى الأبد. والانتصار على قوى السلب اللاواعية هذه، والولادة المجيدة من هذا العماء chaos، لا يعني أن هذه النزوات الجبارة قد هُزمت مرة وإلى الأبد. إنها تمضي تحت الأرض، لكنها لا تكفّ عن عملها السري، ولابد من إرضائها وتسكينها من وقت لآخر. لابد من عقد تسوية معها. هكذا نجد خلائط عجيبة من الحنان والهيمنة، من الحب والقسوة، التحامات وتحالفات غريبة بين هذين الدافعين المتعاكسين. فهذا العدّوان القديمان يتوصلان في بعض الأحيان إلى تفاهم على حساب موضوع الحب.

أما الإشكاليـة الأخرى فتعلّق بما للغرام من طابع هروبي: «إبر ودبابيس، إبر ودبابيس، حين تتزوج بنت، فإنّ عناءها يبدأ»(*). هل هذا صحيح؟ ألم تبدأ مشكلاتها من قبل، وحاولت الفرار منها إلى الغرام والزواج؟ بيد أنها تبدأ عندئذ من جديد. ويجب أن لا ننسى أنّ في جذر الغرام كان ثمة هروب ناجم عن انعدام الأمن الداخلي وعن عدم الرضا، وأن الحب لم يصبح ممكناً إلا بالتغلب على هذا التنافر العميق. فالشخص لا يستطيع أن يحبّ ما لم يستعد شجاعته إلى حد معين - وبلغة المقامرة، ما لم يسترد خساراته. والحب يعيد الطمأنينة، ويبني الأنا، لكن الأمن المُسْتَحْصَل على هذا النحو ليس أمناً دائماً[٢]. ولقد قالت فتاة أثناء التحليل: «حين لا أكون واثقة من نفسي، فإنني لا أميل إليه البتة». وقالت امرأة أخرى: «إن كوني أكبر منه سناً، وكوني لست جذابة أو لديّ ما أفخر به يجعلني أتجمّد تجاهه». وكذلك فإن رجلاً لا يتقبّل ذاته ولا يمتلك ما يكفي من الاحترام لذاته لن يكون قادراً على الحب. من ليس لديه ما يكفي من الشجاعة والثقة بالنفس لن يكسب عاطفة الآخر. وحده الجَسُور من يستحقّ الحلوة.

* - مقطع من أغنية أضاعت الترجمة ما فيها من إيقاع .

٢ - ليس مفهوماً بَعْدُ جيداً إلى أي حدّ يُدَار الحب التعيس بصورة لا واعية من قبل الأشخاص أنفسهم على نحوٍ يتم فيه إشباع نزوعات الإثم والعقاب الذاتيين اللاواعية . ويمكن إثبات وجود مثل هذه الإدارة ليس من خلال الاختيار غير الملائم للموضوعات وحسب وإنما أيضاً من خلال الخطوات الخاطئة والأفعال التي تؤدي إلى الهزيمة . إن تصميماً حديدياً على الإخفاق يوجه كل حركات هؤلاء العشاق التعساء إلى أن يبلغوا في النهاية غايتهم اللاواعية ألا وهي الإحباط . إن لديهم نوعاً من الحاسة السادسة التي تجد دوماً طرقاً ووسائل لقلب كل تجربة حب إلى إخفاق وفشل . إن الحاجة إلى موضوع حب مبخّس هي تعبير عن موقف مازوخي غير واعٍ أو عن تقويم وضيع للذات .

لو كان الحب حباً...

نادراً ما يشكّ البشر بوجود الحب، لكن الكثيرين يتنصّلون منه. وخلال سنوات ممارستي الطويلة لم أصادف شخصاً واحداً يؤكد أنه لم يؤمن بالحب قط في حياته. ومعظم الرجال الذين استجويتهم أقرّوا أنهم مرّة على الأقل، لفترة تطول أو تقْصُر، وقعوا في الحب، لكنهم كانوا مقتنعين الآن أن الحب هراء أو شعور صبياني في أحسن الأحوال. ويعتقد بعض هؤلاء أنهم واقعيون تماماً. وحين يؤكدون أن الحب ليس إلا رغبة جنسية خفية، لا يدركون أن هذا القول هو أكثر فانتازية من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. ومن الملحوظ أن هؤلاء الناس لا يبددون وقتهم بالشكوك وإنما هم واثقون تماماً من كونهم على حق. أما بين المثقفين فيتمّ التعبير عن الشكوك بطريقة طريفة. ففي أحد المشاهد من رواية لآرثر شينتزلر، يسأل الكاتب كاتباً آخر: «قل لي، يا نورنبيرغر، أما تزال تؤمن بالموت؟ فعن الحب لن أسألك أبداً». ومنذ بضعة أيام، اقترح كاتب أمريكي بكل جدية حذف كلمة حب من معجم اللغة الإنكليزية لأنّها تنطوي على خداع للذات.

ثمة هوة هائلة بين المؤمنين وغير المؤمنين. وما من انتقال تدريجي، بل فجوة كتلك التي بين التقى والإلحاد. وإليكم مقارنة بسيطة نقبسها من المعجم: يقرأ المرء معاني العاطفة والحنان المعطاة لكلمة الحب، ومن ثم يجد، بعد بضعة أسطر، معنى جديداً لهذه المفردة: «١٤ - في عديد من الألعاب (التنس) = صفر للفريقين».

بيد أنني، عند الحديث عن هؤلاء المشكّكين، لطالما أعدت التذكير برجل عالجته في فيينا منذ عدة سنوات. وكنت أسترجع، لا الميزات الخاصة للحالة، وإنما جملة واحدة قيلت أثناء الجلسة التحليلية والظروف التي قيلت بها. كان المريض شاباً، مثقفاً نمطياً جاء إلى التحليل بسبب هجاس obsession خطير نوعاً ما. وكانت الشكوك التي

ترافقت مع عصابه تطول قسطاً كبيراً من حياته، فضلاً عن علاقته بفتاة تكبره سناً، ولم تُخْفِ عنه رغبتها في أن يتزوجها. ولقد مرّت هذه العلاقة، التي بدأت قبل مجيئه إلى التحليل، وأصبحت متقطعة خلاله، في عديد من حالات الصعود والهبوط كما يحصل عادة عندما يقع شخصان، كلٌّ منهما عصابي إلى أبعد حد، ضحيةً للصراع المحتدم بين العداء والعاطفة. ولقد أظهر كل من هذين الشخصين المهذبين واللطيفين أسوأ ما لديه.

لاحظ باسكال، في مؤلفه «مقال في أهواء الحب»، أن المرء حين لا يحب كثيراً جداً، فإنه لا يحبّ بما فيه الكفاية. وتبدو تلك الحكمة مؤثرة، لكننا، إذا ما تأملناها ملياً، سنجد أنها عبارة جوفاء. فالكثير جداً هو أكبر مما فيه الكفاية، وقد تكون هذه الزيادة مقداراً كبيراً جداً من شيء حسن ولا يلبث أن يتحول إلى شيء مزعج وبغيض. وحب قليل يقطع شوطاً طويلاً، وكثير جداً من الحب يمضي بعيداً جداً. ومن الواضح أن التحدّر الخفي للحب من نزوات الجشع والسلب سوف يحدد تقلباته. فإذا ما بلغ أقاصيه، فإنه سيتخطى ذاته ويتكشّف بكل جلاء كارتكاس للتملّك وإرادة الانتزاع. وعندئذ فإن النزوات المغمورة تبرز من جديد إلى السطح.

لم تستطع هذه المرأة، اللائبة على زواج الرجل منها، أن تحجم عن جعله يعلم كم كانت تشعر بالانجراح من جراء إهماله الحقيقي أو المتخيَّل لها. وشعرت، وقد وقعت ضحية لميلها inclination العنيف، أنَّ معاناتها من عدم اهتمامه كانت أقل لو لم يتركها في شك حيال نواياه الحقيقية. قالت مرة: «ليته لم يكن موجوداً، وإن كان موجوداً، فلا أريد أن أحبه. أتمنى لو أستطيع إخماده في داخلي أو أن أكون العمر كله معه». لقد أدركت جيداً أن عُصابه جعل من العسير عليه أن يتوصل إلى قرار. وتحققت من أن عليها الانتظار، لكن نفاد صبرها اشتدّ لأن كل أصدقائهما ومعارفهما كانوا يعتبرونهما مخطوبين. ولقد جعلت ظروف معينة، لا أستطيع مناقشتها هنا، من المستحيل تكذيب هذه الإشاعة. وغالباً ما شعرت المرأة ليس بالانجراح وحده بل وأيضاً بالغيظ من الرجل ومن شكوكه المستديمة.

كان من المغري بالنسبة لها في بعض الأحيان أن تصرخ: «كفّ عن عزمك!». ولغيرتها كانت تغتاظ كلما فضّل رفقة أخرى على رفقتها، وغالباً ما كانت تترك

لبعض الضغط أن ينفذ إلى السطح، حتى بوجوده أحياناً. ولقد دفعها نفاد صبرها إلى الاتصال به يومياً تقريباً، كي تخطو الخطوة الأولى باتجاه تحديد المواعيد، وكي تدفعه إلى قرارات ثانوية كانت من ضمن مصالحه الخاصة بصورة رئيسة. وأدركت، لكونها أكثر واقعية منه، أن هذا الوضع يمكن أن يبقى على حاله فترة أطول لأن العلاقة كان قد مرّ عليها سنوات عدة. وفي هذا الوضع الملتبس أصبح ضرورياً أكثر أن تدفعه إلى الاختيار. فقد انقضى من حياتها قسطها الأجمل. وفي مزيج من العاطفة والعناد كانت مصممة على الزواج من هذا الرجل بالذات على الرغم من كل عيوبه، التي كانت تراها بوضوح. لم تكن تخرج مع غيره من الرجال لأنها كانت تريد البقاء في البيت عندما يتصل بها. ولم تكن تريد أن تدعه يعلم مقدار تعويلها عليه، لكن طبيعتها النزوية وافتقارها إلى ضبط النفس غالباً ما جعلاها تفقد صبرها، وتجد منفذاً له على حساب محاكمتها السليمة. ولطالما تكررت المشاهد والجدالات العاصفة، والتي كان يثيرها الشك الذي خلّفه الرجل لديها. لم تكن هذه المنازعات منازعات حبيبين، بل منازعات شخصين يكره أحدهما الآخر، ولكنهما مكرّسين كلٌّ للآخر. وعلى الدوام كان يعقب ذلك مصالحات تفضي بدورها إلى خلافات جديدة. غالباً ما ناقشا إلى أي حدّ يحب أحدهما الآخر ولماذا، ولماذا لا. لكن الحب لا يُناقَش وإنما يُعاش. لقد كان الوضع تقريباً صورة معكوسة للنموذج التقليدي المألوف. الفتاة تخطب ودّ الرجل بينما هو مُعْرِض عنها ومتحفظ ومتظاهر بالخفر. ويبقى صحيحاً أيضاً أن نفاد صبرها كان يتفاقم أحياناً برغباتها الجنسية غير المحققة.

ومع ذلك فإن الرجل كان متعلقاً بها وكان يقدّر خصالها الإنسانية والثقافية الممتازة حق قدرها. وتكشّفت حياته الجنسية عن الموقف النمطي لمجموعة كبيرة من الرجال الذين يعانون من الكفّ الجنسي مع من يحترمونهن من النساء ويعتبرونهن أنداداً لأمهاتهم وأخواتهم، في حين لا يعانون مثل هذا الكبح restrainrt تجاه الأخريات اللواتي لا يقدرونهن بل ويحتقرونهن. وهذا الرجل، وقد حالت بواعث عديدة (اتضحت أثناء التحليل) بينه وبين اتخاذ قرار، وخشية فقدان حريته، كان يتظاهر بالاذعان لضغطها في بعض القضايا الثانوية. وكان يستمتع بحياة العزوبية على الرغم من

أطوار الهمود والوحدة المتكررة، ويبدي مقاومة دمثة ولكن حازمة ضد جهود صديقته الدؤوبة، الرامية إلى دفعه صوب ميناء الحياة الزوجية. ومن جهة أخرى، لم يكن يريد قط أن ينحلّ الرباط الذي يجمعهما سوية. كان يعرف على الدوام كيف يسترضي الفتاة ويمارس عليها سحره حين تشعر بالانجراح، وكيف يستخدم سلطته عليها لإبقائها في حيرة من أمرها. فكلما بذلت جهداً لتحرير نفسها من هذا القيد، كان سحره الأسود الحاذق يجترح أخدوعة. ففي حين وطّد عزمه على أن لا يغار أبداً، استغل بحنكة حاجتها إليه وأبعد عنها غيره من المريدين. وبدا موقفه، آنئذ، شبيهاً بموقف تلك الشخصية في عمل موتزارت ***الناي السحري***: «لا أستطيع أن أقسركِ على حبي، ولكنني لن أمنحكِ حريتك».

لم يكلّ هذا الرجل أثناء التحليل عن التأكيد كم كان مرتبكاً ومغتاظاً لأن الفتاة كانت تدفعه، وبطريقتها المستبدة، لأن يظل برفقتها، ولأنها كانت تجعله يذهب إلى العزائم والسينما بينما هو راغب في أن يكون في مكان آخر، ولأنها كانت تستبقيه على الهاتف في حين يريد أن يعمل. بل وكان حانقاً جداً لدرجة أنه تذمّر بشدة من نزوعها إلى التملك. ولقد كان، وهو الأضعف بكثير من أن يقول لا، عاجزاً عن أن يقبل لنفسه أنه استمدّ سروراً خفياً من هذه العبودية، التي نادراً ما تمرد عليها. وكان واضحاً أنه غالباً ما رتّب الوضع الذي يبقيه تابعاً. لم يكن محباً حقيقياً بالتأكيد، ولكن تعلقه بالفتاة كان قوياً. ولقد عبّر عن ضيمه مرّةً، فقال بطريقته المهتاجة: «إنها نزّاعة إلى التملّك على نحو مرعب، وعلى الدوام تريد أن تتمسك بي، وتتشبث وتقبض علي. إنها لا تعتقني ولو ليوم واحد. إنها تطبق عليّ بين براثنها ولا تدعني وحدي». وختم اتهامه قانطاً من نزوع الفتاة إلى التملك: «وتقول إنها تحرص عليّ، وانها تحبني كل الحب. لو كان الحب حباً!».

كانت عبارته الأخيرة، والتي نطقها بطريقة النزوية، تخطر على ذهني كلما كان عليّ أن أعالج عصابيين يعانون من مصاعب في حياتهم الحبية. ما قصده بهذه العبارة واضح تماماً. إن ما يدعوه الناس حباً ليس حباً أبداً. إنه شهوة السلطة، حافز للانتزاع والتملك، أو رغبة جنسية خام. لو أن ما يدعى حباً كان مجرد توق للرفقة، واهتمام

برفاه الآخر، وأخذ وبذل للحنان وقبول بعيوب الآخر، لكانت الحياة رائعة. إن عبارته لا تنكر وجود الحب، لكنها تشكو من طبيعته.

قد يقول شخص متديّن، وبتوق مماثل: «لو كانت المسيحية مسيحية! لو أن ملايين البشر ممن يدّعون الإيمان بالمسيح كانوا فقط مفعمين حقاً بروحية المخلّص الذي راح يكرز على تلال الجيل! ولكنهم لا يوالون سوى الرسالة التي تميت لا الروح التي تهب الحياة». ألم يؤكّد صموئيل بتلر أن المفاهيم الأخلاقية للمسيحية لم تُمارَس قط على الأرض؟ إنها القصة القديمة عن الهوّة التي تفصل الفكرة الخالصة عن تجسيدها الأرضي، وتفصل الوعد الفتّان بالمثال عن عتمة الواقع وحلكته. وليس بالإمكان تفادي هذا الفارق لأن المثال بعيد عن متناول الكائنات الفانية. فهو ليس محض ادّعاء لا يتحقق. إنه أيضاً مطلب لا يُلبّى. فإذا ما أردت أن تطلق نار مسدسك، عليك أن تصوّب على نقطة أعلى من الدريئة كي تصيبها. ولكن إذا صوّبت أعلى بكثير فسوف تخطئ الهدف.

ما الذي يمكن قوله عن النقطة التي أثارها المريض؟ من الجدير بالملاحظة أنه في شكواه لم يأخذ في الحسبان طبيعة عاطفته الخاصة القاصرة. فمن الواضح أن مقدرته على الحب كانت أكثر محدودية من مقدرة الفتاة. لقد كان مكرّساً لها دون شك على طريقته، لكن هذه الطريقة كانت طريقة خاصة بالتأكيد. ألم يجد لذّة خفية في التعذيب الحاذق الذي كان يخضعها له؟ لقد تشكّى من نزوعها إلى التملّك، ولكن هل كان أقلّ منها نزوعاً إلى التملّك؟ ألم يكن يعيدها إليه بخيط خفيّ، غيوراً من تحررها المحتمل؟ كل ذلك عن الجانب الشخصي لهذه الحالة، فماذا عن الصورة العامة؟ لابدّ أن نقرّ أن المريض معذور إلى حدّ بعيد في صرخته: "لو كان الحب حباً!»، فكل ضروب الانفعال يطلقون عليها اسم الحب. يا لهذه الكلمة كم أسيء استعمالها! لكن هذه مشكلة أكثر عمقاً وليست مسألة تصنيف وحسب.

لا يمكن للارتكاس ضد قوى الهيمنة والتملك أن يزيل هذه القوى إزالةً تامةً. فالمادة الأصلية التي يُصنَع منها الحب حاضرة أيضاً في التحول الجديد لدوافع التسلّط. وغالباً ما يبدأ الحب برغبة في التشبّه بالموضوع الذي يثير الإعجاب؛ وغالباً ما ينتهي

بالرغبة في صياغة الموضوع على صورة المحبّ. ويبدو أن هذا النزوع يشير إلى أن شهوة الانتزاع القديمة المكبوتة تكون لها اليد الطولى في النهاية. ويمكن لهذه الرغبة الخفية أن تؤدي، بصورة طبيعية، إلى تضارب في الإرادات، وإلى نزاع صامت في الظلام.

هذا العنصر الجديد في الحب، والذي هو نتاج للتمرد والارتكاس غير الواعيين، يشبه حافز الانتزاع. إنه من نسل الطاغية القديم، في دمه لوثة الاستبداد والهيمنة، على الرغم من أنه الشكل الألطف للطغيان.

إن النفاذ إلى طبيعة الحب لا يُسكت النقمة ضده إلا إلى حد معين. ولابد من النظر في هذه الظاهرة بالنسبة لكل فرد على حدة؛ ففي الحب خير للشخص إن كان في هذا الشخص خير للحب. وإذا ما كان شخصان في حب، فإن كلاً منهما يجاهد كي يكون الآخر، لكن هذا النزوع يمكن أن يبلغ، تقريباً، غايته بطريقة سلمية. والأزواج الكهول، الذين عاش بعضهم طويلاً مع بعضهم الآخر، غالباً ما يبدون تشابهاً جسدياً شديداً. ويبدو كما لو أن الرغبة القديمة، التي كانت ذات مرة حافزاً مشبوباً وضارياً، تتحقق على نحو لطيف بمرور الوقت.

عندما يرتفع المرء في الهواء عالياً بما فيه الكفاية، فإن كل شيء يبدو صغيراً جداً. حقاً إن هنالك هوّة بين فكرة الحب وواقعه، ولكن لماذا نتحسّر على ما ليس هو ونستنكف عمّا هو عليه؟ ليس بمقدورنا أن نتنصّل من الوقائع السيكولوجية إلا بقدر ما يمكننا أن نتنصّل من الوقائع البيولوجية. والطبيعة لا تعترف بذاك النوع من التفكير الذي يقول: لا يمكن للأمر أن يكون على هذا النحو، لأنه لا يجب أن يكون عليه. إن المحب ليفعل أحسن ما لديه بأحسن ما لديه. ومن الممكن أن نكون واقعيين نوعاً ما ونواجه الوقائع حتى عندما تتعلق بأضاليل تعزّ علينا.

كثيراً ما نتلقى أفكارنا عن الانفعالات من الأدب والسينما، لا من الحياة. ومن ثم ندهش ويخيب أملنا عندما لا يتوافق الواقع مع تطلعاتنا. ولكن لا حاجة حتى بالمُثل العليا لأن تبقى طفولية؛ إن بإمكانها أن تتقدم في العمر. وفي بعض الأحيان يكون لدى أطفالنا تصورات مسبقة تدهشنا، لكنهم يتخلون عنها بمرور الزمن. وحين هاجرت عائلتي إلى الولايات المتحدة منذ سبعة أعوام، فإن ابنتي ثيودورا، وكان عمرها آنذاك أربعة أعوام، سألت أمها ونحن نهبط من السفينة في نيويورك: «ماما، لماذا

يتكلم كل هؤلاء الناس مثل شيرلي تمبل؟» لقد أدركت أن كلام الناس حولها شبيه بكلام النجمة الصغيرة في فيلم شاهدته في أوروبا. ولابد أنها فكّرت أن شيرلي تمبل هي صاحبة هذه اللغة أو خالقتها. لكنها اكتشفت بعد ذلك أن اللغة الإنكليزية ليست ملكاً لشيرلي وحدها. إن وقتاً طويلاً ينقضي قبل أن نتعلم نحن البالغين أن الحب في الواقع لا يشبه صورته الهوليوودية. وكم من الأفضل أن نكون يافعين ونتعلم من أن نكون كهولاً ونعرف.

قوة جديدة تدخل ميدان الجنس

كيف دخل الغرام ميدان الدافع الجنسي الخام؟ نحن نعلم أنه قَدِمَ من بلاد أخرى، وأنه ليس من مواطني هذه الأرض. ليس جنساً مُمَوَّهاً، كما يؤكد صليبيو التحليل النفسي، كما أنه لم يَفِدْ كضيف محتفى به، وإنما عُومل في البدء بمثابة متطفّل وبغيض. وبعض الأشخاص يرونه هكذا إلى الآن. ولاشك أن الحب أشبه بمهاجر في قارّة الغرائز القديمة، مهاجر غريب بين مواطنيها. وإني لواثق أنهم جَفِلوا في البدء لقدومه.

لا يمكن للحب أن يتطور في حياة الفرد إلا بعد بلوغ طور يتمّ فيه ليس تمييز الفروق الشخصية بين الأشخاص وحسب، بل تقويمها أيضاً. وهذا التقويم يقتضي حالة ذهنية متطورة. فالطفل الذي بلغ الطور الذي يقارن فيه نفسه مع غيره ويشعر بأنه أدنى منه ويحسده (أليست هذه شروط الحب الأساسية؟) لا يمكن أن يكون في مرحلة الطفولة الأولى. والجنس، الذي لا يميز القيمة الشخصية، يمكن أن يستيقظ باكراً، أما الحب فلا. وغالباً ما يعلن المحللون النفسانيون أن التطور الجنسي الباكر علامة على توقد ذهني باكر. لكنني أخالفهم الرأي، كما فعلت غالباً من قبل. فهنا، كما في كل مكان آخر، ينزع المحللون إلى خلط الحب والجنس. إن الاهتمام والنشاط الجنسيين الباكرين يعبّران عن حالة الطفل التكوينية أو يمكن أن يكونا نتيجة للتنبيه الخارجي المفرط. ومن جهة أخرى، فإن الاستعداد الباكر للشعور بالعاطفة يثبت حقاً أن الطفل موهوب على نحو استثنائي، فهو يعني أن الطفل خبر باكراً وأدرك الفروق والقيم الفردية. وفي الواقع، فإن المعلمين والمربّين، فضلاً عن الأهل، يلاحظون باستحسان تلك العاطفة المبكرة لدى الأطفال، في حين أنهم ينفرون من أية علائم على الجنسية المبكرة.

ما هي موضوعات الحب الأولى لدى الأطفال؟ غالباً ما قُدِّم الجواب بخفّة وتسرّع: الأشخاص الراشدون، الأهل، المربّيات، المعلمون. لكن هذا الجواب هو واحد من تلك

الأقوال الارتجالية التي لا تحتوي من الصدق سوى مقدار زهيد. وبالطبع، فإن الأطفال يتعلمون التعاطف مع الراشدين الذين يحيطون بهم ويرعونهم، لكن عاطفتهم الحقيقية تتجه إلى أطفال آخرين. فالراشدون بعيدون عن متناولهم؛ وهم، في الواقع، من نوع آخر بنظر الطفل. والاعجاب بهم والحلم بانتزاعهم يعني أن الطفل يشعر مسبقاً بأنه قريب منهم، وقرين لهم بطريقة أو بأخرى. ولكن، قبل أن يبلغ الطفل هذا الطور، يكون الراشدون أبعد سيكولوجياً بكثير من أن يكونوا موضوعات للحب. فأنت لا تطلب الثريا.

أليست واحدة من الأمنيات العظمى والأكثر إلحاحاً لدى أي طفل أن يكبر، وأن يكون مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثيرون إعجابه؟ حقاً إنها لكذلك، لكن هذه الأمنية، إذا ما برزت لدى الطفل على نحو أصيل ولم يقحمها الأهل أو الأطفال الأكبر سناً في دماغه، فإنها تبرز متأخرة. وحتى عندئذ، فإنها تبقى لفترة طويلة مجرد فكرة دون أي وجود واقعي، مجرد إمكانية نظرية. ولقد تذكر أحد المرضى أنه في مرحلة صباه الباكر لم يكن ليقتنع إلا قسراً بأنه مع مرور الزمن سيكبر ويصبح رجلاً. وظلّ محتفظاً لزمن طويل بفكرته الأصلية التي مفادها أن الرجال والأفراد مجموعتان متميزتان مختلفتان أشد الاختلاف، وأن الرجال سيبقون دوماً رجالاً والأولاد أولاداً. (وهذا يتعارض مع المثل الشائع الذي يقول إن الرجال يظلون أولاداً على الدوام). كما كان يشعر أن هنالك فجوة لا يمكن سدّها بين المجموعتين.

أول موضوع حقيقي للحب لدى الطفل هو طفل آخر، يثير إعجابه وحسده وكراهيته، طفل واضح التفوق تماماً، على الرغم - بالطبع - من عدم الإقرار بهذا التفوق عن طيب خاطر. والاكتشاف المدهش الآخر الذي ينتظر السيكولوجيين هو أن موضوع هذا الحب الباكر هو عادة من الجنس ذاته. لكن ذلك لا يدهش المحللين النفسانيين، فلطالما أكّدوا أن الجنسية المثلية هي واحدة من السمات المنحرفة العديدة في الحياة الجنسية الطفلية. غير أنَّ وجهة نظرنا لن تريحهم كثيراً، ذلك أننا لا نشير إلى الجنسية المثلية، بل إلى العاطفة تجاه الجنس المماثل، والتي هي ظاهرة مختلفة تماماً.

من السهل أن نفهم لماذا يتمّ اختيار موضوعات الحب الأولى من بين أطفال الجنس ذاته. فهنالك، بالطبع، ذلك التآلف في الطبع والمزاج congeniality بين الأولاد. إنّ لهم

الاهتمامات نفسها، ويشعرون بالمطامح نفسها، ويلعبون الألعاب نفسها. وهم يتباهون بأنفسهم على المواهب نفسها ويقدّرون الإمكانيات، والبراعات، والمهارات نفسها. أما مع البنات في هذا السنّ فليس لدى الأولاد أي اهتمام مشترك. ولا يلتمس الصبيان رفقة البنات الصغيرات، بل ويجتنبونهن أحياناً لبعض الوقت، وهكذا يسخر الأولاد من الذي يلعب مع البنات ويدعونه مخنثاً sissy. ومن الإعجاب، والحسد، والتملك الذي يبديه ولد تجاه آخر، غالباً ما يتطور الحب الأول، الخجول نوعاً ما. ففي تغلّبه على المشاعر السلبية الأصلية، يولع الولد الصغير بولد آخر أقوى منه أو أذكى أو أكثر براعة. ويصبح هذا الولد الآخر مثال الأنا بالنسبة للأول. ولا حاجة بي لأن أكرر أن هذه العاطفة لا علاقة لها بالنشاط الجنسي. فالدافع الجنسي يمضي في طريقه الخاص. ومن الممكن تماماً - وبمقدور أي محلل نفساني إثبات ذلك - أن يشعر ولد محدد بالعاطفة تجاه ولد آخر يثير إعجابه، ويمارس مع ذلك بعض العبث الجنسي مع بنت صغيرة أو حتى مع ولد ثالث لا يميل إليه على نحو خاص أو يُعجب به. وعلى هذا النحو يبدو الجنس والعاطفة منفصلين باكراً.

إذا كان موضوع الولد المختار هو طفل آخر من جنسه - وينطبق الشيء ذاته، بالطبع، على البنات، فموضوعاتهن الحبّية هنّ بنات أخريات يثرن إعجابهن - فإن حب الجنس الآخر يصبح من الواجب تفسيره. وها أنا أؤكد ثانية أن ظهور حب الجنس الآخر هو الأمر الغامض، وليس ظهور الرغبات الجنسية. وعلى أية حال، فإن ذلك لا يبدو وكأنه إشكالية سيكولوجية بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون الحب جنساً مكفوف الهدف. فهم يعتبرون أن الدافع الجنسي المكفوف يحيد باتجاه العاطفة. لكن ذلك هو إشكالية بالنسبة لنا نحن الذين نؤكد أن الحب أمر مختلف. إذاً، كيف يمكن للأطفال من الجنس الآخر أن يصبحوا، ببطء أو فجأة، موضوعات للحب؟ أليس ثمة فجوة بين الأطفال من الجنسين؟ ألا يفضّل الصبيان رفقة الصبيان والبنات رفقة البنات؟

إن هذه الفجوة موجودة، والجهد السيكولوجي المبذول لتجاوزها هو حدث جديد في حياة الولد. ومن الواضح أن هنالك عاملين يتضافران في تأثيرهما. إن تغيرات البلوغ الانفعالية البعيدة المدى تزيد من قلق الولد. فهي تعمّق عدم الرضا عن الذات وتعزّز الرغبة في إشباع متطلبات أناه المضطرب، كما تعزز رغبته في أن يتجاوز ذاته. وفي

الوقت نفسه، نجد لدى الولد شعوراً بأن رفقة الأولاد الآخرين لم تعد تشبعه تماماً. لعلهم يذكّرونه بنفسه إلى حدّ بعيد. ونحن نجد هذا التطور الانفعالي ذاته لدى البنات، مع بضع فوارق قائمة على الميزات الجنسية المتباينة. وهكذا، فإن العامل الأول هو التوق إلى التخلص من الذات ومن الآخرين الذين يشبهونها كثيراً. ولهذا العامل طبيعة الإبعاد والدفع. وبعبارة أخرى، إنه نوع من النفور غير الواعي من الذات ومن العصابة القديمة.

ومن جهة ثانية هنالك جذب وشدّ. فالدافع الجنسي يدلّ على الطريق، الذي يؤدي إلى موضوعات جديدة. ولكن ليس الدافع الجنسي من يسوق الشخص إلى تولّي هذا الدرب. ليس الجنس من يقدّم الباعث على اتباع هذا السبيل، وإنما هو مجرد صوّة على طريق الهائم الذي يبتغي الهروب من نفسه. والدفع والشدّ هما اللذان يحددان معاً انزياح العاطفة إلى الجنس الآخر. هكذا يتعاون عدم رضا الولد عن ذاته وعن أقرانه من الجنس نفسه مع حاجات البلوغ الجنسية المتزايدة فيعملان على تغيير الاتجاه الذي تتبعه العاطفة.

آمل أن يكون واضحاً أن وجهة النظر هذه لا يمكن أن تُفهَم بالمعنى الذي يفهمها به التصوّر التحليلي النفسي الخاطئ الذي يَعدّ الحب تطوراً جنسياً مكبوحاً. فما أشير إليه هنا لا يعني إلا أن انقلاب العاطفة باتجاه الجنس الآخر يفسّره جزئياً ذلك التأثير الذي يمارسه الحافز الجنسي المشتدّ عند البلوغ. أما منشأ الحب وطابعه فليسا مشروطين أبداً بهذا التطور المتأخر. ذلك أن الرغبة العاطفية كانت موجودة من قبل.

ليس ثمة حوافز جنسية يتمّ الشعور بها تجاه الموضوع بين محرّضات الحب الناشئ. ثمة توق للإمساك بالبنت المحبوبة، والاحتفاظ بها، وجعلها ملكاً للمحب. لكن تفكير الولد لا يسبغ على هذا التملك أي معنى جنسي. إنه يفكّر بجعلها ملكاً له، وليس بـ «تطبيقها»، كما يقول التعبير العامي. وهذا الحنان فيه من التملك أكثر مما فيه من الجنس، ومن الطمع أكثر من الشهوانية. ما الذي قالته جولييت لروميو؟ إنها تتمنى أن يمضي، ولكن

... ليس أبعد من عصفور ولد لعوب
يدعه يتقافز عن يده قليلاً،

مثل سجين بائس في أصفاده المجدولة،
وبخيط من حرير يعيده ثانية إليه،
هكذا المحب يغار من حرية محبوبه.

«هكذا المحب يغار من حرية محبوبه»؛ ليست هذه لغة الجنس، بل لغة التملّك في هيئة ساحرة من الحنان.

ما هي الخصال التي يعجب بها الولد لدى البنت؟ ما الذي لديها ليثير حسده؟ ما الذي يعجب البنت لديه ويجعلها «محبة غيورة»؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة لابدّ أن تقدّم لنا معلومات هامة جداً فيما يتعلق بتطور الغرام في تجلّياته الأولى. وأنا أقترح ما يلي: في الأصل، إن ما لدى البنت ويثير الإعجاب هو الجمال، أما لدى الصبي فهو القوة. أم أن تضافر القوة والشجاعة هو ما يجذب البنت؟ إن الخصال التي تثير الإعجاب والحسد في البداية هي خصال جسدية، تتعلق بجسد الموضوع. ورويداً رويداً تحلّ محلها خصال أخرى. وليس الجمال هو القيمة الوحيدة. ثمة رشاق الحركة، واللطافة، والرقة، وغيرها من الخصال التي تعبّر عن شخصية الفتاة ويتمّ تقديرها حقّ قدرها. ويمكن تلخيص هذا التغير بالقول إن الولد ينجذب في البداية إلى ما لدى البنات من أنوثة بيولوجية femaleness ومن إلى ما لديهنّ من أنوثة شخصية femininity. وبالطبع، فإن قوى الجذب من النوع الأول تواصل عملها بينما تتطور القوى الأخرى. والبنات اللواتي لا يثير إعجابهن في البدء سوى قوة الأولاد وشجاعتهم يبدأن بتقدير ما لدى الأولاد من عزم وذكاء، وتدهشهن قدرتهم الذهنية ونشاطهم وتثير حسدهن. («ما الذي لا يفكر به ذلك الرجل! إنه يعرف كل شيء!»). وهكذا فإن الشكل الجديد من الإعجاب الذي يتطور انطلاقاً من الإعجاب القديم هو انتقال من الانجذاب الناجم عن المظهر إلى انجذاب ناجم عن تقدير الشخصية. وفي حين تظلّ الخصال التي أثارت الإعجاب في السابق محتفظة بقيمتها، فإن الخصال الجديدة تضخّم الشعور الأصلي وتضفي عليه غلالة زاهية ومغايرة.

التجسير بالاستيهام

في الفصل السابق برز إلى السطح سؤال لم يكن متوقعاً. فموضوعات الحب الأولى، أولئك الأشخاص الذين أثاروا أشد الإعجاب والحسد، هم من الجنس نفسه. كيف، إذاً، يحدث انزياح الإعجاب باتجاه الجنس الآخر؟ وإذا كان المحبوب (وليس المرغوب فيه جنسياً!) تشخيصاً لمثال الأنا الخاص بالمرء، فكيف يمكن، مثلاً، لمثال أنا الولد أن يتحول بحيث يقع هذا الولد في حب بنت؟ إن سيرورة كهذه لهي بعيدة الاحتمال. ولعلني أخفقت في أن أوضح تماماً أن المحبوب لا يشخّص مثال الأنا تماماً، وإنما يصبح بديلاً له. فالموضوع لا يتطابق مع الذات الأفضل المثالية، وإنما يتمّم الأنا بحيث يصبح دافع الكمال الذاتي نافلاً.

واسمحوا لي أن أعترف صراحة بأنّه ليس لدي تفسير جاهز مسبقاً لتغيّر موضوعات الحب، وبأنّه لا يمكنني عند هذا الحدّ من بحثي سوى أن أقدّم نظرية تحتاج من التحقق والإثبات أكثر مما هو متوفر لدي إلى الآن. لست أزعم، إذاً، أنني أقدّم حلاً نهائياً لهذه الإشكالية، وإنما مقاربة لها هي أقرب إلى المحاولة. وأنا أعلم ما في نظريتي من ضعف، كما أنني مستعد للتخلي عنها فوراً حالما تظهر نظرية أفضل

كما بيّنت آنفاً، فإن تحولات البلوغ الكبيرة هي المسؤولة إلى حدّ بعيد عن انتقال العاطفة باتجاه الجنس الآخر. فالحافز الجنسي المشتدّ يكشف الطريق الذي سيتخذه التوق الشديد إلى الحنان. وفي طور معين من أطوار هذا النمو الفردي تظهر أحلام يقظة جديدة غريبة تتركّز على الجنس الآخر، أو بالأحرى على فرد من الجنس الآخر. ولقد علمنا لأول مرة بوجود هذه الأحلام لدى التحليل النفساني لاستيهامات الاستمناء، التي يتمّ فيها تخيّل واستحضار شريك من الجنس الآخر. ويقوم الأولاد أو البنات بلعب دور مضاعف في هذه الاستيهامات. وعلى سبيل المثال، فإن الولد يتخيّل كيف يمكن

أن تتصرّف في أوضاع معينة بنتٌ يعرفها أو يتخيلها. وفي عديد من استيهامات الاستمناء يتلفّظ الولد نفسه بكلمات يتخيّل أن البنت تتلفظ بها، ويومىء بإيماءاتها أو يقلّد حركاتها، في ممارسة للحب متخيّلة بالطبع. ومن الواضح أن اضطلاعه بدور البنت فضلاً عن دوره الخاص هو نتيجة لوضع طارئ. فالشريك غائب، وعلى ممثل واحد أن يقوم بدورين في آن واحد.

هذه الاستيهامات الجنسية هي عملياً مواصلة لمسرحية شغلت الذهن في الطفولة، ومواصلة لاستيهام يبدأ من إمكانية متخيّلة: لو أنني وُلدتُ بنتاً (وبالنسبة للبنت: لو أنني ولدت صبياً). وثمة أفكار خيالية طفولية أو مسرحيات ذهنية مماثلة تتركز حول الرغبة بأن يكون الطفول ملكاً، وملكة، وهلمجرا. ومن ثم فإن مواصلة مثل هذا التفكير المتقطع، ومثل هذه البروقات الذهنية المتعلقة بتغيّر جنسي متخيل، تتم بالاتجاه التالي: ما الذي أودّ أن أبدو عليه عندئذ؟ ما الذي أودّ أن أكونه لو كان التغيير ممكناً؟ ويشبه حلم اليقظة هذا شبهاً نموذجياً ذلك الحلم المتبوع بمواصلة فكرة «لو كنت ملكاً»(*). وهذا الاحتمال الذهني، هذا الوهم العجيب، نجده عند أي طفل بعد أن يكتشف، مباشرة، لا الاختلاف الجنسي بحد ذاته، وإنما أهميته الانفعالية، وبعد أن يلاحظ أن أفراد الجنس الآخر يبدون ويتصرفون على نحو مغاير، وبعد أن يقوّم هذه التباينات في فكره لبعض الوقت. (إنَّ في شكل الجنس الآخر وطبعه شيئاً ما لا يُصدَّق بالنسبة للأصغر سناً). ويمكن التحقق بالتحليل النفساني من أن مثل هذه الأفكار المؤقتة، والأوهام العابرة، موجودة لدى أي ولد، وبالطبع، وإلى حد بعيد، لدى أي بنت. وهي تعاود الظهور في استيهامات المراهقين اللاواعية كما تشكّل لاحقاً عنصراً مهملاً ولكن مهماً في العديد من أعراض العصابين والذهانيين[1].

لست أعزو هذه الأوهام إلى العامل الأصلي والبيولوجي المتعلق بثنائية الجنس لدى الفرد، وإنما إلى قوة الخيال لدى الأطفال في مسرحياتهم الذهنية. ومعظم هذه الاستيهامات يرتدّ إلى اللاوعي لأنها تتعارض بصورة صارخة مع حقيقة جنس المرء

* - بالفرنسية في النص الأصلي: "Si j'etais roi!"

١ - إن ظهور هذه الاستيهامات لا يفوت، بالطبع، ملاحظة فرويد السيكولوجية، ولكنه لا يتعامل معها إلا بالارتباط مع تكوّن الجنسية المثلية، والشكل الأنثوي من المازوخية، وعقدة الخصاء لدى الرجال والنساء.

الخاص الثابت الذي لا يمكن تبديله. إنها تُطرَح جانباً وتُدان باعتبارها نوعاً من السخف. وبالطبع، فإن تأثيرات انفعالية أخرى تؤثر فيها إلى جانب الحسّ السليم؛ وسرعان ما يمتنع الطفل بصورة واعية عن الاضطلاع بدور الجنس الآخر ويبدأ بتفضيل جنسه الخاص، الذي يتصورّ أنه الجنس المرغوب فيه والمحسود. ومن الواضح - وهذا ما أود التعبير عنه بحذر - أن هذه الاستيهامات تحيا لاحقاً حياة سرية لفترة طويلة. ونادراً ما تخترق مستوى التفكير الواعي، كما هي الحال لدى الجنسيين المثليين، لكنها تستمد قوة مستجدة من مصادر خفية. وهي لا تبرز إلى السطح بشكلها الأصلي، وإنما تعاود الظهور، متحولةً في أحلام اليقظة لدى البلوغ: ما نوع البنت التي سأميل إليها وأحبها ؟ كيف ستبدو البنت التي أحبها وكيف ستتصرف؟

محلّ الهيئة Figure الاستيهامية الذاتية، التي تلعب دور الجنس الآخر، تحلّ الآن الهيئة الحلمية لموضوع حبي محتمل من الجنس الآخر. وهكذا تُخْلي رغبة المرء في أن يكون مثل شخص من الجنس الآخر مكانها للرغبة في تملّك ذلك الشخص تملّكاً خاصاً. ويبدو أن أهمية وعاقبة حلم اليقظة لدى الفتاة بأن تكون ولداً هي أكبر من أهمية وعاقبة الرغبة المعاكسة لدى الولد، وذلك في نموذجنا الثقافي على الأقل حيث يبدو دور الرجل محسوداً من قبل البنت المراهقة أكثر مما يحسد الولد الدور النسوي(٢). ومن المفهوم أن هيئة الأنا المكمِّل، والمغاير جنسياً، هي من إبداع الخيال، لكنه ليس مجرد إبداع هازل. فهي تكشف لا عن الإعجاب فقط، بل أيضاً عن نزوعات الحسد أو العداء تجاه الجنس الآخر. وإذا ما كنا قد أخذنا في الحسبان ذلك الجسر الواصل بين مثل هذه الأسس الانفعالية والحب، إلا أنه يحتاج هنا إلى إعادة بحث.

تحاول هذه النظرية التحليلية النفسية الجديدة أن تفسّر كيف تمّ التحضير لتحوّل العاطفة من الجنس المماثل إلى الجنس الآخر. إن عدم الرضا الفردي عن الذات يتواصل ويستبدلُ أو يزيحُ أثرَهُ. ويتيسّر الانجذاب إلى الجنس الآخر من خلال تحول حلم اليقظة السري الذي يظهر فيه الأنا في هيئةٍ مثالية idealized من الجنس الآخر. وهذه النسخة

---

٢ - يورد البروفسور ج . ديل يو . ألبورت في كتابه (الشخصية : تأويل سيكولوجي ، نيويورك ، ١٩٣٧) نتائج استبيان مجهول المصدر تبيّن أن البنات يتمنين أن يكنّ من الجنس الآخر أكثر بثلاثة أضعاف من الأولاد .

الاستيهامية الأنثوية أو الذكورية من الذات هي الحلقة المفقودة في سلسلة العوامل التي تجسّر الهوّة بين الاختيار الأصلي والاختيار اللاحق لموضوعات الحب. فهي تفسّر، كما أعتقد، انزياح العاطفة من الجنس المماثل إلى الجنس الآخر. ذلك أن الهيئة الاستيهامية للذات في دور البنت تتطور إلى هيئة مُتخيلة لبنت مثالية محبوبة. وتمكن مقارنة هذه النقلة بتلك التي تتم من بروفة يؤدي فيها الممثل دور ممثل آخر غائب، فضلاً عن دوره الخاص، إلى عرض حقيقي، يؤدي فيه كل ممثل دوره.

أنا لا أخفي حقيقة أن النظرية التي أقدمها هنا هي أول محاولة لحلّ هذه الإشكالية. وهكذا فإن فيها نواقص وعيوب المحاولة الأولى. ويبدو أن ملاحظاتٍ وخبراتٍ كثيرة نستمدها من الممارسة التحليلية تفضي إلى إعادة بناء سيكولوجية من هذا النوع أو من نوع يشبهه. لكن هذه الإشكالية تحتاج إلى مزيد من الشرح والدراسة. فالظاهرة بحد ذاتها بعيدة عن أن تكون مفهومة تماماً. ولا يمكنني أن أقدّم من الأدلّة سوى خبرتي، التي تبدو على أنها تدعم نظرية المثال المتمِّم comblementary ideal من الجنس الآخر ودوره في تطور الحب لدى المراهق.

هذه هي المحاولة الأفضل التي قام بها رجل بائس جداً مثل هاملت، وهي تذكّرني أن بين يديّ سلطة تخوّلني أن أعرّج على شكسبير. ففي العديد من كوميدياته نجد أن ثمة من يتنكّر بزي فرد من الجنس الآخر. بورشيا المحبّبة، روزالين الظريفة، جيسيكا البارعة، جميعهن يظهرن في هيئة رجالية. وكل من يصغي إلى أقوالهن لن يشكّ في أن هذا التحول هو أكثر من تمويه. فهاته الفتيات لا يتمنين أن يظهرن بمظهر الرجال وحسب، بل أن يكنَّ رجالاً أيضاً. ومن الواضح أنهن يلعبن جيداً دور الرجل نظراً لتدربهن على الدور مرات كثيرة في تخيلاتهن. ولنقل إنهن، وقد عزمن على أن يكنّ رجالاً، يحققن مثال الأنا الخاص بهنّ بلغة الجنس الآخر، الأمر الذي يتيح لهن إظهار ما حلمن بأن يظهرن عليه وما سيكون عليه سلوكهن إذا ما كنّ رجالاً. هذا هو المعنى الخفي أو اللاواعي للتنكر. والشخصيات الأخرى تقبلهنّ كرجال وتنخدع بمظهرهن وكلامهن وطرائقهن الذكورية. وهن يلعبن الدور بحميّة. لكنّ النهاية هي ذاتها دوماً؛ حيث يعدن فتيات مرة أخرى ولا يستطعن مقاومة طالب يدهن فترة أطول فيرتمين بين ذراعيه. إنهن يرتكسن كما لو أن أداء الدور كله كان قد استنفد إمكانية التخيل وكما

لو أنهن مستعدات الآن لقبول الرجل الواقعي في مكان مثال الأنا الذكوري الذي كان، من قبل، حاضراً من خلال التنكّر. إن هذا التمثيل هو مسرحية الفتاة البالغة التي تواصل استيهاماتها الحياة لفترةٍ قصيرة. لكن هذا التمثيل ليس سوى الجسر المفضي إلى المحبوب؛ فسرعان ما يحتلّ هذا الأخير مكان مثال الأنا، وتتخلّى هي للرجل الحقيقي عن الدور المزعوم.

أليس تحولاً واضحاً لمثال الأنا من الذات إلى رجل ما نراه في مثل هذا التنكّر الهازل وفي الإرباكات والأخطاء التي تفضي إلى النهاية السعيدة؟ ألا يظهر شبيهاً بكوميديا الأخطاء في المسرحيات الإليزابيثية ما يحدث في استيهام الكثير من المراهقين؟ وفي النهاية يقتحم رجلٌ مطلوب ومرغوب فيه المشهدَ الذي كانت تهيمن عليه في السابق الشخصية المثالية للحالمة نفسها لاعبةً دور الرجل. فبعد الأداء التنكري يأتي الأداء الحقيقي، لكنّ دوري المؤدي على الخشبة الذهنية يكونان مقلوبين. إنّ التنكر الهازل لدى شخصيات شكسبير ودلالته في مسرحية الحب يدفعني إلى أن أتوقع أن الشاعر قد أدرك بصورة لا واعية أن سعي المرء إلى مثالٍ عن طريق الانتحال الموهوم لدور الجنس الآخر له مهمة سرية في محاولة الوصول إلى الحب. وفي النهاية تعبر السيدة هذا الجسر، لكن ليس قبل أن تقتنع بأن الرجل جدير بالمكان الذي كان يحتله مثال أناها من قبل.

أول البارحة

آلاف عديدة من الكتب والمقالات كُتِبَتْ حول تاريخ الحب. أنثروبولوجيون ومؤرّخون، سيكولوجيون وفلاسفة وعلماء من كل الأمم انشغلوا بهذا الموضوع بكل دأب وعناء. ومن بينهم أسماء مشهورة تماماً: سبنسر، ويستر مارك، هافلوك، أليس، فرويد، موللر لاير، لوقا، ڤان دي ڤيلد، وكثيرون غيرهم. ونحن نثمّن عالياً فضائل هؤلاء البحّاثة، لكن قيمة بحوثهم آذاها مفهومهم عن الحب. فالحب بالنسبة لغالبيتهم هو جزء من الجنس أو مشتق منه. وهم لا يدركون أن الحب مغاير تماماً للجنس في منشئه وطابعه فضلاً عن كونه منبثقاً من جذور مختلفة تماماً.

تاريخ الحب موضوع خاص، تجب معالجته على نحو مستقل عن تاريخ الجنس إلى أن يلتحم الحافزان واحدهما مع الآخر. وسوف ألجأ إلى مقارنة بغية توضيح الفارق: فتقصّي تاريخ الجنس تمكن مقارنته ببحث الجيولوجي الذي يعزل طبقة معينة من الطبقات المشكّلة لجبل ما ويستدلّ منها على التغيرات التي حدثت في زمنٍ ما قبل التاريخ. أما تقصّي التاريخ الباكر للحب فهو مثل عمل الأركيولوجي الذي ينقّب في خرائب هيكل قديم مبنيّ بحجارة من مقلع مجاور. والفارق بين هذين الاستقصاءين ليس مجرد فارق في عمر الشيء المستقصى عنه وحسب؛ إنه فارق في طبيعة الموضوع، على الرغم من عناية كلا الرجلين بالتاريخ. فالبحث من النوع الأول هو جزء من العلم الطبيعي، أما البحث من النوع الثاني فهو جزء من تاريخ الحضارة. صحيح أن الموضوعين يتداخلان في كثير من النقاط، لكنهما ليسا الموضوع ذاته. وكثيراً ما يحتاج الأركيولوجي إلى عون الجيولوجي، لكنّ منهجيهما متباينان تباين موضوعيهما، وهو تباين يبقى قائماً على الرغم من تعاون الرجلين في بعض الأحيان.

طوال عصور أقام البشر المتواجدون على ظهر البسيطة علاقاتهم الجنسية، وعاشوا حيواتهم دون حب. والإنسان البدائي، الذي حَظِيَ بالمأكل، والمأوى، والنساء بوصفهن موضوعات جنسية، لم يشعر بأي حافز للحب. لم يكن الحب حاجة حيوية، واستطاع الإنسان البدائي أن يحيا على نحو مريح دون أن يتنبّه إلى ما يدعى بالغرام.

ويبقى تاريخ الحب، إلى حدّ بعيد، مجهولاً بالنسبة لنا. كيف أتى الحب إلى هذا العالم؟ ولماذا ومتى؟ كيف كانت أشكاله الأصلية، وفي ظلّ أية ظروف اتّحد الجنس مع الحب؟ ليس لدينا - وما من أحد لديه - أجوبة، وتخمينات الجميع بهذا الصدد لا تتميز عن بعضها بعضاً. وما سترونه هنا هو حدس محض، مؤسس على أدلّة ظرفية مستمدة من الخبرات التحليلية. إنها محاولة في إعادة البناء، أعزو إليها درجة من الاحتمال، لا أكثر ولا أقل. ويبدو لي أن إعادة البناء هذه ربما كانت أقرب إلى القصة الواقعية من أية محاولة أعرفها. وبعد كل شيء، ليس ثمة حاجة لأي تبرير أو أعذار. ويبقى أن امتياز بعض المحللين النفسانيين يكمن في إخفائهم الافتقار للخيال خلف الولوع بالأدلة والبراهين في حين يكون واضحاً أنّ ما من أحد يمكنه أن يكون في منجى. وهكذا كان لتاريخ الحب طابع الحكاية التي تسبق النوم، في المحاولات القليلة التي قام بها محللون نفسانيون لإعادة البناء هذه.

شيء واحد محقّق ولا يقبل الجدل: الحب أحدثُ سناً من الجنس بكثير. لقد ظهر الجنس باكراً على هذا الكوكب، وهنا يبقى. وحتى لو أمكن ردّ منشأ الحب إلى زمن سابق على زمننا بآلاف عديدة من السنين فإنه يبقى أحدث سناً من الجنس. فقد وُجد الجنس بوجود البشر الذين يتنفسون على هذه الأرض. وهو قديم قدم الجسد الأنثوي. أما الحب فقط ظهر متأخراً جداً. ولعلّ ظهوره الأول لم يكن مرتبطاً بالجنس، بل بعلاقات أخرى. ولقد دخل الحب متأخراً كثيراً إلى العلاقة بين الجنسين. لم يكن له منشأ مغاير لمنشأ الجنس وحسب، بل عاش أيضاً وجوداً منفصلاً لزمن طويل كما كان له تطوره المختلف. لقد وجد الجنس قبل أن يتعلّم الإنسان الوقوف منتصباً، وقبل أن يلهج باللغة أو يكتشف النار. كان موجوداً حينما خرج الإنسان للصيد والقنص؛ ولقد رافقه منذ الأطوار المديدة من حياته التي كان فيها شبيهاً بالحيوان. أما الحب فلا يكون

ممكناً قبل أن يتمّ بلوغ طور متقدّم نسبياً من التطور. فهو نتاج الحضارة. ويدلّ ظهوره على أنّ الدوافع العمياء والعنيفة قد تمّ ضبطها وتحويلها جزئياً.

لا أعتقد أن العاطفة تنجم عن العلاقة بين الجنسين، وإنما التحمت مع الجنس لاحقاً. ونحن نعدّ الحب نتيجةً لارتكاس انفعالي ضد الحسد الأصلي، والغيرة، والتملّك، وضَرْباً من التغلّب على نزوات العداء والجشع. ومثل هذه المشاعر بين الجنسين لم توجد في المجتمع البدائي إلى أي حدّ مُعْتَبَر، بل برزت إلى الوجود بين أعضاء الجنس الواحد. فبين الرجل والرجل كان ثمة نزاع، وحسد، وغيرة؛ كان ثمة إعجاب وطموح لأن يكون واحدهما مثل الآخر المتفوق. وحتى مثل هذه الحالة الانفعالية لم تصبح ممكنة إلا بعد أن بلغت عملية التفريق Defferentiation مستوى محدداً وتمّ إدراك أن شخصاً محدداً ليس متمايزاً وحسب، بل وأعلى أو أدنى من غيره. وهذه المقدرة على تمييز القيم هي طور متأخر من الحضارة. ولقد نشأت العاطفة من الصراع بين نزوعات العدوان والتملّك والنزوات المضادة لها. وهكذا فإن حقلها الأول لم يكن مُلتقى الرجل والمرأة، وإنما البقعة حيث يلتقي أعضاء القبيلة الواحدة أو الجماعة الاجتماعية الواحدة، لم يكن المكان السري للقاء إثنين، وإنما مكان الاجتماع العام للجماعة نصف المتحضرة.

وبعد زمن طويل، بعد آلاف كثيرة من السنين، تحوّل الحب من هذا الإعجاب الأصلي للرجل برجل إلى ميدان العلاقة الجنسية. ولم تصبح مثل هذه النقلة ممكنة إلا عندما نشأ توتر بين الجنسين، وعندما جعل النزاعُ الحلّ ضرورياً، وعندما تحوّلت النساء من أدوات للإشباع الجنسي إلى موضوعات للحسد والإعجاب. ولذا فإنني أزعم أن مكان ولادة الحب لم يكن قرب غرفة النوم البدائية للزوجين اللذين يقيمان علاقات جنسية، وإنما حيث يقيم المجتمع البدائي مبارياته، ورقصاته، ومناقشاته. والمشاعر العاطفية المبهمة الأولى ربطت أعضاء الجنس الواحد مع بعضهم بعضاً كتعبير عن إخضاع نزوات التنافس، والحسد، والعداء. وهذه التطورات المقترحة تتساوق عموماً مع تلك التي نلاحظها لدى الفرد، الذي تظهر لديه العواطف الأولى تجاه الأخوة والأقران الذين كانوا منافسين له قبل أن يصبحوا أصدقاء.

ولكن كيف دخل الحب إلى العلاقة بين الجنسين؟ لا نعلم. لكنني مقتنع أنه لم يكن هنالك منذ البداية. وهاكم حدسي: كانت المرأة في البداية مجرد موضوع جنسي للرجل

ومعاوناً له في العمل[١]. ولم يكن الاتصال الجنسي، في البداية، مختلفاً كثيراً عن الاغتصاب. فالرجل البدائي كان ينقضّ على المرأة بضراوة ويسيطر عليها بالقوة. (صوّر الرسام الفلمنكي روبس مثل هذا العراك بين رجل الكهوف والأنثى). والتعابير العامية مثل «ساحر النساء»، و«ذئب»[*] وغيرها، تذكّرنا بصورة لا واعية بهذه الأشكال البدائية من ممارسة الحب. كان الجنس مترافقاً في البداية مع العدوانية، والوحشية، والقسوة من قبل الذكر، كان إخضاعاً عنيفاً للأنثى، التي قاومت بكل ما لديها من قوة. كان الرجال يعاملون النساء بخشونة ويجبرونهنّ على اتخاذ موقف الدفاع. كان ذلك هو عالم الرجل. وكانت ولادة الإنسان امرأةً، حينئذٍ، تعني حياة مشقّة ذليلة.

ليس لدينا أدنى فكرة حول كيفية تغيّر العلاقات الجنسية وتلطّفها وفقدانها لعنصر القوة، وتحت تأثير ماذا. لاشك أن هذا التغير يدلّ على ثورة في التطور قبل التاريخي للإنسان. ثورة لطّفت الطابع الوحشي للفعل الذي كان تعدّياً عنيفاً أكثر منه اتصالاً جنسياً، ولم يكن ليترافق فيه الارتياح الجسدي مع الحنان. وما كانت تشعر به المرأة لم يكن، في البداية، مهماً. العضّة كانت قبلة هذا الطور قبل التاريخي. والفعل العدواني الهادف إلى الإشباع الجنسي، وإلى إنقاص التوتر الفيزيائي، لم يكن متبوعاً بأي انفعال. ولا يزال شيء من الضراوة والهمجية متبقياً من هذا الاتصال الجنسي شبه الحيواني حتى يومنا هذا[٢]. وحتى الآن لا يزال طابعه قريباً جداً من طابع الصراع

١ – لا آخذ بالحسبان هنا الطور الأمومي الذي ربما سبق حكم الذكور في المجتمع . ونحن نعرف اليوم قبائلَ النساءُ فيها هنّ الجنس المهيمن ، كما نعرف بقايا من النظام الأمومي القديم لا تزال موجودة في العديد من الطقوس . ولعله مرّ على المجتمع البدائي عموماً زمن كانت فيه نساء عملاقات ، مثل الأمازونيات ، هن اللواتي يحكمن المجتمع . ونحن لا نعرف كيف أخلى هذا الطور من التفوق النسوي المكان لحكم الرجال . والطور الطويل من الحق الأمومي في الحضارة الإنسانية ، مقارناً بالفترات الباكرة من حياة الطفل مع أمه ، ربما تبعه زمن بدأت فيه المعركة بين الجنسين بتمرد الذكر ، الذي أخضع النساء في النهاية لحكمه .

* – Wolf ، ذئب ، وأيضاً زير نساء ، أما المعنى الحرفي لساحر النساء ، Lady- Killer ، فهو قاتل النساء .

٢ – وصفت امرأة شابة زوجها في الأشهر الأولى من الحياة الزوجية كما يلي : «إن طريقته في ممارسة الحب كانت ببساطة ، عسكرية ، وكان جسدي ساحة العَرْض» . وإنها لمدهشة حقاً تلك الخراقة والافتقار للفهم السيكولوجي مما يبديه كثير من الرجال المثقفين في مقاربتهم الجنسية . وإذا ما استخدمتُ تشبيهاً ، فإن كثيراً من الرجال يبدون كما لو أنهم يفضلون تحطيم الباب بدلاً من فتحه . ولقد اشتكت امرأة من قوة وخشونة زوجها حديث العهد : «إن الأمر كما لو أنه يريد توضيب حقيبة السفر» . وتشعر معظم النساء أن مقاربة الرجال الجنسية جدّ منقطعة ومفصولة عن سلوكهم الاجتماعي العادي تجاه النساء . وتعتقد النساء أنه ليست هنالك أية انتقالات ، أو أنها قليلة جداً ، من المغازلة إلى الجنس . وحسب تعبير إحدى المريضات ، فإن الجنس لدى الرجال «فوري جداً . وتوقُّع أن الرجل سينتظر إلى أن أكون مستعدة هي بمثابة طلب للقمر» .

الضاري والمضني. واللغة الفرنسية تستخدم للتعبير عن الاتصال الجنسي عبارة Faire L'animal avec deux dos(*).

وحتى بعد أن حصل تغيّر أساسي، فإن العلاقة الجنسية لم تكن سوى إرضاء للدافع الجنسي الفجّ. لم تكن علاقة شخصية. وبعد التفريغ لم يكن هنالك سوى اللامبالاة تجاه الشريك، دون أي أثر للحنان. ولم يربط الرجل ولا المرأة الجنس بالتشارك والرفقة: يلتقي إثنان ويقيمان اتصالاً جنسياً ثم ينفصلان. لم يكن ثمة أي رباط آخر بين الإثنين. كانت اهتماماتهما متباينة. ولم يكن بينهما ما هو مشترك سوى الإحساس الجسدي الذي يدوم دقائق معدودات. والتغيرات التي أدّت إلى إنقاص العنف في الجنس (والتي لا نستطيع تخمين طبيعتها) لم تساهم أي إسهام في تشكيل التشارك الانفعالي بين الجنسين.

ويبدو من الواضح أنّ هذا التغيّر الأول في طابع العلاقة الجنسية كان من فعل النساء. ولا تزال مجهولةً تلك الوسائل والظروف التي في ظلها جعلت النساءُ الرجالَ يتخلّون عن عنفهم ووحشيتهم في إشباع الحافز الجنسي. من المؤكد أنّ هذا التغيّر لم يحصل فجأة. ولعل تلطيف العنف الذي كان موجوداً في المقاربة الجنسية الأصلية قد استغرق قروناً عديدة، ولكنه كان انتصاراً حققته النساء. فما عدن بحاجة لأن يخفن من الأذى أو الانجراح في العلاقات الجنسية. وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو أنسنة الجنس Humatization، منذ آلاف السنين التي خلت. ولكن يجب ألاّ ننسى أن همجية الرجل لم تُستأصل تماماً قط. ولا تزال لدى النساء بقايا من الخوف البدائي تجاه جنسية الذكر. وهذا ارتكاس أوليّ يتم التأكيد عليه في موقف النساء الهستيريات. (قال لي فرويد مرة: «المرأة التي لا تكون هستيرية على الأقلّ هي بقرة»).

حتى بعد هذا التغيّر لم يكن هناك أي تبدّل أساسي في العلاقة بين الجنسين. ففي عصر الماموث والذئب الكبير لم يكن للأنثى كبير سلطة على الرجال. لعلّ الرجل كان مستعداً آنذاك لأن يقدّم من أجلها شيئاً ما، ولكن ليس روحه بالتأكيد. ولم تصبح النساء ذوات سلطة إلاّ بعد أن كان الرجال قد بدأوا يحلمون بهنَّ في يقظتهم؛ ذلك أنهن، ورغم كل شيء، أكثر إغواءً في الاستيهامات منهن في الواقع.

* – بالفرنسية في النص الأصلي [نلاحظ وجود كلمة «حيوان» في التركيب!] .

البارحة

حصلت الثورة الثانية مع دخول الحب إلى الحياة الجنسية أو مع ولادة الغرام، كما نقول اليوم. وكان هذا تقدماً على طريق الحضارة الإنسانية بمثل أهمية تحرير العبيد. ونحن لسنا قادرين على تحديد تاريخ هذا الحدث العظيم، شأنه شأن التطور الثوري الأول في الحياة الجنسية والذي سبقه بآلاف عديدة من السنين[1]. هل يمكننا أن نخمّن كيف اندفع الحب - ولنسمِّه الغرام - إلى ميدان الجنس؟ ها أنا أعترف صراحة أن الفرضية التي سأقدمها ليست قائمة إلاّ على عديد من التبصّرات المستحصلة من التحليل النفساني لرجال ونساء من زمننا، وعلى مقارنة هذه النتائج مع آثار تطور ممكن يمكن لنا أن ندرسه في مساهمات مؤرخي الحضارة والأنثولوجيين. وإنني لأزعم أن هذا التطور كان من فعل النساء. فقد علّمن الرجالَ الحب مثلما عملن من قبل على تلطيف الهمجية في التعبير الجنسي الذكري. وإنني لأتخيّل أن معاملة النساء اليومية كانت خشنة، وعلى الأقل لا مبالية، وأن الرجال كانوا يفضّلون رفقة الرجال، وينظرون إلى النساء نظرة دونية ويعتبرونهنّ موضوعات جنسية ومعاونات في العمل وحسب. وفي هذا الزمن أقام النوع البشري نظاماً أبوياً (بطريركياً) ومؤسسة القبيلة. وكانت كل المنطلقات السيكولوجية للغرام مفتقدة؛ لم يكن هناك أي توتر انفعالي، ولا حسد

---

١ - إميل لوقا (Die drei Stufen der Erotik ، درجات الغلمة الثلاث) ، دينيس دي روجيمون (الحب في العالم الغربي ، نيويورك - ١٩٤١) ، وغيرهما من الكتّاب (آندريه موريس Visages de L'amour ، وجوه الحب ، نيويورك - ١٩٤٢) أكّدوا أن الحب نشأ في زمن التروبادور ، بين القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، وأنه أُدخِل عن طريق عبادة السيدة العذراء . ومعظم هؤلاء الكتّاب يعتبرون الحب ، شكلاً سامياً ، وروحانياً من الدافع الجنسي . ولا حاجة بي للإشارة إلى أن البحاثة الذين يزعمون معرفة ميلاد الحب في تاريخ النوع البشري يخلطون مرحلة الذروة من تطوره مع بدايته . إن مثل هذه الأقوال فيها من الفانتازيا بقدر ما في تأكيد مؤرخ للأدب أنّ التراجيديا ظهرت أول ما ظهرت في مسرحيات شكسبير .

أو غيرة، ولا حاجة للانتزاع. كان الرجال ينالون إشباعهم بمجرد الامتلاك الجسدي للنساء. وكانوا يستعملون النساء جنسياً ثم يلقون بهنَّ جانباً. لم تكن للنساء أية أهمية كأشخاص وإنما كأدوات جنسية وحسب. ولم تتغيّر الحياة الجنسية أو أنها تغيرت بحدود تطور الماموث إلى فيل. تطوُّر العاطفة وحده غير طابعها ووسّع ميدانها.

مع الحب جاء إلى العالم شيء جديد، تمكن مقارنته بظهور الإنسان بين الثدييات البدائية. ولابدّ أن بعض النساء قد تمردن على اعتبارهنَّ مجرد متاع للرجال، ولابدَّ أن ذلك قد خلق وضعاً أفضل لتبرعم الغرام. وباعتقادي أنّ قلة من النساء المتفوقات، أو مجموعة منهن، خلقنَ جواً انفعالياً في موقفهن من الرجال أثار توتراً، وحسداً، وإعجاباً نافراً كان بمثابة عنصر جديد في العلاقة بين الجنسين. فالنساء اللواتي كنَّ في البدء مجرد موضوعات للإشباع الجنسي - ويمكن القول أيضاً، مجرد ضحايا لحافز الرجال الجنسي - غيّرن الوضع إلى وضع صرنَ فيه موضوعات للتوق، ولم يعد الرجال يرغبون فيهنّ جنسياً وحسب بل يغازلونهنَّ أيضاً. ويمكن لنا أن نخمّن أن البواعث الأشد لدى النساء كانت حسدهنَّ وعداءهنَّ للرجال ووضعهم المتميّز. فقد كانت النساء خاضعات لحوافز الرجال الجنسية؛ وما كنّ يشعرن بالحاجة الجنسية بالحدّة نفسها ولا بالدرجة ذاتها من الإشباع الحسّي. وراح بعضهنّ ينازع الرجال بالثورة على ما نالهن من خزي وما خضعن له من معاملة فظة، إن لم يكن في الاتصال الجنسي، فخلال الحياة اليومية.

لقد شرعن بالتمرد على رجالهن. وما عدن يستسلمن بحماقة وعدم اكتراث لرغبات الرجال الشهوانية، وإنما استحضرن أنفسهن وأنكرن ما كنَّ يقمن به من أعمال الخدمة. وراح الرجال يضربونهنَّ ويقسرونهن على الخنوع. وكان عليهن أن يستسلمن، لكنهن لم يُهزمن. وأدرك الرجال أن النساء لم يعدن أدوات طيّعة يعبثون بها، وإنما صرنَ يُبدين مقاومة تجاه القوة ولا يستسلمن لها إلا كارهات. خضعن، لكن بعناد وتأفف. واستسلمن، لكنهن لم يتراخين قط. امتثلن، وربما عانين بصمت وصلابة، لكنهن لم يستجبن. وكانت نساء حقبة ما قبل التاريخ يحجبن أنفسهن عن أزواجهن وعشاقهن إذا ما شعرنَ بمعاملة سيئة. أما سيدات أيامنا فلديهنّ الصمت ذاته إنما مع نوعٍ ساحق من الرد السريع وحضور البديهة.

كان ثمة أمام الرجل طريقان مفتوحان لملاقاة هذا الوضع الجديد: إما أن ينال بالقوة ما بدأ يفقده من الإشباع، أو أن يسعى خلف نساء أخريات أكثر استعداداً للإذعان لرغباته. ولا شك أنه جرّب كلا الطريقين. ولقد ثبت أنهما غير مشبعين في نهاية المطاف، حتى لو عملا على تسكين حوافزه الجنسية لبعض الوقت. وهكذا بدأ استيهامه ينشغل بامرأة واحدة تتمنّع عليه، أو تمنحه نفسها بسبب قوته الجسدية وحسب، بسبب عنفه. وعندئذ اكتشفت النساء السبل والوسائل لإشغال خيال الرجال. ولقد تعلمن أن يُقدمن ويحجمن بحيث بقيت صورة المرأة الواحدة التي تتمنّع وأثبتت أنها أقوى من واقع النساء الأخريات الخانعات. وكان على الرجال أن يتعلموا سلوك الطريق الصعب كي يتمكّنوا من جني مزيد من العسل لا مزيد من الخل. لكن دربهم إلى الحب كان وعراً.

خلقت المرأة وضعاً يشتمل على كل الإمكانات الانفعالية لولادة الغرام. عبق الجو بالتوتر والعداء والحسد. وبرفض المرأة منح نفسها، اكتشفت الشرط اللازم لخلق التوق لدى الرجل. ولابدّ أنه قد شعر أن بمقدوره إعادتها إلى الخنوع والطاعة، والتغلّب على ممانعتها ومقاومتها، إذا ما قام بما تريده. كان الرجل البدائي في وضع يائس. ولابدّ أنه ذُهِلَ، ولعله كان يتساءل، لو قُيِّض له أن يعبّر بلغتنا: «يا للجحيم، ما الذي تبغيه؟». ومن المؤكد أنه لم يكن أقل خراقة وحمقاً من كثير من رجال زماننا. وربما كان مهتاجاً وساخطاً ومرتبكاً، شأنه شأن كثير من الأزواج والعشاق الشباب الذين هم اليوم في وضع يشبه وضعه. فهم، وقد استعدوا للقيام بما يُطلَب منهم، لا يعرفون ما يتوجب فعله حين لا يُطلَب منهم؛ فتراهم وقد سيطر العجز عليهم بسبب افتقارهم إلى الشعور والحسّ تجاه الرغبات الصامتة. لاشك أنّ الرجل البدائي حاول مقاربة المرأة الراغبة عنه بطرق خرقاء مختلفة. (ألم يلاحظ بلزاك أن تعبير الرجل عن هواه هو في بعض الأحيان مثل محاولة الأورانج أوتان(*) العزف على الكمان).

وعلى أية حال، فقد دلّته رغبته في أن يرى زوجته تسلك سلوكاً حسناً من جديد على حلٍّ تمثّل بأن يتصادق معها ويعاملها معاملة حسنة، وأن يخطب ودّها ويكسبها. ومن خلال هذه العملية، تعلّم الرجال أن بمقدورهم تحقيق رغباتهم عن طريق وسائل أخرى

* – orangoutan: ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان يقطن في بورنيو وسومطرة.

سوى مقارعة الشخص الذي يقاوم. ولقد سبق للرجال أن تعلموا التعاطف مع غيرهم من الرجال، وتعلموا أن يكونوا لهم رفاقاً لا أعداء. وبتغلّبهم على عدائهم وحسدهم، بدأوا يحبّون النساء. وهكذا ولدت العاطفة، وظهر الحنان لأول مرة في العلاقة بين الجنسين. وبعد ذلك، حين كانت النساء يشعرن بسوء المعاملة والإذلال، كنّ يرفضنَ منح أنفسهن مرة أخرى، وكن يستخدمن سلاحهن الوحيد: الانقطاع عن الرجال. وفي ظل هذه الظروف كان على الرجل أن يسترضي المرأة ثانية، وأن يتودد إليها ويستعيدها إليه.

وفي النهاية، أصبح رفض المرأة الاستسلام إلا بمشيئتها ضماناً لها ضد الخزي والعداء، وضماناً بأنّ الرجل سوف يعاملها معاملة حسنة، ولن يزدريها أو يجرح كبرياءها. وأصبح الحب، والتقدير، والإعجاب، والتقويم الرفيع هو المنطلق الضروري من أجل الاستسلام لرغبات الرجل الجنسية. وأصبح رفض إغواءاته الجنسية، إن لم يكن قد تعلم بعد أن يحبها باعتبارها شخصاً، جزءاً أساسياً من تكتيكات المرأة في المعركة بين الجنسين. وهنا بذرة الانفعال المشبوب الذي نلحظه اليوم، وأرومة ما ندعوه بالغرام. وأودّ أن أشير - بكل تهذيب، بكل تهذيب - أن الحب، سواء أكان خيراً أم شراً، هو من ابتكار السيدات، وليس الرجال.

لقد خلق تمرد النساء على احتقار الرجال لهنّ، وسوء معاملتهم إياهن، حاجة جديدة لدى الحيوان الذكر. ولابدّ أن انطباعاً حَدسياً تكوَّن لدى النساء مفاده أن الرجال سوف يقدّرونهنَّ أعلى بكثير ويعاملونهنّ بلطافة أكبر إذا ما أمكن جعل العلاقات الجنسية أصعب منالاً وأشد كلفة. وربما تعلّمن من تربية أطفالهن أن حالات التمنّع والرفض بين الفينة والفينة سوف تثني إرادة الأولاد؛ وهل الرجال سوى أطفال كبروا؟ وتحقّقت النساء بوضوح من أنّ عليهنّ أن يمثّلن ما هو أكثر من موضوع للإرضاء الجنسي وحيوانٍ للعمل المنزلي، إذا ما أردن من الرجال أن يقوّموهن على نحو مختلف ولا ينسوا وجودهن بعد بضعة دقائق من التفريغ الجنسي. لقد حسدن سلطة الرجال عليهن وأُعجبن بها إعجاباً حاقداً، وأردن قلب الأدوار وزرع الغيرة والحسد في قلوب الرجال.

وهكذا خلقن توتراً، ومشاعر حسد وجشع ورغبة بالانتزاع، وهي الشروط اللازمة الضرورية للتوق الانفعالي الجديد. وهكذا فإن النساء اللواتي كن من الشجاعة حدّ المجازفة بكل شيء كي يكسبن كل شيء أثرن خصومة الرجال وعداءهم. كما ضمنّ

أيضاً، وبأسلوبهن الحاذق، وسائل التغلّب على المشاعر السلبية وقلبها إلى عاطفة وحنان. أما الرجال الذين كانوا قد عاملوهنّ باحتقار ولا مبالاة حتى ذلك الحين فقد اضطروا إلى اتباع طريقة سلمية كي يتحولوا إلى عشاق بدلاً من كونهم حيوانات مهتاجة جنسياً. وليس ثمة إمكانية لدينا لمعرفة كيف أو متى حصلت هذه الثورة. ولا نعرف إلاّ أنها لابدّ أن تكون قد حصلت خلال طور معين من التطور الثقافي حين رفضت النساء أن يبقين مجرد موضوعات لحافز الرجال الجنسي وعدائهم. ولا تزال أصداء هذه الثورة النسوية ضد طغيان الرجال تتردد في الفولكلور، والأساطير، وحكايات الجنيات، وفي عدد هائل من آثار النزاع والتنافس في عصور ما قبل التاريخ، كما في الليزيستراتا، والأساطير الإغريقية عن الأمازونيات، وبرنهيلد والڤالكيريز في الفولكلور الألماني، وهلمجرا.

ثورة النساء اللواتي أردن أن يحظين بقيمة أعلى ومعاملة أفضل عبّدت الطريق للعاطفة والحنان في العلاقة بين الجنسين وخلقت الغرام في النهاية. فرغبة النساء في الانتقام أقحمت عنصر التوتر في اتصالهنّ الجنسي المملّ مع الرجال الذين كانوا يستهدفون أجسادهن وحسب في هجمات دورية من التهيّج الجنسي. وشعرت النساء أنه لابد من تغيير أساسي في موقف الرجال تجاههن. وأحسسن أنه، من أجل أن يكنّ موضع احترام، لابدّ من الكفّ عن أن يكن مبتذلات. ومن أجل أن يُنظر إليهن باعتبارهن غير عاديات، كان لابدّ من الكفّ عن أن يكن عاديات. كان عليهن في البدء أن يصبحن غريبات عن رجالهن قبل أن يكون بمقدورهنّ أن يأملن بحلول مودة In-timacy انفعالية جديدة محل إهمال وعدم اكتراث الرجال بهنّ. لقد أشعرن رجالهن بما شعرن به من قبل: الحسد، والطمع، والتملّك، والرغبة في حيازة الموضوع كلياً.

لم يتقدّم هذا التطور بالسرعة والنعومة التي صوّرتها هنا. ولعل هذه المعركة بين الجنسين دامت قروناً عدّة، ولاشك أن المسيرة كانت عسيرة. فترويض الشرس ليس مهمة يسيرة، خاصة إذا كان بمثل الترويض الذي حصل في السابق للحيوان الذكر. لابدّ أنه كان هنالك هجمات وهجمات مضادة، صراعات وانتقامات، لكنّ النساء حققن هدفهن في النهاية. يقول المثل الفرنسي: "Ce que veut la Famme, Dieu le veut"(*).

* – «ما تريده المرأة يريده الله» – بالفرنسية في النص الأصلي .

ولقد أفلحت النساء. وأضحى استعدادهن للجنس مكافأة تُجزى مقابل الصداقة واللطف الذين على الرجال أن يظهروهما مقدماً. وأضحى الإشباع الجنسي هو الهدية التي تقدم مقابل تحقيق مطالبة النساء بحقهن في أن يكن محبوبات. فطالما كن تحت رحمة الرجال، مهملات، ويُنظر إليهن من علٍ؛ وطالما كنّ موضوعات، لا للأشواق والتوق، وإنما للرغبات الجنسية، فإن الحب كان مستحيلاً.

في الأصل، دخل الغرام إلى العلاقة بين الرجال والنساء، لا كنتيجة للجنس أو عاقبة له، كما يتصوّر المحللون النفسانيون، بل بالتعارض مع الجنس، وكحاجز لابدّ من كسره قبل أن يتم منح الإرضاء الجنسي.

ولاشك أن دخول الحب إلى الحياة الجنسية قد مارس تأثيراً عجائبياً على تاريخ النوع البشري، شأن تأثيره اليوم على حياة أي رجل. لقد جاء كعنصر جديد ومُسْكِر كي يرافق الإشباع الجنسي مرافقة جعلت التجربة الجنسية أعمق وأغنى وأسمى، وتجاوز كل ما سبق للرجال أن عرفوه أو شعروا به. فعندما شرعت النساء بمشاركة الرجال مشاعرهم، أضحى الاتصال الجنسي لا مجرد متعة، بل سعادة تحولت إلى نعيم، حين بلغا كلاهما الذروة معاً.

لقد كان إذعان النساء وامتثالهن لمطالب الرجال هو الهدف الأول، أما استجابتهن الجنسية والحنونة فكانت الهدف التالي والأسمى. وما وَسَمَ الخطوة الأخيرة من هذا التطور هو تلك الأهمية المتزايدة التي صارت تحظى بها استجابة النساء، وحقيقة أنّ بمقدور الرجال أن يؤكّدوا لديهن عاطفة مرتدة بل وأن يوقظوا لديهنّ التلهف الجنسي. ولعل الرعشة orgasm الجنسية النسوية كانت حدثاً نادراً في الأطوار الأولى للعلاقات الجنسية. وحتى اليوم، فإن الاستجابة الجنسية للبنت العادية في علاقتها الأولى مع رجل غالباً ما تكون متأخرة.

انطلاقاً من الإعاقة التي يخلقها لدى المرأة شعورها الدوني الناجم عن كونها مُحِبّة، وفي حاجة لأن تكون محبوبة، كان بمقدورها أن توقظ لدى الرجل هذه الحاجة الجديدة. لقد استلّت من كبريائها الجريح قوة لم يُسمَع بها من قبل وغيّرت طابع جنسية الرجل. لقد أضرمت النار بإسقاطها مشاعرها الخاصة الخفية على الرجل، لكن ألسنة اللهب التي أضرمتها جعلتها تلتهب هي نفسها. كان الأمر كما لو أن شخصاً أضرم النار عامداً في بيت جاره فحملت الرياح المتقلّبة شرارات من المبنى المشتعل إلى داره هو. وصارت المرأة

الآن، بعد أن غمرها إدراك أنها ليست مرغوبة جنسياً وحسب بل محبوبة ومثيرة للإعجاب أيضاً، تشعر بالهوى الذي أيقظته لدى شريكها، وتنصهر في النار التي أشعلتها. تلك كانت معجزة التحام الحب والجنس، الحدث الذي هزّ تاريخ التطور البشري، والذي نادراً ما تمّت الإشارة إليه في أي كتاب مدرسي في التاريخ أو السيكولوجيا.

أودّ أن أؤكد ثانية أن الحب تصارع مع الجنس في الأصل، ذلك أن لهذا الأخير طبيعة عنيفة وامتلاكية، بينما يقتضي الحب الاهتمام والحنان. ولقد كان التحام هاتين القوتين المتصارعتين، القديمة الطغيانية والجديدة اللطيفة، وتمكّنهما من التحكم بميدان أوسع بكثير من ميدان الجنس المحدود، ضَرْباً من النصر المطلق. ليس الحب جنساً مكفوف الهدف أو مكبوحه بل، على العكس، فإن الحب يساعد على كفّ الجنس وتوحّشه. ليس الحب من نسل الدافع الجنسي، بل برز إلى الوجود كمنافس له، قارعه وفي النهاية اتحد معه. لقد حظّر الحبّ العداء المتصل بالجنس لدى الإنسان البدائي، ولطّف عدوانيته ووقي المرأة. ليس الحب جنساً متحولاً، بل هو الذي حولّ الجنس. فقد جعل موضوع اللذة الحسية موضوعاً للحب فضلاً عن كونه موضوعاً للرغبات الجنسية. ويعتبر الحب، ولهذا ما يبرره، مُحدث نعمة في عائلة الغرائز، وغريباً ومتطفلاً. فالحب، في الحقيقة، هو نتاج للحضارة التي عملت، كلما كان ذلك ضرورياً، بالتعارض مع الغرائز الأشد بدائية إلى أن احتل الحب مكانه بينها.

إنني أقدّم هذه الفرضية عن غزو الحب علاقات الرجال بالنساء ومعها كل التحفظات الضرورية لدى تقديم نظرية جديدة، لكنني أعتقد أنها تتمتع بدرجة عالية من المعقولية والاحتمال. وهي تطرح أسئلة عديدة؛ مثلاً، هل شعرت النساء بالحب تجاه الرجال قبل أن يشعر به هؤلاء تجاههن؟ هل يشتمل التطور المقترح على أن النساء أكثر قدرة على حب الرجال قياساً بقدرة الرجال على حبهنّ؟ وإجابتي دون تردد هي النفي. ففي الوضع الانفعالي الذي صوّرته هنا ليس الحب هو الذي اشترط التغيير، وإنما رغبة النساء في أن يكنّ محبوبات - هذه الرغبة التي تصنع عالماً مختلفاً. وفي هذا الطور، لم يكن ثمة أي «حب شخصي» (كما يقولون) في العلاقة بين الجنسين. (والحب الشخصي تعبير لفظي كما عند قولك: زنجي غامق اللون. فالحب لا يمكن أن يكون إلا شخصياً). لم تحبّذ النساء معاملتهن كموضوعات جنسية متماثلة، كقطع من اللحم

يمكن استبدالها بسهولة بغيرها من الإناث. وهن لا يحبّذن مثل هذه المعاملة حتى اليوم. وإنما يردن أن يُنظر إليهنّ كأفراد، كشخصيات لا يمكن خلطها بغيرها أو استبدالها بها.

طالما كانت النساء تشعرن بأنهن مُذَلات ويعاملهن الرجال باحتقار، ما كن ليستطعن الحب. كان لديهن الكثير الكثير من عدم الاطمئنان والقليل القليل من الثقة بالنفس. فكيف استطعن أن يحببن أولئك الرجال الذين أشعروهنّ بالدونية؟ لابد أنهن استعدن الطمأنينة وحظين بمزيد من الثقة، قبل أن يستطعن ذلك. ومثل هذا الشعور بالثقة لا يتأتى لهن من كونهن مرغوبات جسدياً لدى الرجل المتهيّج. فطالما كانت المرأة مجرد موضوع جنسي، تُستخدم مثل أية امرأة أخرى، دون تمييز، وتُعَامل معاملة سيئة، ما كانت قادرة على أن تحب نفسها. ومن ثم فإن النساء، ومن خلال اتباع نوازعهن العميقة، وليس عن طريق الحيلة والخداع، خلقن لدى الرجال توتراً ونزاعاً ولّدا في البدء الطمع، والإعجاب، والعداء، وولّدا في النهاية الرغبة في أن يكون المرء شبيهاً بآخر.

كل الشروط اللازمة للحب كانت موجودة مسبقاً في نفوس النساء. كل شيء كان جاهزاً من الناحية السيكولوجية، لكن النساء لم يحببن الرجال. كان لابد في البداية من أن يكنّ محبوبات هن أنفسهن. ويقول الناس أن هنالك فارقاً عظيماً في الحياة الانفعالية لكلا الجنسين، فالرغبة هي التي تنجب الحب لدى الرجال، أما لدى النساء فإن الحب هو الذي ينجب الرغبة. ونحن ندرك الآن أي مقدار من الخطأ المختلط مع الحقيقة في مثل هذا القول. فالرغبة البسيطة لدى الرجال لا تنجب الحب، وإنما الرغبة غير المحققة، والمترافقة مع مشاعر الغيرة والعداء. والحب لدى النساء لا ينجب الرغبة، وإنما التحقق من كونهن محبوبات ومطلوبات. النساء لم يحببن الرجال، وإنما خلقن لديهم الهوى، الذي ارتدّ إليهن. لقد قذفن الرجال بسلاحهن، وانقلب هذا السلاح إلى بوميرانج(*) عاد وأصابهن. فالرغبة الأصلية لدى النساء لم تكن أن يحببن، بل أن يكن محبوبات. وما إن استيقظ لدى الرجال، حتى عَملَ كوقاء جيد ضد عدائهم الموجه إلى النساء وتجاهلهم لهن، كما وعمل في الوقت ذاته على ضمان الاستقرار ومعاكسة تقلقل الرجال (من الذي يقول: "La donna emobile"؟ إن الرجل لهو كذلك أكثر بكثير)، كلّ ذلك فضلاً عن عمل الحب ضد خطر رمي النساء جانباً، ونبذهن، وسوء

* – سلاح يرتدّ إلى الرامي ، كان يستخدمه سكان استراليا ، مكوّن من قطعة خشب ملوية أو معقوفة .

معاملتهن. ومع أن هذا الوقاء ليس بالوقاء الكافي أو الموثوق، إلا أنّه يقوم بوظيفته لفترة من الزمن.

وامرأة اليوم لا تختلف عن امرأة ما قبل التاريخ بهذا الصدد. فهما أختان تحت الجلد. فهل تغيّر هذا الوضع جذرياً؟ لا، بالتأكيد. فاليوم، كما منذ آلاف السنين، تريد النساء أن يكنّ محبوبات قبل أن يستسلمن. والحذر تجاه الرجل يجعل الإحجام والتأخير ضروريين. قالت امرأة عن الغزل العاصف الذي يبديه الشبّان: «إذا ما جرت الأمور بسرعة زائدة، فهذا يرعبني». إن لديهن خوفاً قديماً، يعززه التقليد النسوي، من أن يعاملهن الرجال باحتقار ويلقوا بهنّ جانباً بعد أن «يقضوا وطرهم» منهن. وهو خوف بقي على قيد الحياة عبر أجيال لا يحصرها العدّ. والنساء اليوم، كما في السابق، يردن أن يقين أنفسهن من مثل هذا الخطر. إنه لمن مصلحتهن حماية الغرام وتأخير الاستسلام حتى الحصول على ما يضمن الاهتمام بهن. ومعظم النساء ينتابهن الخوف بين فترة وأخرى من أن يصبحن غير مطلوبات. («بعد حين لن يحبني أبداً»). ولن أنسى كيف ناشدتني شابة أثناء التحليل، وكانت قد شعرت من قبل بخطر تودّد رجل جذّاب إليها: «لا تدعني أقع في حبه، أرجوك، إلا بعد أن أتأكد تماماً من أنه يحبني!». هكذا ينطق واحد من أقدم المخاوف لدى النساء.

لعل اقتراحي حول كيفية ولادة الغرام أن يكون أقل أهمية مما بدا عليه للوهلة الأولى. لكن ما قدمته ليس حكاية محضة. فتخميني مؤسس على مقارنة المئات من القصص التي قصّها عليّ رجال ونساء أثناء جلسات التحليل، وليس بمقدوري أن أعيد سردها هنا. وثمة نساء كثيرات عبّرن في هذه الجلسات عن آمالهن ومخاوفهن، عن بؤسهن وسعادتهن، عن هزائمهن وانتصاراتهن. وحكى لي كثير من الرجال عن صراعاتهم وتقلّبهم بين رغباتهم الجنسية وعاطفتهم، وعن ضروب الانجذاب التي شعروا بها تجاه نساء مختلفات. وغالباً ما كانت لدي إمكانية مراقبة التطور من الرغبة الجنسية باتجاه الحب الرومانسي، والطرائق الحاذقة التي اتّبعتها السيدات اللواتي أحدثن تغيّرات انفعالية لها الطبيعة الموصوفة آنفاً، أو اللواتي أخفقن في فعل ذلك.

ويحضرني للتو سؤال مدهش طرحته عليّ مرة سيدة شابة: «هل يشعر الرجال بأي شيء؟». وبالطبع فقد قصدتْ أن تسأل عما إذا كان الرجال يشعرون بأي شيء عدا

الحافز الجنسي الخام، وعما إذا كان لديهم انفعالات عاطفية قبل الاتصال الجنسي أو أثناءه أو بعده. ولابد أن يكون مثل هذا الانتقاد لموقف الرجل البعيد عن الحب قد دفع النساء مرة إلى التمرد. ولم تكن النساء عاطفيات أو رومانسيات هن أنفسهن. لقد أردن أن يكون الرجال عاطفيين أو رومانسيين، ونجحن إلى حد بعيد مع الشباب، البعيدين كل البعد عن الواقعية. لقد أقحمت النساء في عقول الرجال فكرة الحب، هذا العنصر الأشد أهمية في العلاقات الجنسية، والأدقّ القول إنهنَّ قد أدخلن في عقولهم فكرة أن يحبوهنّ. ولابد أنه كان لديهن انطباع غير واع مفاده أن هذه الرغبة في الحب غريبة في الأصل عن الرجال، بحيث بات من المتوجب جلبها إليهم من الخارج. وهكذا صار الحب مألوفاً لدى الرجال، لكنه بقي شيئاً مستورداً.

وفي بعض الأحيان تعبّر بعض النساء الذكيات والمخلصات عن ذهولهن تجاه الإحساس المفرط بالغرام، والبعيد جداً عن الواقع، الذي يصدر عنه كثير من الرجال. ويدهشهن وضع الرجال لهنّ على أعلى قاعدة التمثال إذا ما أحبوهن، وهو موضع لا يرتحن فيه. وربما كن يعتقدن أن مثل هذه المثلنة idealization ضرورية للرجال لأن أوهامهم سريعة العطب. ولقد قالت مرة إحدى هاته النساء الذكيات، وهي مدام دي جيراردين: «الحب لدى الرجال ليس عاطفة، بل فكرة». ويبقى صحيحاً أن النساء الأشد ذكاء لا يقلن أي شيء، وإنما يلذن بالصمت بهذا الصدد.

من المحتمل أن تكون الثورة في الحياة الجنسية، والتي اتسمت بتدفق الحنان والعاطفة، قد بدأت بنخبة من النساء، ومن ثم امتدَّت إلى الأخريات. ولا أعتقد أن ذلك كان جهداً منظماً، بل مغامرة خصوصية. وربما لم يشعر بالتغيّر في البداية سوى جماعة صغيرة من الرجال الذين أقرّوا على مضض بوجود سلطة جديدة تحكم بطغيان أشد لأنها تحكم بلطف. وبعد مرور بعض الوقت، لابدّ أن كل واحد من هذه الجماعة قد ظن نفسه ممتلكاً لسر سعيد ما من أحد يعرفه سواه، شأنه تماماً شأن أي شاب يقع اليوم في الحب.

لاشكّ أن كون النساء محبوبات قد عاد عليهن لاحقاً بمنافع مادية وانفعالية أخرى. فقد أفادت النساء من رومانسية الرجال. وحاولن الإبقاء على ما لدى الرجال من وهم حيالهنّ. وهنا ميلاد الفروسية والغزل. ولقد كانت الوظيفة الأولى والأساسية

للسلطة الجديدة هي حماية المرأة من إهمال الذكر، وتجاهله، وعدائه. وكونهن محبوبات منحهن كرامة وثقة جديدتين، وأوقظ لديهن قوى جديدة، وجعلهن أكثر جمالاً وعذوبة، شأنه اليوم تماماً.

وتقديري هو أن العلاقات الجنسية البشرية قد بقيت زمناً طويلاً، ربما لمئات من آلاف السنين، دون أن يمسّها الحنان أو العاطفة. ثم حدثت سيرورة بطيئة من التكيف المتبادل والضبط، لدى أفضل الأزواج، وأدت إلى رباط مبهم ما من أحد أطلق عليه اسم الغرام. أما الزعم الذي عبّر عنه بعض السيكولوجيين، والذي مفاده أن الإشباع الجنسي الذي يناله الرجال يؤدي أولاً إلى إقرار بالجميل تجاه النساء وفي النهاية إلى حبهن، فهو زعم فانتازي. وما من حاجة إلى مناقشة هذا الأمر. ذلك أن الملاحظة اليومية للحياة تدحض هذه النظرية بكل وضوح.

طوال عصورٍ ظلّ الغرام بالمعنى الذي أعطيناه له غريباً عن الإنسان. وإذا ما وثقنا بالدارسين الأكفّاء للقبائل نصف المتمدنة، وبالمبشّرين الذين صرفوا سنوات عديدة في الشرق الأدنى، فإن الغرام لا يزال مجهولاً إلى الآن لدى جزء كبير من البشرية. وحتى في الأزمنة القديمة المتأخرة التي لنا معرفة بها، فإن الغرام، باعتباره شيئاً متميزاً عن الرغبة الجنسية، وباعتبار المرأة موضوعاً للحب، كان ظاهرة غير مألوفة. ونحن نجد اليوم وضعاً مشابهاً لدى طبقات المجتمع الدنيا حيث ينظر الرجال إلى النساء باعتبارهن موضوعات جنسية وحسب، وحيث تتسم العلاقة بين الجنسين بالأنانية الفجة والاهتمامات الشهوانية وحدها.

آمل أن أكون قد أوضحت في هذا الفصل أن الحب كان معاكساً للجنس في الأصل، وأنه انبثق كقوة مضادة له، وأنّ صراعهما أفضى لاحقاً إلى تسوية واندماج مجيدين بين هذين العدوين.

رسالة نقد

لقد اعترفت صراحة أنّ تاريخ الحب الذي وضعتُ خطوطه العريضة في الفصول السابقة هو مجرد تخمين، وأنه عرضة لكل ضروب النقد. فلعل عوامل هامة نجهلها كانت ذات أثر في تطوّر الغرام؛ ولعل قوى أغفلناها كانت قد فعلت فعلها وحدّدت سياقه. وإذا ما اكْتُشِفَتْ هذه العوامل والقوى ومتى ما اكتشفت، فسوف أكون أول من يعترف بتأثيرها.

قرأتْ إحدى السيدات الشابات من معارفي هذا القسم من المخطوطة وكتبت لي رسالة نقد تستحق اهتماماً جدياً. فقد وصفتْ الموجز الذي قدّمته هنا بأنه «عرض عضلات» ذلك أنني لم آخذ بالحسبان أن الجنس والحب على علاقة مع إنجاب الأولاد. وهاكم هذه المقتطفات من رسالتها:

«... لم تُشِرْ ولا مرة واحدة إلى حقيقة أنّ المرأة بعد تسعة أشهر من الحمل تحمل بين يديها دودة وردية زاعقة لابد من تغذيتها وتدفئتها وتغيير أحفاضها عدة مرات في اليوم ولابدّ في النهاية من تنشئتها وتعليمها المحافظة على نفسها.

«لعلّه، بين الهمج الذين تتحدث عنهم، حيث يمكن الحصول على الطعام بهزّ الشجرة أو في الأمكنة حيث يمكن للناس اصطياد الأسماك لوجبتهم التالية، ما من حاجة للقلق الزائد. ولكن حالما تدخل إلى المناخات الباردة والمزعجة حيث ابتُكر الحب، فإنك تقلق. وحتى بوجود المال الوفير وكل خدمات المدينة، فليست مهمة يسيرة تنشئة مجموعة من الولدان دون عون. حيث لا يمكنك أن تنشئهم تلك التنشئة الحسنة على النحو الذي نجده حين يكون الأمر مغامرة مشتركة. وفي النهاية، فإن إعادة الإنتاج لا تنتهي بالزواج، كما لا تنتهي بالمخاض أيضاً.

«ما أحاول قوله تثبته عادات كثير من الطيور. فهي لا تجتمع ببساطة وتسقط بيوضها دون حذر. إنها تمضي في طقوس غزلية رصينة وتبتني لنفسها أعشاشاً.

والعصفور الذكر يميل إلى الأنثى بينما هي تحضن فراخها. وإننا لنراهما شغوفين بذلك كلَّ الشغف، فيمكثان معاً إلى أن يكبر الفرخ؛ ومن ثم ينطلقان كلٌّ في طريقه. لعلني مضيت بعيداً في المشابَهة، ولكن إذا ما كان هنالك أي فارق أساسي بين هذا وبين الحب البشري، فما هو؟ وبعبارة أخرى، إنّ فكرتي حول مكان نشوء هذا الشيء الحبيب هي التالية: كلما تعقّدت تنشئة المرء لابنه تزداد إمكانية اكتمال الحب. والجنس، كما قلتَ بحق، يُعنى بايصال النطفة إلى البويضة ليس غير، أما الحب فيُعنى بتكوين الرجال والنساء، وبإعادة إنتاج النوع. وبهذه الطريقة نحصل نحن البنات على حُماة صالحين لأبنائنا وآباء ملائمين لهم. وكما قالت البنت حين سُئلت أين يمكن أن يوجد البشر دون حب؟: «هذا شيء نادر!».

إن هذه الملاحظات الساحرة، سواء بسبب عفويتها أو لما فيها من الواقعية النسوية، تستحق اهتماماً زائداً لأن السيدة الشابة كتبتها دون أن تعلم أن وجهات نظرها سوف تُنشَر. لكنها، على أية حال، مطابقة لنوع من الجدل المنطقي الذي لا يأخذ السيرورات اللاواعية في الحسبان. إن المشابَهة مع الطيور التي تحضن فراخها معاً وتكون شغوفة تماماً بذلك يجب أن تطرح جانباً، ذلك أن هنالك بالتأكيد فارقاً أساسياً بين هذا والغرام البشري.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ قسماً من نقد السيدة له ما يبرره لأنني لم آخذ إنجاب الأطفال بالحسبان في موجزي. ومن الصحيح دون شك أنه يمكن لأفكار تتعلّق بالإنجاب أن تلعب دوراً واعياً في اختيار الشريك الذكر وفي الأطوار المتأخرة للحب، ولكن يجب ألاّ نخلط هذه الاعتبارات مع تكوّن الغرام. ولا يمكن أن ننكر أن تنشئة الطفل تربط الزوجين الفتيَّين واحدهما إلى الآخر، لكنها لا تَسِمُ نشأة الحنان. وليس ثمة في سلوك الرجل ما يدلّ على حب مشتد أو رغبة جنسية متعاظمة تجاه المرأة الحامل؛ والأحرى أنَّ العكس هو الصحيح. ومن جهة أخرى، فإن النساء الحوامل يشعرن بعاطفة متزايدة تجاه والد الطفل، ومن الجدير بالملاحظة أنهنّ يبدين رغبة زائدة في الاتصال الجنسي. ومن غير الممكن حسم ما إذا كان هذا التغير مشروطاً بحاجة عضوية قوية، أم بعاطفة إضافية تجاه الرجل، أم بجهد واعٍ لجعله ينسى التحولات التي أضعفت من جذبها الجسدي في هذه الفترة.

وعلى أية حال، فإنَّ من المشكوك به إلى حدّ بعيد أن يوقظ الحب والرغبة الجنسية لدى الرجل فكرة إنجاب طفل من امرأة بعينها. وأخشى أن الرغبة في الأبوة لم تتطوّر جيداً تماماً لدى الشباب. وانطباعاتي المتأتية عبر سنين عديدة من التحليل النفسي تنزع إلى غرس اعتقاد لديّ مفاده أن الرغبة في إنجاب طفل حتى لدى النساء لا تعدو أن تكون في البداية ضرباً مبهماً من التوق. ويبدو لي أنّ مُراسلتي قد وضعت العربة أمام الحصان، ذلك أن النساء يرغبن في طفل من رجل يحببنه، أكثر من كونهن يخترن عامدات أباً للطفل المنتظر.

إنه لمن الحسن التذكير بأنّ تاريخ الجنس والحب هو أكثر تعقيداً مما ظهر عليه في إعادة البناء الافتراضية التي قدّمتها. وهنالك بالتأكيد عوامل منطقية فاعلة في تطوّر الغرام، لكن أهميتها لا تضارع قوة الدوافع التي تحدد انفعالات الشباب. والأمهات يحكين لأبنائهن، وأكثر من ذلك لبناتهن، أن الخيار الأفضل في الزواج هو مزيج من الغرام والواقعية، لكن الحكمة لا تُنقَل نقلاً. آه لو كان بمقدونا أن نوصي لأبنائنا بخبرتنا! لكن الشاعر على حقّ:

ما خبرتُه سيمضي معي إلى قبري،
وهنا في الأسفل ما من أحد يرث الآخر[1].

١ – Was ich gewonnen gräbt mit mir man ein
keiner kann keinem ein Erbe hier sein.
ريتشارد بيير هوفمان Schlaflied für Mirian (١٨٩٧) .

المعنى اللاواعي للكاريكاتير

عليّ عند هذا الحدّ أن أواصل رسم القنطرة الواصلة بين عصور ما قبل التاريخ والوقت الراهن، وذلك لمقارنة حاجات إنسان الكهوف بحاجات الإنسان في حضارتنا. وأريد أن أوضح أن قوى الدافع الجنسية القديمة ورغبة الهيمنة ظلّت تستهدف الإشباع المباشر حين ظهرت حاجة المرء الجديدة لأن يكون محبوباً؛ وأريد أن أبيّن أيضاً أن قسطاً كبيراً من الوضعية القديمة لا يزال موجوداً، جنباً إلى جنب، مع التغيرات التي خلقت حوافز جديدة.

في اللحظة المناسبة وقع بين يديّ كاريكاتير نشرته صحيفة ***النيويوركر***. وهو يحقق الغرض على نحو أوفى بكثير مما أستطيع. يصوّر هذا الكاريكاتير بعض الأوربيين، من الواضح أنهم بريطانيون، قرب غابة. ويصوّر أورانج أوتان ضخماً ممسكاً بإحدى النساء ويقودها إلى الغابة. أما السيدان والمرأة الأخرى، الجالسون أمام كوخ، فلا يبدو عليهم أي قلق أو اضطراب. ويقول التعليق: «شخصياً، أنا لا أستطيع أن أتصوّر ما يراه فيها». من الذي يتكلم هنا؟ ليس بالتأكيد أي من الرجلين اللذين يحملان كأسي الويسكي بين يديهما. إنها المرأة من أطلقت هذا التعليق، والذي نعرف أنه تعليق شائع تطلقه النساء بصدد اختيار الرجال لشريكاتهم.

أين هي النكتة في هذا الكاريكاتير؟ من الواضح أنها في التعارض بين الحدث الفظيع والتعليق الشائع، غير المكترث. ولاشك أنها تنبع أيضاً من التعارض بين المشهد الرهيب ورباطة الجأش الكوميدية التي يبديها المشاهدون. ونقترب أكثر من جوهر هذه القوة الكوميدية إذا ما تذكرنا ما اكتشفه فرويد بصدد الطبيعة السيكولوجية للنكتة، ذلك أن فرويد يؤكد أنّ المتعة المتأتية من النكتة تنجم عن توفير الجهد الانفعالي.

يضعنا هذا الكاريكاتير وجهاً لوجه إزاء وضع مروّع. فنحن نتوقّع من الشهود الثلاثة أن يرتكسوا بفزع، أو أسى، أو ذعر، أو يأس، وأنهم سوف يقومون بفعلٍ ما كي يمنعوا الاختطاف. ويتكوّن لدينا استعداد لأن نتقاسم معهم هذه الانفعالات، لكن هذا الاستعداد يصبح نافلاً حالما نقرأ التعليق المألوف المرفَق بالصورة. نحن جميعاً كنا مستعدين لأن نطوّر انفعال الإحساس بالخطر الذي أوقظه الوضع فينا، لكننا نتراخى فجأة إذ لا يبدو وقد فقد خاصية الرغب نتيجة لتعليق السيدة. وتبدو عبارتها، فضلاً عن موقفها وموقف رفيقيها، كما لو أنها تقول: «لا شيء مفزع فيما نشاهده وتشاهدونه. لا شيء خطير. لا تخافوا. إنه حدث يومي عادي». والمتعة التي نستمدها من مثل هذا التوفير في الانفعالات الشديدة تعبّر عن نفسها في النزوع إلى الضحك أو إلى الابتسام على الأقل. ومن المهم بالنسبة لمفعول النكتة أن هذا التغير من الاستعداد للمشاركة في انفعالات منغّصة جداً إلى الارتخاء يجب أن يكون مفاجئاً[1].

نحن نفهم الآن بصورة أفضل بكثير ما يشكّل قسطاً كبيراً من الطابع الكوميدي لهذا الكاريكاتير. ولكن مازال هنالك قسط آخر وربما أفضل لم يتضح بعد. إن في هذا الكاريكاتير أكثر مما تراه العين. فنحن نحسّ بوجود معنى غير واع. والتعارض بين ما يحدث وبين الموقف غير المكترث الذي يبديه المشاهدون هو الذي يخفي هذا المعنى. فما هو هذا المعنى؟ لنغيّر في الوضع قليلاً فقط، ولنفترض أن نمراً هائلاً هو الذي يخطف المرأة بدلاً من الأورانج أوتان. إن تطور النكتة سوف يصبح مباشرة مستحيلاً تقريباً. وبما أن الأمر كذلك، فإن من الأساسي أن يكون الحيوان واحداً من السعادين الكبيرة، هولة تشبه الإنسان.

١ – لقد أغفل فرويد هذا الطابع الأساسي الذي تتّصف به المفاجأة فيما يتعلّق بالمفعول الكوميدي. ولقد اكتشفتُ هذا الطابع عام ١٩٢٩، وناقشت أهميته السيكولوجية في كتابين: "Lust und Leidim Witz" (١٩٢٩)، و"Nachdenkliche Heiterkeit" (١٩٣٣). إن المفعول النفسي مشروط بتحول الفزع البدني الذي يتمّ الشعور به لدى مواجهة خطر إلى شعور صريح بأنه ليس ثمة سبب للذعر على الإطلاق. ويحدث هذا التغير خلال بضع ثوان. وباعتقادي أن تعبير الضحك الذي يرتسم على الوجه هو في الأصل نتيجة لمثل هذا الارتخاء المفاجئ بعد ترقبٍ قلق. فالانتباه الذي نواجه به احتمال الخطر يفسح المجال للارتخاء، وهذا التغير المفاجئ يعكس نفسه في عضلاتنا. ولقد بيّنتْ آنا فرويد أن الأطفال المتحررين من القلق يرتكسون بالضحك.

فجأة يتكشّف المعنى الخبيء في هذا الكاريكاتير. هيئة الأورانج أوتان هي مجرد بديل للإنسان البري، الطليق، والخشن، مخلوق من نمط إنسان الكهوف. إن ما تقوله المرأة يتصل حقاً بحدث يومي، هو حدث فرار رجل مع فتاة. وعندما نزيح الحجر لننظر إلى ما يوجد تحته، نكتشف أن الوضع ليس خطيراً في الحقيقة: شخص بأهواء مشبوبة يفرّ مع امرأة. هكذا تتخذ عبارة السيدة وعدم اكتراث الرجلين معنى جديداً، والأحرى أنَّ وجهة نظرنا المتغيرة حيال الوضع هي التي تعطيها معناها الحقيقي. فالرجلان ينظران إلى الحدث على أنَّه شيء يتكرر كل يوم، وكذلك السيدة أيضاً. إنها ترتكس بطريقة نسوية نمطية. إنها تتساءل بدهشة عما لدى هذه المرأة المحددة مما أيقظ مثل هذا الهوى لدى الرجل. فهي لا تتخيّل أية خصال، أو أية ميزات جسدية أو عقلية، تجعل الرجل يقع في الحب بكل هذا الهوى الجامح مع هذه المرأة بعينها التي لا تستطيع أن ترى فيها أي شيء غير عادي. وحقيقة أن الرسام رسم الخاطف على أنه أورانج أوتان، وليس رجلاً، هي التي تقدّم الإجابة عن سؤالها. ليس الحب، وإنما الرغبة الجنسية العمياء هي التي تملي على الرجل فعله.

ويتضح الآن تعارض آخر، ليس في الكاريكاتير بل في التعليق. فغالباً جداً ما تُذهَل النساء حيال هذا المخلوق الغريب، الحيوان الذكر. وهنّ يفترضن أن اختياره لامرأة ما يمليه تفوقها الشخصي. لكن الرجال غالباً ما يختارون، لا النساء اللواتي يتمتعن بمزايا شخصية خاصة، وإنما اللواتي يتمتعن بمزايا جنسية حادة. وإذا لم تفهم السيدة ما يراه الرجل في بعض النساء الأخريات، فإنها تخفق في إدراك القوة الضارية والحصرية exclusive التي تتّصف بها الرغبة الجنسية لدى الرجال، والذين غالباً جداً ما يريدون، أنثى وحسب[٢]، وليس أية امرأة بعينها. ولذا فإن الرجلين المرافقين للسيدة لا يندهشان، فهما يفهمان على نحو أفضل بكثير ما يدفع الرجل إلى الاختطاف.

---

٢ – كثيراً ما تصوّر الرسوم الكاريكاتيرية امرأة تنتقد هذا الموقف الذكري. ويحضرني هنا رسمٌ نُشر في برلين منذ حوالي عشرين سنة مضت. في هذا الرسم نجد سيدة تقول للرجل الذي يجلس قبالتها على الطاولة في مأدبة غداء: «إن كنت تحبني، من فضلك قلْ لي ذلك، ولكن لا تلوّث جواربي».

خلف النكتة في هذا الكاريكاتير ثمة إشكالية سيكولوجية جدية لا يفصلها عن الفكاهة سوى غشاء شفاف. فالفارق في النظرة بين الرجال والنساء يكمن في اختيار الموضوع. ولكن هل هذا هو كل ما يكشفه التأويل التحليلي النفسي للكاريكاتير؟ لا، بالتأكيد. إنه لما يتجاوز الدلالة السطحية أن المشهد موضوع على أطراف الحضارة، حيث البيوت قائمة قرب الغاب تماماً، وحيث الأعراف المتمدنة قد تتعارض بشدة مع همجية المنطقة التي لا يسود فيها سوى قانون الطبيعة وحده. وهنالك أيضاً معنى في التعارض بين الفعل الهمجي للإنسان القرد ape man والموقف الهادئ الذي يبديه السيدان.

ونحن نفهم أن الوضع كله، أي هذا المشهد الذي يُظهر الحضارة والغاب جدّ قريبين، إنما يشير إلى مدى قربهما عموماً واحدهما من الآخر. فالأورانج أوتان الهمجي، الضخم، والإنجليزيان المتمدنان ليسوا مفصولين بهوة لا يمكن عبورها. وإنسان الكهوف بحاجاته الهمجية الفجة يعيش في داخلهما كما يعيش في داخل كل رجل. وبعبارة أخرى، فإن الكاريكاتير يبيّن أن الدافع الجنسي الأعمى، الرغبة الجنسية التي لا تفرّق بين الأشخاص، هي أكثر سطوة اليوم أيضاً من العقل والحنان، اللذين يجب أن يقفا وراء اختيار الموضوع. وفي بعض الأحيان، كما في هذا الرسم الكاريكاتيري، يحطّم هذا الدافع الأسيجة التي أقامتها الحضارة ويتكشّف بكل فجاجته وهمجيته. أمّا صوت المرأة فيمثّل مستوى آخر، وقد يقول بعضهم مستوى أعلى، من الحضارة، مستوى ينبذ متطلبات الحافز الجنسي الأعمى. فهي شخصياً لا تستطيع أن تتصور ما يراه هذا الرجل في المرأة التي يختطفها؛ لا تستطيع أن تتصور أن اهتمامه الوحيد بالضحية نابع من حقيقة كونها أنثى. إن مقتضيات الحضارة تتعارض هنا مع مقتضيات الطبيعة. وكل منهما تقارع الأخرى حتى في النموذج الثقافي لحاضرنا أيضاً. والأورانج أوتان في الكاريكاتير ليس إلا بديلاً للإنسان القرد قبل التاريخي، لكن هذا الإنسان البدائي ما يزال موجوداً في حضارتنا. إنه متخفٍّ فيّ وفيك.

وتتـأتى أهميـة هذا الـكاريكاتيـر من التنـاقـضـات التي يـكشف عن وجـودها في حضارتنا الحاليـة، هذه الحضارة التي لا يزال الرجال يشعـرون فيهـا بالحافـز الجنسي الخام المنفلت من عـقاله فضلاً عن شعـورهم بمقتضيـات العـاطفة. كل رسم يحكي قـصة، ولكن ما كل رسم يعرف القصة التي يحكيها.

غداً

هل يتاح لنا المجال كي نحاول إلقاء نظرة على مستقبل الغرام، على ما سوف يأتي؟ إن طبيعة الموضوع تضطرني لأن أقتصر على بضع فقرات وحسب. فلست بقادر على تقديم رؤية للمستقبل - ذلك أننا لا نستطيع إلا بشق الأنفس أن نتنبأ بمدى التغيرات الكاسحة التي تجري أمام أعيننا - ولكن ربما كان من الممكن تأويل إشارات الماضي والحاضر واستشراف الاتجاه الذي سيتخذه التطور في القرون اللاحقة. وسوف أقدّم بضع أفكار لعلها تكون جديرة بالاهتمام. فنحن معنيون بمسألة الاحتمالات والإمكانات النفسية أكثر مما بالوقائع المادية، ومعنيون بالجوهر الذي يقف خلف الوقائع دائمة التغيّر، بالقانون الخفي، أكثر مما نحن معنيون بالوقائع ذاتها.

يلاحظ البحّاثة الذين يتتبعون تاريخ الحضارة أن النوع البشري لا يزال فتيّاً بحيث يمكن أن نتوقع منه مآثر عظيمة كلما تقدم به العمر. فالنوع البشري لايزال في مراهقته الباكرة ولم يقترب من الرجولة بعد. ولنَقُل إن الأزمات والصراعات المحتدمة في عصرنا هي الآلام المتنامية التي تنتاب هذا النوع.

وفي اعتقادي أن الألف الثالثة بعد ميلاد المسيح سوف تبيّن أن كثيراً من إشكاليات الحب والجنس لم تحل بعد. وسوف ترى سنة الثلاثة آلاف وتسعمئة، كما نأمل، تقدماً حاسماً على صعيد تخفيف التوتر بين الجنسين، وإزالة قدر عظيم من الحسد والتملك، وسوف تُدْخِل تثقيفاً جديداً لكلا الجنسين يدفعهما إلى المشاركة والرفقة. وبعد أن حطّم التحليل النفسي قدْراً كبيراً من النفاق Hypocrisy العام المتعلق بحاجات الرجال والنساء الجنسية، فإن مهمة توحيد متطلبات الجنس والحاجة إلى الحب تظل قائمة. ويمكن لنا أن نتنبأ أن الستار الدخاني الذي أطلقه المجتمع، أي ذلك الزعم بأن الحب والجنس متطابقان، سوف يتبدد لتتّضح الهوّة الفاصلة بين كلتا الحاجتين.

وأعتقد أن ذلك الرأي الشائع الذي يرى أنَّ الموضوعات الجنسية هي، في الوقت ذاته، وبصورة آلية، موضوعات للحب، سوف يصبح في المستقبل البعيد إحدى الحقائق، وذلك بطرق والتفافات غريبة ما تزال مجهولة. فاتحاد الجنس والحب لن يكون واقعاً انفعالياً وحسب، كما هو الآن في أغلب الأحوال، بل سيصبح أيضاً ضرورة سيكولوجية. وسوف يرغب الناس على نحو متزايد في التماس الإشباع الجنسي لدى موضوعات محبوبة وحسب. ومثل هذا الاتصال الجنسي وحده سوف يضمن آنئذ إشباعاً تاماً. بل إننا نجد الآن أنّه قد صار من الصعب على الرجال المثقفين أن يمسّوا امرأة دون عنصر ما من عناصر العاطفة الأصلية. وأنا لا أتنبأ بالطبع بأن المعركة بين الجنسين سوف تتوقف خلال بضع مئات من السنين، بحيث لا يبقى لدى الطرفين أي شعور بالعداء، والحسد، والطمع. لعلها ستكون مجرد هدنة، وليست سلماً؛ ولعل التعبير عن تلك النزوعات العدوانية والتملكية سوف يصبح أكثر إنسانية وحسب.

هل من الطوباوية أن نتوقع أن التحام حاجتي الجنس والحب سوف يكون ضرورة سيكولوجية بالنسبة لمواطني عام ٣٨٠٠ أو ٣٩٠٠؟ إن هذا لهو الاتجاه الوحيد الذي يمكن للتطور الانفعالي أن يتخذه. وما من فرصة للسير في اتجاه آخر. وسوف يكون ثمة نفور متزايد من العلاقات الجنسية العمياء التي لا تميّز بين الأشخاص. سوف يكون الجنس دون عاطفة منفِّراً للرجال كما هو منفّر للنساء الآن. وسوف يساعد على هذا التطور ذلك التبصّر المتزايد بالحاجة إلى توحيد متطلبات الجنس والحنان. قد يبدو مثل هذا الاستشراف فانتازياً في هذه اللحظة، لكن من المؤكد أنه كان سيبدو فانتازياً لو أن أحداً ما قبل عشرة آلاف سنة قال لأسلافنا أنهم سيشعرون بالنفور عند التفكير بأكل اللحم البشري، الذي كان طبقاً فاخراً بالنسبة لهم. إنّ القرف من أكل اللحم البشري هو أمر طبيعي بالنسبة لنا اليوم، شأن الشهية المفتوحة لأكل اللحم البشري لدى أكلة البشر أولئك.

ثمة شيء واحد مؤكد: سوف تسهم المرأة بقسط وافر في هذا التطور المستقبلي. إن بمقدورها أن تدّعي لنفسها فضل إدخال عنصر الغرام الجديد إلى العلاقة بين الجنسين. هذه الحاجة التي ما إنْ تستيقظ حتى لا يعود من السهل إشباعها. وسوف تبقى النساء مربّيات للنوع البشري في حقل الجنس كما هنّ بالنسبة للفرد. فإمكانات الحب لا

يستنفدها الغرام؛ ذلك أن هذا ليس سوى التعبير الأكثر جلاءً عن الحب، لكنه ليس تعبيره الأكثر أهمية بالتأكيد.

يمكن للمعجزة أن تصبح أكثر إعجازاً. يمكنها أن تتعاظم، أن تمتد وتتخطّى ميدان العلاقة الجنسية. يمكن لها أن تعبّر عن دفئها وإنسانيتها تجاه مجموعات اجتماعية أخرى. ويمكن لها في النهاية أن تليّن و، بعد آلاف السنين، أن تسكّن المطامح البرية لدى الرجال وتلطّف منازعاتهم الضارية. ولعل قسطاً صغيراً من المهمة التي عزاها الشاعر إلى المرأة في الآخرة سوف يتحقق من قبلها على هذه الأرض:

هنا ما يفوق الوصف
طرّزيه بالحب.
الأبدية النسوية
تجذبنا إلى الأسمى.

أنْ نتنبأ بالتحام متزايد للحب والجنس في السنوات الألف القادمة ليس بالمجازفة، كما قد يبدو. وإنها لمجازفة أخطر أن نستبق الأمور ونتحدث عما ستكون عليه تقلّبات الحب والجنس بعد هذا الزمن في المستقبل النائي. ذلك هو الجنس، فماذا عن الغرام؟ يؤكّد مثل فرنسي قديم أنّ كل شيء سيفنى ما عدا الحب والموسيقى. لكنني لست واثقاً من ذلك. لماذا نستثني الحب والموسيقى من القانون الذي يتحكم بالنمو والفساد؟ إنني أكثر ارتياباً في الحقيقة. لقد مرّ زمن لم يكن الحب موجوداً فيه هنا في الأسفل؛ وقد يأتي زمن آخر يختفي فيه عن الأرض. وقد تنبثق حاجات جديدة لا نستطيع التنبؤ بها، ولا بالوسائل اللازمة من أجل تحقيقها.

القسم الثالث

الحب والشهوة

نظرية جديدة في الدوافع

لِنَعُدْ إلى جون وجين الشابين المتزوجين حديثاً. لقد حاولنا أن نجد أية حاجة هي تلك التي يتمّ إشباعها في علاقتهما. ولم يكن مجدياً أن نسأل جون وجين. فهما لا يميلان إلى التحليل. إنهما يختبران اتحادهما ويعيشانه ولا يشعران بأية حاجة لتقصّي مصادره. تُرى ما هي المقوّمات الأساسية للسعادة واللذة التي يجدها كل منهما في الآخر؟ الإجابة العلمية هي دون شك أن اتحادهما يشبع دوافع الأنا فضلاً عن الحاجات الجنسية. ولقد حاولت أن أوضح الطبيعة الأصلية سواء للدافع الجنسي أو لدوافع الأنا البدائية، وأن أقتفي آثار تطوراتها اللاحقة، التي ظهر الحب بينها باعتباره الأشد أهمية. إن وضعية جون وجين تُشْبِعُ هذه الحاجات جميعاً في الوقت ذاته. وبالطبع، فإن نسبة المكونات تختلف من فرد إلى آخر، لكن الاعتبارات الكمية، التي تحدّد الاعتبارات النوعية في النهاية، لا تهمّ سوى المحلل النفساني. إن هذين الزوجين سعيدان لأنهما حققا في اجتماعهما متطلبات أنويهما الفرديين، وأرضيا في الوقت ذاته رغباتهما الجنسية. ولقد تكوّن لدينا انطباع كاف حول كيفية تركُّب هذا الخليط. فحيثما تتبعنا مصادر سعادة جون وجين، نجد على الدوام إشباع الحاجات الغريزية. وليست الانفعالات التي يشعر بها هذان الشخصان سوى تمثيلات نفسية لهذه الدوافع البدائية.

عند هذه النقطة، يبلغ البحث حدّه، لأن الكشف عن طبيعة الغرائز لا يمكن أن يكون موضوع السيكولوجيا إلا إلى درجة معينة. فهو بالدرجة الأولى مهمة علم آخر، هو البيولوجيا. ولعل من الحكمة أن نتوقف عند هذا الحد، لكن ذلك ليس فيه من الشجاعة إلا القليل. وقد يكون التعقّل والاحتراس هو الجزء الأفضل من الجسارة، لكن ثمة أوضاع يضطر فيها المرء لأن يختار الجزء الأسوأ. وإذا ما كنا نتوخى فهماً أفضل، فإن عبور هذا الحد لا مناص منه. وأنا أدرك تماماً أنني أفتقر إلى الكفاءة في هذا الحقل

وما تتميّز به محاولتي من طابع غير مُتْقَن. كما أنني أعترف صراحة بما تتسّم به النظرية التي سأقدّمها من طبيعة تجريبيةٍ وحَدْسية، وكذلك بالثغرات التي لا يمكنني سدها، والالتباسات ومواضع الغموض. وليس ثمة مبرر لهذا الإثم الذي أقترفه سوى أنه ليس هنالك أية نظرية بيولوجية أو سيكولوجية أخرى ترضيني[1].

لعل أفضل مقاربة للنظرية الجديدة هي رسم خطوط عريضة لتاريخ الغرائز. فحين كان العالم لا يزال فتيّاً والحياة العضوية قد وُلدت للتو، لم يكن هناك سوى غرائز البقاء وحفظ الذات instincts self - preservation. وغاية هذه الغرائز محددة من خلال اسمها. إنها تدفع الفرد إلى إشباع حاجاته الأشد حيوية. وكلما لاقت هذه الدوافع البدائية عقبات تعترض بحثها عن الإشباع، فإن جهداً عنيفاً يُبْذَل للتغلب على العقبة. وهكذا فإن إرادة الانتزاع والهيمنة، وحوافز الامتصاص absorb، والتملك والتدمير هي من ذرية غرائز حفظ الذات، ترافقها في الكفاح من أجل الحياة.

كانت هذه الغرائز البدائية موجودة أصلاً عندما برز حافز جديد، هو الدافع الجنسي، وارتقى سُدة السلطة. فهذا الدافع لا يمكن أن يكون قديماً مثلها، لأن التباين إلى جنسين هو من تاريخ لاحق، كما تبين البيولوجيا. ما هدف هذه الغريزة الجديدة؟ الجواب، بالطبع، هو إعادة الإنتاج، واستمرار النوع. لكنّ شكاً مبرراً يكتنف هذا الجواب. فإعادة الإنتاج يمكن تحقيقها دون أية نزوة جنسية، وحتى دون تباين جنسي. فالأوليّات، العضويات الدنيا، المؤلفة من خلية واحدة وتعيش قي قيعان المحيطات والمياه الراكدة، تتكاثر بالانشطار Fussion. والفعل الجنسي غير موجود بالنسبة لها. إنها تنقسم أو تنشق إلى جزئين، وكل منهما ينمو ليشكل وحدة كاملة. تلك هي طريقة إعادة الإنتاج عند الأوليات. ولكن إن لم تكن إعادة الإنتاج هدف الدافع الجنسي، فما هو هدفه؟ والجواب لدى البيولوجيا الحديثة: التنوع Variation. فالغاية هي خلق أفراد مختلفين، تركيبات جديدة ناجمة عن اتحاد ذكر وأنثى. ليست الغاية إعادة الإنتاج، بل إنتاج تنوعات جديدة وكثيرة ضمن النوع هي غاية غريزة الجنس.

١ - إنّ الغايات التي أتوخاها من الفرضيات التالية هي أكثر تواضعاً بكثير من الغايات التي توخاها فرويد من نظريته في الغرائز (ما وراء مبدأ اللذة - نيويورك، ١٩٢٤)، والتي تفرّق بين غريزة الموت وغريزة الحياة البدائيتين. إن محاولتي لا تُعنى سوى بالقوى التي تتحكم بحياة العالم العضوي. كما أنّ أطروحتي تبدأ، باستقلال عن نظرية فرويد، من مفهوم مختلف لطبيعة الغرائز. ومع أنّ هذه الأطروحة لاتزال بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الفهم والتبصّر، إلا أنّها أول مساهمة للتحليل النفسي الجديد في مجال البيولوجيا.

وهل خضع الدافع الجنسي بحد ذاته للتطور؟ ربما لا، ما عدا في تقلّبات شدته، وفي صعوده وهبوطه. أما التغيرات الأخرى التي لاحظناها فليست ناجمة عن أهداف جديدة وإنما عن التحام هذا الدافع مع دوافع الأنا المختلفة. فالحافز الجنسي بحد ذاته يبدو ثابتاً لا يتغير. إن له مقصداً وحيداً: التخلص من توتر فيزيائي نوعي. ولكن ماذا عن التقلبات التي يتحدث عنها التحليل النفسي من كبت، وتحول باتجاه شخص المرء ذاته، وهلمجرا؟ باعتقادي، ولأقل ذلك بدقة، إن الدافع الجنسي الخام لا يخضع لأي من هذه التقلبات. فهو كغريزة دون موضوع في الأصل ولا يتطور إلا بقدر تطور الجوع أو الحاجة إلى الإطراح. أما المصير الآخر الوحيد الذي يمكن أن يخضع له، إلى جانب الإشباع، فهو إمكان التحكم به وضبطه لوقت محدد، وتأخير إرضائه. أما التطورات الأخرى فهي جميعاً مشروطة بتعاونه مع دوافع الأنا.

وهل خضعت دوافع الأنا للتطور؟ لقد هدفت هذه الغرائز في البدء إلى الإبقاء على حياة الفرد. لم تكن عدوانية، ولم يكن لها علاقة بالأفراد الآخرين. لكنها تحولت إلى حوافز عدوانية وتملكية في الصراع مع البيئة المعادية. لم تتخل عن غاياتها القديمة، وإنما كانت تُكبَح وتتوقف في محطات أضحت غايات بحد ذاتها فيما بعد. وانبثاق هذه الدوافع اللاحقة، كالطموح، والرغبة في أن يكون المرء ممن يميل إليهم الآخرون، ونزوات التنافس، والحاجة إلى التميز الاجتماعي، وغيرها، لا تتشابه إلا قليلاً مع أسلافها، دوافع الأنا البدئية. إن روح الانتزاع تحيا فيها جميعاً، حتى في وليدها الأحدث سناً، الحب، الذي يتأصل في التغلب على الحسد والكراهية والطمع. إنها جميعاً تحمل آثار ولادتها. تحمل الخَبَث من التربة الداكنة التي انبثقت منها. فهي من جهةٍ أولى مواصلة لدوافع الأنا الأولية، وهي من جهة أخرى تشكّلات ارتكاسية عليها، كما هي العلاقات الدبلوماسية بين الأمم مواصلة للصراع بينها. فهذه الدوافع الأحدث، والمُحَارِبة والعدوانية على نحو سري، تحاول أن تبلغ غايتها عن طريق الاختراق السلمي، وليس عن طريق القوة والعنف. وإذا ما غضضنا النظر عن ضروب النكوص الفظيعة والفاسدة إلى البربرية، فإن من الممكن أن نعتبر البشر نوعاً موهوباً تماماً. فطاقة دوافع الأنا تعمل جاهدة على تأمين الملاذ الواقي في كهف كما في بناء الأهرام والكنائس؛ وتعمل على التغلّب على معظم العوائق الأولية في الصراع من أجل الحياة

كما في معظم المنجزات البشرية الرائعة. وليس ثمة حيوان آخر طوّر مثل هذا التحويل للنزوات من غايات مباشرة إلى أهداف بعيدة جداً./

لقد ناقشت في السابق التقلّبين اللذين تخضع لهما دوافع الأنا واللذين يُعتبران أهم تحوّلين بالنسبة للحضارة: التصعيد والحب. فعند حدّ معين يمكن لدوافع الانتزاع، والأنانية، والعدوان أن تتحول عن غاياتها الأولية كما يتبدّل مجرى الجدول بقصد سقاية حديقة. وعند هذا الحد الأخير من التطور، يمكن أن يحدث تغيّر مدهش، تحوّل تام لدوافع الانتزاع، والغيرة، والتملك إلى عكسها. ونحن نطلق على هذا الانقلاب اسم الحب. وكلتا العمليتان، التصعيد والتحول إلى العاطفة، لهما سمة مشتركة تتمثّل في أن المصلحة المباشرة للأنا تبدو فيهما وكأنها قد وُضِعَتْ جانباً. ولنَقُل إن الذات يتم تجاهلها في السعي خلف أهداف جديدة. وبمرور الوقت يجد الأنا تحققه الأسمى في هذه المآثر بالضبط. وفي كلا التطورين تبدو البهائم المتوحشة كأنها قد تنصّلت من طابعها وتروّضت. وتجد نفسها الآن مستعدة للاعتراف بحكومة جديدة.

يمكن إيضاح تطورات الأنا المتأخرة هذه من خلال مثال: شقيقان يغادران موطنهما الأصلي ويهاجران إلى بلد آخر. وهناك يكتسبان ثقافة جديدة مختلفة تماماً عن ثقافتهما الأصلية ومن نوع أرقى. وبعد بضع سنوات قلّما يفطنان إلى حقيقة أنهما قد وُلدا في البلد الأول وترعرعا فيه. لقد تركت الثقافة الأرقى بصماتها عليهما، وغيّرت عاداتهما وذوقيهما. ولم يعد مزاجهما القديم يبرز إلى العيان إلا في حالات انفعالية محددة. ولم تَبقَ سوى سمات معينة قليلة بمثابة بقايا من الماضي المنسيّ. وبهذا المعنى فإن دوافع الأنا الهمجية غالباً ما تظهر غير مميّزة في أشكال جديدة من التصعيد والحب. ومن إرادة الانتزاع والتدمير البريّتين ينطلق الجهد لخلق الجمال، والحضارة، وهوى الغرام النبيل. ولا ننسى أنّ انقلاباً جديداً، وعودةً إلى الأصل المغمور، يمكن أن يحصلا في ظلّ شروط سيكولوجية محددة. فكما يمكن استخدام منجزات الثقافة من أجل الحرب والتدمير، فإن الحب يمكن أن يرتدّ إلى حسد وتملك. كما يمكن لمآثر التصعيد أن تشكّل أسلحة لقتل الآخرين. فالحضارة مكّنت البشر من أن يصبحوا أشد بهيمية من أية بهيمة أخرى.

بعد رسم هذه الخطوط العريضة لتطور الغرائز صرنا نجرؤ الآن على تحديد طبيعتها العامة. فالجانب السيكولوجي لغريزةٍ ما يتجلى للملاحِظ بمثابة دفع باتجاه شيء ما.

لكنَّ ثمّة دفعاً آخر بعيداً عن شيء ما، ولعله الجانب الأشد أهمية[٢]. والدفع باتجاه هدف محدد هو أقلّ من الحاجة إلى التخلّص من توتر محدد. وينتج هذا التوتر عندما يكون ثمة حاجة عضوية لدى الفرد غير مشبعة. فعندما لا يحصل الشخص على ما يكفي من الهواء للتنفس، يأخذ التوتر طابع القلق؛ وعندما يفتقر إلى الطعام، فإنه يشعر بالجوع. ومن وجهة النظر هذه، يمكن تعريف الغريزة سيكولوجياً بأنها دافع ملح لا سبيل إلى اجتنابه للتخلص من توتر من نوع معين. وهدف الغريزة هو إزالة، أو على الأقل إنقاص، هذا التوتر. ويتمّ الشعور بالتحرر من هذا التوتر على شكل ارتخاء؛ وبتصريفه، على شكل ارتياح وإشباع. فالتوتر يُشْعَر به عموماً على أنه شيء منغّص، بينما يُشْعَر بالارتخاء كشيء مُلِذّ. وعلى أية حال، فإن لهذه القاعدة استثناءاتها المهمّة والتي تحذّرنا من الإفراط في تبسيط الحالة الانفعالية.

يبدو لي أن من الممكن إثبات هذا الجزء من النظرية والتحقق منه إلى حد بعيد. أما الجزء التالي فإن له طابعاً تأملياً أكبر، على الرغم من إمكانية تقديمه من خلال صورة الدور الذي تلعبه الغرائز في الحياة اليومية. فالتوتر والارتخاء يتعاقبان أحدهما إثر الآخر على نحو منتظم تمكن مقارنته بالشهيق والزفير، أو بالمدّ والجزر؛ وذلك هو قانون الطبيعة. يتأرجح الرقّاص إلى جهة محددة أولاً، ومن ثم إلى الجهة الأخرى، إلى أن يبلغ اهتزازاته الأخيرة حين تتوقف تكّات الساعة. لاشك أن ثمة إيقاعاً في هذا التعاقب، ولكن لا يبدو أن هنالك سبباً لهذا الإيقاع. والأمر كما لو أن شخصاً أضرم النار ثم أخمدها. ولو كان هنالك شخصان، أو، في حالتنا، قوتان، الأولى التي تخلق التوتر والأخرى التي تُخمده، لكان الأمر مفهوماً أكثر. فاشتغال هاتين القوتين كل منهما ضدّ الأخرى يفسر الكثير؛ ذلك أن النار إذا ما أُتيح لها أن تستعر دون أية محاولة لإخمادها، فإنها ستدمر بلهيبها البيت كله. وإذا لم يكن ثمة نار، فإن أهل هذا البيت سوف يقتلهم البرد. وبعبارة أخرى، فإن نزوات العدوان، والتملّك، والجنس تنزع إلى إفناء كل الكائنات الحية إذا ما حازت على سلطة مطلقة. وإذا لم يكن هنالك منبه يوقظ نزوات الجنس والتملك، فإن الحياة سوف تتجمد؛ ونهاية أي من هذين الافتراضين

---

٢ – التعبير الألماني Trieb ، المرادف لـ drive (دافع) ، يؤكد على هذا الميل ، لكن مضمونه يشتمل أيضاً على الدفع بعيداً عن الشيء .

هي المحق والإبادة. فاستمرار الحياة يتأتّى عن الصراع والتفاعل، وعن العمل المستقل والتعاون بين هاتين القوتين.

إن للمبدأين اللذين يحكمان الحياة العضوية أهدافاً متباينة. فواحدهما ينحو إلى خلق توتر، أما الآخر فإلى خلق ارتخاء. وثمة معركة محتدمة بين هذين الضدين العظيمين منذ بدء الحياة على هذا الكوكب. ترى ما هي غاياتهما البيولوجية؟ إنّ الأول يمثّل التطور؛ والآخر الثبات. ويخلق الأول التنوّع والتباين، يخلق الفروق؛ أما الآخر فيحاول إلغاءها والتأكيد على التكرار، على إعادة إنتاج التماثل. يهدف الأول إلى التعديل والتباين؛ أما الثاني، فإلى التشاكل والتجانس. وبينما ينزع الأول باتجاه إنتاج أفراد متباينين، فإن الآخر ينزع باتجاه إنتاج صور متطابقة، نسخ لا تتميّز بعضها عن بعض. ويمكن عموماً وصف هذين النزوعين المتعاكسين بأنهما مبدآ التقدم والمحافظة، أو ومبدآ الهوية والاختلاف. ومبدأ التقدم يضخّم الحياة ويُغنيها بخلقه الفروق. أما مبدأ المحافظة، بتشديده على التكرار والتماثل، فيحاول أن يعطّل جهود خصمه، ويعمل كقوة محافظة ومعيارية.

إنّ الصراع بين هذين المبدأين المتعاكسين، وتسوياتهما، والتحاماتهما في بعض الأحيان، هي التي تحدّد سيرورة الحياة. ومعظم ظواهر الحياة التي نلاحظها هي تشكيلات مختلطة ناجمة عن كلا هذين المبدأين الأولين. فغالباً جداً ما يتدخّل المبدأ الآخر كي يثبت فعاليته الخاصة، عندما يقترب الأول من بلوغ غايته. وهكذا يَسِمُ صعود التوتر وهبوطه، وظهور الحاجات الملحة وزوالها، والقلق والسكينة، هذا التعاقب. والانطباع الذي نتلقّاه يشبه ذاك المتأتي عن موجتين قويتين قادمتين من اتجاهين متعاكسين تلتقيان في نقطة محددة.

الغرائز هي في خدمة هذين المبدأين العضويين وهي موظّفة عند كلتا القوتين. وبالطبع، فإن مهمتها في خدمة سيدين صعبة بما فيه الكفاية. وهي تحاول القيام بمهمتها من خلال طاعتها السيد الأول في البدء ومن ثم الثاني. فهي تؤدي واجبها تجاه النزوع الأول الذي ينبّه، ويحرّض، ويثير التوتر ويخلق الفروق، وتجاه الآخر، الذي يرخّي ويعيد السكينة التي تسوّي وتُعادل. ويتمثّل مفعول مثل هذا النشاط في أنّ غايات هذين المبدأين لا يمكن أن تُبْلَغ قط؛ ذلك أن جهودهما يتمّ إحباطها على الدوام. فالغرائز تنتج

حاجة عضوية ثمّ تضع لها حداً من خلال إشباعها. إنها تطلق تنبيهاً ثمّ تزيله من خلال إرضائه النوعي. وهي تنتج فروقاً وتعمل على تسويتها بارتخاء التوتر.

لقد تتبّعنا الطريق من دوافع حفظ الذات البدائية إلى الجهود التي تمثّل أسمى مآثر النوع البشري. فالغرائز التي تحرس الفرد تحمي حياته وتصونها ككائن مستقل. وهي تتغلّب على التوتر الذي تثيره أشد الحاجات حيوية من تنفس، ومأكل، وإطراح. ودوافع العدوان تقهر الصعاب المتأصلة في المقاومة التي يطلقها العالم في وجه رغبات الفرد. أما غرائز الجنس فتحاول أن تسوّي التوتر النوعي الناجم عن الرغبة الجنسية.

وبالمثل، فإن وظيفة الغرائز في تجسير الفجوات الاجتماعية هي وظيفة واضحة. فدوافع التملك والعدوان تحاول التغلّب على الفروق بين الأفراد من خلال قهرها أو تدميرها. والدافع الجنسي هو أداة لتجسير الهوّة بين الجنسين، ولشدّ الذكر والأنثى أحدهما إلى الآخر، على الرغم من تمايزاتهما. أما الحب فهو محاولة لدمجي معك، ولتلطيف التوتر بين شخصين. وتجاهد النزوعات الاجتماعية، المرتبطة صميمياً مع الحب، وربما وريثته في المستقبل، للتغلّب على الفروق بين المجموعات، والأمم، والعقائد، والطبقات.

إنّ هدف كل الدوافع الغريزية في الاتجاه الأول هو التماثل، والتطابق. ولكن ما من إمكانية لبلوغ ذلك، بل لمقاربته وحسب. وتؤدي جهود المبدأين في العادة إلى تسويات، إلى تماثل محدد في الاختلاف، وتفارق محدد في المحافظة على النموذج. ثمة تطور بطيء تقطعه انتكاسات وحركات رجعية.

لماذا نجد صعوبة شديدة في إيجاد طبيعة الغرائز وتمثيلاتها السيكولوجية، أي الدوافع؟ لأننا نعيش من خلالها. ويفسّر هذا السبب أيضاً تقديم هذه الفرضية، التي لن يكون لها أي تأثير على عرض نظريتي. ولعلها مفيدة في إلقاء الضوء على كامل المنطقة التي لا تشغل منها إشكاليات الجنس والحب إلاّ جزءاً صغيراً.

فلنلتفت الآن عن المشهد الأخّاذ للحياة الغريزية وننظر إلى الحقل الضيّق الذي تتعاون فيه وتتصارع دوافع الأنا، ومن بينها الأحدث سناً، الحب، مع الحافز الجنسي. ومن بين عدد هائل من الإشكاليات في هذا الميدان، لن نناقش هنا إلاّ قلة قليلة وحسب. ولأسباب عديدة سوف نقتصر على جزء بسيط من دائرة هذه الإشكاليات. إنّ شهوتنا للزاد الفكري قد تكون عظيمة، لكن علينا أن ننتبه كيلا نقضم ما لا نستطيع مضغه.

ميدان المعركة

حين يتعثّر المرء فإنّه ينظر حوله ليرى ما الذي جعله يزلّ. ومثل هذه الحركة لا يمكن أن تكون حركةً آلية. وها أنا في وضع مشابه، مدركاً كيف أخفقتُ في الفصل السابق في إعطاء فكرة ملائمة عن الدور العظيم الذي تلعبه إرادة الانتزاع وشهوة الهيمنة في الحب والجنس. وأنا أفضّل عبارة «إرادة الانتزاع» على غيرها من العبارات المرادفة، ليس لأنها تنطوي على مضمون أكثر دينامية وحسب، وإنما أيضاً لأن من الممكن استخدامها بكل من المعنيين الجنسي والتملّكي. فهي تدلّ على الرغبة في امتلاك الشخص أكثر مما تدل على إخضاعه أو جعله يشعر بقوة المرء الخاصة. وهذه الحاجة تتجدد كلما بدا الموضوع نائياً أو خارج مجال تأثير المرء. وهذا التجدد هو ما يجدّد الرغبة في الموضوع مرّة أخرى بعد امتلاكه، بقدر ما يجددها الحافز الجنسي، علماً أن الانتزاع يمكن أن يتّخذ في بعض الأحيان طابع اختبار المرء لقوته الخاصة حيال امرأة ممانعة أو مترددة.

كثيراً ما يحصل في العلم والحياة أنّ ما يبدو غامضاً وأشبه باللغز ما هو إلا تشوّش واختلاط. ولقد خلق التحليل النفسي مثل هذه الحالة إذْ فشل في أن يفرّق بين أشياء لابد أن تكون منفصلة ضمن المصطلح العام لكلمة جنس. وهكذا صار من الضروري أن نردّ هذا الخليط إلى عناصره الأصلية.

لقد حاولت في السابق، عند إعادة تقويم معظم القيم في نظرية اللبيدو التحليلية النفسية، أن أوضّح أنه ليس ثمة ما يدعى بمكونات الحافز الجنسي. وما قدّمه فرويد وأتباعه بوصفه كذلك؛ كالسادية، والمازوخية، والاستعراضية، وغيرها، هي خلائط من الحافز الجنسي، مع دوافع للهيمنة والتملّك من مجال الأنا. وليس للدافع الجنسي الخام مركّباته التي يمكن تفريقها؛ واختلاطه مع نزوعات الأنا هو وحده ما يؤدي إلى تباينات

وإلى تلك الحيدانات المرضية التي ندعوها بالانحرافات، لكن المحللين النفسانيين لم يروا بعد أنّ الانحرافات ليست ظواهر جنسية وحسب.

إنَّ الانطباع الذي مفاده أن الحافز الجنسي بحد ذاته يمكن أن تكون له خصائص الهيمنة والإخضاع ليس إلا وهماً وضلالاً. وبالطبع، فإن الغريزة البدائية لا تعرف أي احترامٍ أو اهتمام بالموضوع الذي يُستعمل لإرضاء الحاجات؛ ولا تستيقظ الارتكاسات البريّة أو العنيفة إلا حيّال مقاومة الموضوع. ويمكن أن نثبت أن بعض الاختلاط للحافز الجنسي مع نزوعات الأنا لابد أن يكون قد حدث باكراً جداً في التطور البشري من خلال طابع الفعل الجنسي ذاته، الذي لا يزال إلى الآن ينمّ عن آثار صراع. ومثل هذا الدليل الظاهري، مهما يكن، لا يقدّم للمحللين النفسانيين إلا القليل من العزاء. فهجومية نظريات هؤلاء تكمن بالضبط في ادّعائهم أنهم يقدمون الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة في حين أنهم ليسوا على حق إلا جزئياً. إن نظرية الليبيدو هي، وستبقى، الجزء الأضعف في مأثرة فرويد العظيمة.

غالباً ما يغطّي المصطلح التحليلي النفسي «الجنسية النفسية» اختلاط الجنس وشهوة الانتزاع. ويمكن أن نثبت بعدد هائل من الملاحظات التي نجدها في الروايات والمسرحيات أنّ هذا الخليط المؤلف من كلا الدافعين كان معروفاً جيداً قبل ظهور التحليل النفسي. وسوف أختار مثالاً واحداً من مسرحية برنارد شو ***بيوت الأرامل***. فالعاشقان في هذه المسرحية، بلانش وترنش، يتخاصمان وينفصلان. ومرة يكون لدى ترنش شغل في بيت والد بلانش ويبقى وحده لبضعة دقائق. يتطلع حوله بحذر، ومن ثم يمضي على رؤوس أصابعه إلى البيانو، يتكئ عليه بذراعيه المثنيين، متملياً في صورة محبوبته. ولا تلبث أن تظهر هذه الأخيرة نفسها عند باب المكتب. وحين ترى كيف كان مستغرقاً، تنسلّ نحوه، ممعنة النظر إليه. وحين ينهض من وضعية اتكائه، يأخذ اللوحة عن الحامل، ويكون على وشك أن يلثمها، حين يقع بصره على بلانش. يُسقِطُ اللوحة من يده، وهو ينظر إلى بلانش. يحمر خجلاً ويتراجع خطوة إلى الخلف. وتلاحقه بلانش دون رحمة. ويبدأ بتناول قبعته عن الطاولة متجهماً محمراً ومجفلاً. وعندما يتحول باتجاه الباب، تقف في طريقه عامدة فتضطره للوقوف. بلانش: «لا أريدك أن تبقى». ولبرهة يقفان وجهاً لوجه، جدّ قريبين واحدهما من الآخر، هي مُستفزّة، ساخرة، وفي

ملامحها شيء من التحدي، وشيء من الدعوة له لأن يتقدم، طالعة من حميًا تهيج حيواني صريح. وفجأة يومض في ذهنه أن كل هذه الضراوة سببها الرغبة الجنسية، وأنها تمارس به الجنس. إن هذا الوصف ليلفت الانتباه إذْ يتعلّق بما في ممارسة الحب من عدوانية من قبل المرأة. ومثل هذه العدوانية تظهر لدى النساء في بعض الأحيان عندما لا يأخذ الرجال زمام المبادرة في الغزل. أما بعض النساء فيصبحن باردات جنسياً في مثل هذه الأحوال. («الانتظار الطويل يجعلني عصبية مثل قطة»، قالت إحداهنّ). فإذا بقي الرجل مفرطاً في سلبيته، فإنها هي التي تضطلع بالدور الفعّال.

من الصعب أن نتبيّن أو أن نحدّد حصة دوافع الأنا في هذه الأرض، حيث يلتقي الحب والجنس ويندمجان. ولقد وصفنا، حين رسمنا الخطوط العريضة للأطوار السابقة على الحب، كيف أنّ هذا الأخير ينجم عن ارتكاس انفعالي تجاه نزوعات الطمع، والعداء، والعدوان. ولابدّ من القول إنّ هذه القوى، التي غلبها الهوى واكتسحها، غالباً ما تؤكد وجودها فجأة في خضم الحب، تماماً مثل أولئك التيتان Titans القدماء، الذين طردتهم الآلهة الإغريقية إلى العالم السفلي، فتمردوا على المغتصبين الجدد. هكذا الحب لا يحقق سلاماً دائماً بين الجنسين، وإنما هدنة قد تطول أو تقصر وحسب.

لا يمكن أن نتعامى عن حقيقة أنّ نزواتٍ شديدة من العداء تظهر في بعض الأحيان في خضم الحب، نزوعات مدهشة لإيذاء موضوع العاطفة. إنها بقايا من الانفعالات الأصلية، وآثار من أطوار الحب البدئية. بل يمكن لنا أن نلاحظ، وإن كان ذلك لا يحصل إلاّ نادراً، أفكار حسدٍ عابرة ونزوات طمع تجاه المحبوب. وعادةً ما تكون هذه الانفعالات عادية لا إزعاج فيها ولا تنغيص، إلا أن بمقدورها أن تلعب دوراً حاسماً في المعركة بين الجنسين[1]. ووجودها بحد ذاته يثبت أن الجنس والعاطفة لا يتحكمان

---

١ – ثمة هامش من الشك فيما إذا كان ستريندبرغ هو أول كاتب يعبّر على نحوٍ واع عما في الحب من كراهية. فلقد وجدت بين أمتعة هنري بيك، مؤلف المسرحية الطبيعية التي عنوانها «الباريسية»، والمتوفى عام ٩٩٨١، قصيدة كانت تتضمن هذا البيت: «كنت فظاً وفاتراً، وكانت حارّة وقاسية»، وتبدأ على هذا النحو:

ليس لديّ ما يذكّرني بها
لا صورة، ولا خصلة شعر
ليس لديّ رسالة منها
لقد تباغضنا نحن الإثنين.

وحدهما بالعلاقة بين الجنسين، وإنما هناك أيضاً عامل صامت غالباً ما يتم تجاهله أو تبخيس قيمته، هو دوافع الأنا القديمة التي لا يمكن استنفادها كلية. هكذا تعاود الانفعالات الأصلية، من حسد، وطمع، وتملّك، وعداء، ظهورها حين يخبو الحب. ففي تحلّله وانهياره سوف تتكشّف ثانية هذه المكونات التي عملت عملها عند ولادة الغرام. وسوف يظهر تضارب الإرادات ثانية قرب النهاية كما كان شأنه عند البدء.

لا شكَّ أنَّ شهوة الهيمنة موجودة لدى الرجال والنساء على حدّ سواء، لكنها لا تفعل فعلها بالشدة ذاتها لدى كليهما. ثمة لدى الرجال شيء من الصيّاد، مقابل شيء من نزوة ناصب الشراك لدى النساء. وشهوة القنص هذه تعزّز اللذة الجنسية، وتشحذ شهية الذكر، بل إنها تصبح ضرورة نفسية لدى الكثيرين حتى إنّ بعض الرجال يفقدون رغبتهم الجنسية إلى حد معين إن لم يواجهوا مقاومة ما، مهما تكن. ولقد أفضى إلي مرة أحد المرضى بحادثة له مع سيدة شابة من بين معارفه المقرّبين بدت منجذبة إليه. وبعد حفلة، قضى فيها كلاهما وقتاً طيباً، صحبها إلى بيته من أجل حفلة كوكتيل ختامية. وبينما هي تبدّل ملابسها شعر بشيء من الإثارة. وما لبثت أن ظهرت بثوبٍ مُغْرٍ. وبينما هما يحتسيان الكوكتيل قالت: «لماذا نضيّع الوقت سدى بكل هذه التمهيدات؟ فلنمضِ إلى السرير». وفي الحال صحا الرجل: لم يُخفِ امتعاضه من كونها قد جرّدته من الإشباع الناجم عن جذبها إليه وانتزاعها، وحرمته من التغلّب على ترددها ومقاومتها. فتناول قبعته ومضى.

وحتى حين لا تكون الارتكاسات بمثل هذه المباشرة، فإن غياب بعض المقاومة من جانب المرأة يكون مدعاة للأسف الصامت من قبل الرجل. أية لذّة ينالها الصياد إذا كانت الطريدة هدفاً طيّعاً؟ لقد غدا إشباع الرغبة في الانتزاع، ومقارعة المقاومة عاملاً أساسياً ومهمّاً في المناوشات التمهيدية. وكان فرويد يعتقد أن اقتناعاً يُقْبَل بسهولة ودون ارتياب في البدء لا يمكن أن يكون راسخاً وثميناً. ولقد تحدّث في هذا الموضوع في إحدى أمسيات الأربعاء التي كنا، نحن أتباعه القدامى، نُدعى إليها في بيته وقد ختم حديثه بجملة مفعمة بالمعنى: «القناعات، والنساء اللواتي ننالهن بيسر، لا تكون لهن قيمة كبيرة بالنسبة لنا».

إن للرغبة الذكرية في الانتزاع مكانتها في استراتيجية الغرام الدقيقة. فقنص

رجل قد يكون نقلةً خاطئة تجعله يتراجع، وقد يكون الابتعاد عنه حين يكون متردداً هو الطريقة المثلى لاصطياده. وتبيّن خبرتي في التحليل النفسي أن هذا المبدأ (على عكس وجهة النظر الشائعة) له قيمته الخاصة بالنسبة للرجال النسويين. فهم يُبْدون حساسية خاصة تجاه المقاربة الفعّالة من قبل المرأة. ويشتدّ هذا الموقف حتى يصل إلى حد الخوف والعداء لدى كثير من الجنسيين المثليين، الذين غالباً ما يتطور لديهم نوع من هوس الاضطهاد Persecutionmania وكأن كل النساء يلتمسن إقامة علاقات جنسية معهم. وغالباً ما يتضح أنّ هؤلاء الرجال ينسبون نزوعاتهم اللاواعية إلى النساء اللواتي «يلاحقن» هم. والرجال الجنسيون المثليون غالباً ما يسيئون تفسير أمارات الاهتمام البسيطة والصداقة بهذا المعنى.

بل يمكن أن يشكّل انتزاع المرأة إشباعاً بالنسبة لمجموعة كبيرة من الرجال الذين لا يفكرون بالمرأة إلا حين يشعرون بحاجة فيزيائية إليها، والذين يعتبرون الحب مجرد كلمة تُستخدم في الأفلام والمجلات. وهؤلاء غالباً ما يشعرون أيضاً بأن ثمة عقبات تتحداهم؛ فيغدو الانتزاع قضية هيبة شخصية. وهم يتمتعون بالمغازلة على النحو الذي يتمتعون فيه بالصيد، ويشعر بعضهم أنهم خُدِعوا إذا ما نفذت مشيئتهم بسهولة ويسر. ويبدو أن لسيكولوجيا سَحَرة النساء علاقةً بهذه الشهوة للانتزاع أكبر بكثير من علاقتها بالجنس. وغالباً ما يفكر الرجال أنهم «سعداء في الحب» بينما هم مبتهجون بالنصر وحسب. ولابد أن دون جوان قد احتاج إلى كثير من الوسائد من أجل أناه المتزعزع. ومن يحتاج إلى الكثير من النساء لا يمكن في الحقيقة أن يقدرهن حق قدرهن أو أن يكون معهن في حب. ولعلكم تتوقعون أنّ رجلاً يتمتع بحظوة كثير من النساء والفتيات لابد أن يكون صديقاً للجنس اللطيف ومقراً بالجميل على كل ما يتلقّاه من عاطفة. وحقيقة الأمر أنّ معظم هؤلاء الدون جوانات أشخاص يكرهون النساء. وهذه السمة توضح أيضاً أن الانتصار على النساء هو بالنسبة للرجال من هذا الطراز أكثر أهمية من الإشباع الجنسي. ولعل من الأفضل القول إن إشباع هذه الرغبة المحددة يبدو لهم نوعاً من اللذة العظمى التي تُشْتَقّ من الجنس.

لابدّ إذاً أن نأخذ بعين الاعتبار دور الكبرياء الذكورية. ما هي الكبرياء، بالمعنى السيكولوجي؟ إنها موقف دفاعي تجاهلته السيكولوجيا المعاصرة، لكنها ذات أهمية

عظيمة في فهم السلوك البشري. وهي تنشأ بوصفها إجراء واقياً لدى الشخص بعد أن يكون قد تأذّى، وهي لا تكتفي بأن تخفي وحسب، بل تكشف أيضاً قابلية هذا الشخص للانجراح vulnerability. وتمكن مقارنتها بالندبة التي تتشكل بعد أن يشفى الجرح. وكبرياء الرجل في علاقته بالنساء هي، في المقام الأول، كبرياء جنسية، كما لو أنه غير واثق من قدرته الجنسية. وهكذا فإن أداءه لوظيفته في الاتصال الجنسي لا يكون له طابع الإشباع الفيزيائي وحسب، بل طابع الانتصار أيضاً. كما أن للاتصال الجنسي، بصورة لا واعية، بل بصورة واعية أيضاً، طابع الاختبار بالنسبة للرجل. ذلك أنّ عليه أن يثبت لنفسه أنه رجل، وأن يؤكّد ذاته كما لو كانت فحولته Potency موضع شك. ومثل هذا الشك بفحولته الخاصة يمكن أن يشكل عائقاً جدياً لدى مقاربة النساء؛ فمثل هذا الرجل يخاف من التحدي الذي يمثله الاتصال الجنسي بالنسبة له. ويرعبه التفكير في أن المرأة قد لا تعتبره مكتمل الرجولة («لستُ رجلاً»). وهذه الكبرياء البدائية التي تتركّز حول الدور الجنسي هي كبرياء غريبة على النساء[2]. فالكبرياء لدى النساء تنبع من منبع آخر. وإذا كان الرجل يريد أن يؤكد لنفسه مرة بعد مرة أنه قوي ورجل، ويشعر بالفخار إذا ما كانت رغبته الجنسية شديدة تجاه المرأة، فإن المرأة تشعر بالخجل إذا ما رُغِبَ بها جنسياً وحسب.

إن كبرياء النساء هي، كما سبق القول، من نوع آخر، لكنها أكثر تطوراً من كبرياء الرجل. وقابليتها للانجراح هي أعظم وتتعلّق بمجالات نفسية أخرى. فالحاجة إلى الانتزاع تتجلى لدى المرأة على نحو أكثر دقة. وهي تستمتع بسلطتها على الرجل، لكنها تفضّل امتلاك هذه السلطة، ليس لأنها امرأة وحسب، بل لأنها هي ذاتها. وقلّة

---

٢ – في مقالة ظهرت مؤخراً في مجلة Psychiatry، العدد السادس، ٢١ شباط ١٩٤٣، وعنوانها «الجنس والشخصية»، أشار الدكتور إريك فروم بحق إلى «أن ثمة فروقاً في الشخصية تعكس الأدوار المختلفة للرجال والنساء في الاتصال الجنسي». ويلاحظ أيضاً أن «ضروب القلق لدى الرجال والنساء تشير إلى عوالم مختلفة؛ فالرجل معنيّ بأناه، بهيبته، بقيمته في عيني المرأة؛ أما المرأة فمعنية بلذتها الجنسية وإشباعها». فالمرأة تعتمد على الرجل كي يوصلها إلى الرعشة، وتخشى من أن «تُترَك وحدها» إذا ما هيّجها الرجل ولم يكن قادراً على تأمين إرضاءها الجنسي. إن الدكتور فروم يفرط في تبسيط صورة الوضع. فالخوف الذي يشير إليه لا يتواجد لدى النساء إلاّ بعد أن يختبرن الإخفاق المتكرر للرجل. والنساء اللواتي لم يختبرن إخفاق الرجال الجنسي لا يشعرن بمثل هذا القلق. ومن جهة أخرى، غالباً ما تدرك النساء أنهن لا يستطعن بلوغ الإشباع الجنسي بأنفسهن بسبب الضعف لديهن (الخجل، الخوف، العداء اللاواعي تجاه الرجل، وغيرها من ضروب الكف). بل يمكن حتى لشكوكٍ تتعلق بمظهرهن أن تفعل فعلها فيهن على هذا النحو. وكثير من النساء، يعلمن بصورة واعية أو لا واعية أنهن مسؤولات بالمثل عن إخفاق الرجل الجنسي. وكثير منهن يشعرن بكبرياء خفية لدى قدرتهن على استنهاض فحولة الرجل.

قليلة من النساء هن من ترضيهن السلطة التي يمكن تقريباً لأي امرأة أخرى أن تحوزها على رجل مُثَار. وتفضّل النساء أن يهيمنّ ليس لأنهن نساء، بل بسبب مواهبهن الفردية. ولا تريد المرأة أن يتم تقديرها لمجرد كونها فرداً من جنس النساء، بل باعتبارها شخصية. وتمكن مقارنة الطابع المتعارض للكبرياء الذكورية والأنثوية على أفضل وجه بمواقفهما الخاصة تجاه مسألة الفردية individuality في قضايا أخرى. ولقد رأيت لوحة صغيرة توضح هذا التعارض على نحو طريف. فمن جانب أول، وفي مخزن لبيع القبعات ثمة بائع يزكّي قبعة لرجل قائلاً: «خذ هذه، يا سيد. كل السادة في المدينة يرتدون هذه القبعات»، وفي الجانب الآخر بائعة تُقنع زبونة قائلة: «خذي هذه القبعة، مدام. ما من سيدة في المدينة لديها مثلها».

ثمة خوف مستتر لدى المرأة من أن يقدّرها الرجل باعتبارها أنثى لا باعتبارها فرداً. وهي تخاف من أن يرغب فيها لا باعتبارها امرأة بعينها، بل باعتبارها الأنثى الأقرب إلى متناوله. وهي تحتاج إلى ما يؤكّد أنه يريدها هي، ولا يريد مجرد امرأة جميلة، كائنةً من كانت. يقول كيبلنغ: «لابدّ للرجل من أن يمضي إلى النساء، الأمر الذي لا تفهمه النساء». وفي الحقيقة فإن معظمهن يفهمن ذلك، بل ويستطعن تحمّل هذه الحقيقة، ولكن لا يردن أن تشملهنّ مجموعة النساء التي لابدّ أن يمضي الرجال إليهن. كما يعلمن كم هي يسيرة إثارة الرجل جنسياً وكم هو عسير جعله يحب. أن يكون لهن سلطة على رجل فإن ذلك يغذّي كبرياءهن، هذا صحيح، ولكن على طابع هذه السلطة يتوقف ما إذا كان بمقدور المرأة أن تسمح لنفسها أن تفخر بها(٣).

إن النساء يعلمن ما سيكون عليه مصيرهن إذا ما استسلمن للرجال بسهولة زائدة؛ حيث يُستَعملن جنسياً ومن ثم يُطْرَحن جانباً. والتقليد النسوي السري القديم - الحذر من الرجال - يتم تلقنيه لكل فتاة صغيرة أثناء تنشئتها. وتخشى النساء من أن يُستَعملن في البدء ومن ثم يُساء استعمالهن. ويحتجن إلى ما يضمن لهن الحب فضلاً عن الرغبة فيهن. وتنتابهن على الدوام فكرة أنهن سرعان ما يُهجَرن بعد أن يقضي

---

٣ - وصف ستاندال هذه الكبرياء وهذه الحساسية لدى النساء كما يلي: «المرأة ذات الطابع السمح سوف تضحّي بحياتها ألف مرة من أجل عاشقها لكنها تخوض معه نزاع كبرياء أبدياً حول باب مفتوح أو مغلق».
ومن الملحوظ أن النساء أكثر ممانعة بكثير لقبول عيوبهنّ تجاه الرجال قياساً بهؤلاء الأخيرين تجاههن. وإذا ما ندمن على فعل خاطئ ضد الرجل، فإنهن لا يأبين الإقرار به بالقول وحسب، بل يستبقن أيضاً ملامة الرجل ويركّزن كثيراً على أن يرتكسن بحنق وامتعاض.

الرجل منهن وطره. وهذا هو السبب الذي يجعلهن يبدأن بمقاومة تقدّم الرجال وينتهين بالحيلولة دون إحجامه، كما قال أوسكار وايلد. وتدرك النساء أن من غير الممكن الاحتفاظ بالرجال إلا بإبداء ممانعة في البدء: «ما الذي سيظنه بي؟» إنه السؤال الأبدي لديهن. ولقد حكت لي إحدى الفتيات مرة أنها رغبت في معرفة ما إذا كان شاب محدّد يحبها، لكنها أضافت فوراً أنها لم تنفّذ رغبتها لأن معرفة ذلك قد تحرمها من عفويتها. ولدي انطباع أن النزوع إلى محاولة توقّع الارتكاسات هو أكثر تطوراً بكثير لدى النساء منه لدى الرجال. وهو يفسّر جزئياً سبب اللباقة الاجتماعية الأكثر رهافة لدى النساء عموماً منها لدى الرجال. ولقد أفضت إليّ صبية بأنها غالباً ما كانت غير واثقة من الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها سلوكها حين تقابل شاباً في الشارع. هل عليها أن تنظر إليه مباشرة وهو قادم باتجاهها؟ ربما اعتبر هذه النظرة نوعاً من الدعوة له، فالنظر قد ينمّ على اهتمامها. لكنّ النظر بعيداً، كما تعتقد، يدلّ أيضاً على انجذابها إليه إذ أنه يشير إلى أنها تتفادى النظر عامدة.

بل يمكن لمثل هذا الحدس أن يصبح غير واع. وفهم هذه الحقيقة يقدّم مفتاحاً للمواقف النسوية التي تحيّر الأشد ذكاءً في بعض الأحيان. ويمكن لنا أن نفهم هذه السمة بصورة أشد وضوحاً إذا ما أخذنا بالحسبان، مثلاً، أن النساء جدّ حساسات فيما يتعلق بمظهرهن والانطباع الذي يخلّفه. لماذا تعبس الفتاة فجأة؟ ليس ثمة ما يبرر ذلك في الحديث الودّي الذي سبق تبدّل مزاجها. والرجل لا يعرف أن عينها قد طرفت وحسب إلى صورتها في المرآة على الجدار فاعتقدت أنها لا تبدو كما يجب. ولقد دُهِشَ شاب إذ زار فتاة ووجدها متحفظة وغير ودية، رغم أنها كانت لبقة وودودة في الزيارات السابقة. ولم يحزر أنها شعرت بعدم ارتياح لأنها غسلت شعرها قبل فترة وجيزة من قدومه وأنها انزعجت لأنه كان لا يزال مبللاً. قلّما يغيب عن ذهن المرأة اهتمامها بالانطباع الذي تخلّفه لدى الرجل[٤]، وهذه حقيقة تحدّد موقف المرأة في المعركة بين الجنسين.

---

٤ – تتذكر مريضة من طفولتها الباكرة أنها ارتبكت وهي في الأرجوحة لأن سروالها الداخلي لم يكن ملائماً لثوبها. وتتعلم البنات باكراً جداً أن ينظرن إلى أنفسهن بعيون الآخرين. قالت هذه المريضة نفسها: «حين أكون مرتدية ملابس رثّة أكره كل الناس». وغالباً ما تنتاب النساء أفكار مثل: «مَنْ على وجه الأرض يمكنه أن يميل إليّ وأنا أبدو هكذا؟» أو «لماذا لا يستطيع أن يراني الآن؟».

تلتقط المرأة الصوت الداخلي في سلوك الرجال، وهي حساسة تجاه أبسط تجاهل أو افتقار إلى الاهتمام، وتجاه أيّ تبدّل في أمزجتهم. ويقتضي منها احترامها لذاتها أن لا تمنح نفسها لرجل لا يقدّرها حق قدرها ككائن بشري. ويُظْهِر كبرياء النساء قابليتهن للانجراح. وهن يعرفن جيداً - أفضل من المحللين النفسانيين - أن لكل من الرغبة الجنسية والحب مولداً مختلفاً.

يؤازر إرادة الانتزاع لدى الرجال نوع غريب من الفضول الذي لا يتعلق بالجسد وحده. فالشاب يحدس في أحلام يقظته باستسلام المرأة وتكون أحلام اليقظة هذه منشغلةً بصور images حول سلوكها في استسلامها له. وهي صور لا تعنى بالجسد المرغوب بقدر ما تعنى بكلمات المرأة المحبوبة، وإيماءاتها، وسلوكها الذي تستحضره هذه الاستيهامات المهتاجة. وثمة إحساس غير واع يخبر الشباب أن المرأة التي تمنح جسدها تعطيه ما هو أكثر من الجسد، وتكشف له ما يزيد على مفاتنها. وهو يشعر أنها باستسلامها تفشي ذاتها السرية. ومما له دلالته أن ***الكتاب المقدّس*** يستخدم عبارة «معرفة المرأة» بمعنى الاتصال الجنسي معها. والثيمة الأساسية لمثل هذه الاستيهامات الذكرية هي ثيمة شبقية erotic، إن لم تكن جنسية محضاً، لكنها غير مقتصرة على الجنس وحده. فهي تدور حول المرأة موضوع الحب، شخصيتها، سلوكها، أفكارها ومشاعرها، وغالباً ما ترغب بالنفاذ إلى لبّ كينونتها.

في مثل هذه الاستيهامات يتمّ التعبير بوضوح عن نوعٍ من التملك الذهني، عن رغبة في الحيازة، حيازة جسدها وعقلها. وغالباً ما يكون مثل هذا التملك متضافراً مع شعور قديم بالغيرة، التي تنوس على نحو غريب بين النقيضين: الحنان والقسوة. ولقد قال شاب لفتاة يحبها: «أودّ أن أعرف ما اقترفت يداك في حياتك كلها». وشاب آخر راح يراقب زوجته، الجديدة، في أحاديثها مع الآخرين بنوع من الافتتان؛ وحين استدارت نحوه مبتسمة، انتابه شعور بهيج بأنه استردّها. وفي بعض الأحيان فإن الرغبة التي تستحوذ على المرء في معرفة كل شيء عن موضوع الحب تكشف عن طبيعتها، إذا ما تدهورت وفسدت، في ضربٍ من البحث المعذِّب وتعذيب النفس.

كتب كازانوفا العجوز في مذكراته أن الحب «ثلاثة أرباعه فضول». لكن مثل هذا

القول هو أقل دلالة وأهمية بالنسبة لبحثنا منه بالنسبة للشخص الذي يؤمن به(٥).

من اللافت أن كازانوفا المغامر لم يرَ في الحب سوى اللذة الجسدية. فهو حين تحدّث أو كتب عن "L'amour"(*)، لم يُضَمِّن هذه الكلمة الحنان بل المتعة الجنسية وحدها(٦). وصارت مطابقة تقريباً لكلمة "Volupté"(**). وعلى أية حال، فإن الحصة التي يعزوها للفضول تبيّن أن شهوة الانتزاع كانت تعني له الكثير. وما عسى الفضول في الحب أن يكون سوى شكل ذهني لإرادة الانتزاع؟

---

٥ – رغم أنّ المحلل النفساني، الدكتور سي. م. هيرولد (في مجلة The Psychoanalytic Quarterly، ١٩٤٢) قد عبّر عن وجهة النظر ذاتها بعد بضعة قرون من كازانوفا، معلناً أن جوهر الحب هو الفضول، والرغبة في معرفة الموضوع، فإن ثلاثة أرباع هذا القول تبقى خطأ. إن فيه من السذاجة بقدر ما في خلط أحد الأشخاص بين الفلفل الذي أضافه الطبّاخ إلى الطعام ومادة الطعام الأساسية.

* – الحب، بالفرنسية في النص الأصلي.

٦ – قارن ذلك مع جملة أناتول فرانس العجوز متذكراً طراز لباس السيدات الذي كان ذات مرة يحتوي على كثير من الأزرار: "Il y a Trente ans les modes feminine étaient tres cruel pour les amants"

«منذ ثلاثين سنة كانت الأزياء النسائية فظة جداً بالنسبة للعشاق».

** – المتعة، بالفرنسية في النص الأصلي.

لهفة الانتقام

في تفاعل الحافز الجنسي، ورغبة الهيمنة، والحنان، ثمة عدد وافر من الإشكاليات. اسمحوا لي أن أذكّركم بالصراعات التي تنشأ من الحاجات الانفعالية المختلفة لدى كلا الجنسين، وبإلحاح النساء على عدم التفكير بالجنس إلاّ بالارتباط مع العاطفة، وبالصراعات الناجمة عن كبريائهن الجريحة، وبالارتكاسات العنيفة لدى الرجال الذين يشعرون بانتهاك مطامحهم الذكورية. واسمحوا لي أن أذكّركم أيضاً بالتنافس القديم بين الجنسين والذي لم يُمْحَق وإنما غُمِرَ بالحنان وحسب، وهو على استعداد دائم للظهور من جديد. ولقد سبق أن ناقشنا كل ذلك فلا حاجة بي لأن أُسهب فيه هنا.

ثمة، على أية حال، ظاهرة انفعالية غالباً جداً ما تحصل في العلاقات بين الجنسين بحيث تتعجبون كيف أنها لم تؤخذ بالحسبان من قبل السيكولوجيين على نحو أكثر جدية بكثير. ولقد قرأت في مئات عديدة من الكتب عن إشكاليات الزواج، والحب، والجنس ولم أجد ما يتعدّى التنويه العابر والقاصر إلى هذه الظاهرة هنا وهناك. وأنا أقصد تلك الرغبة التي تكاد لا تُقهَر في الانتقام من الآخر الذي يؤذي مشاعر المرء.

من الواضح أن علاقة الحب لا تكون ممكنة عندما يستخدم أحد الشريكين تفوقه لقهر الآخر. بل إن تحقق أحدهما من أن الآخر يمارس عليه جوراً يخلّف لديه أثراً باقياً، وإن يكن غير واعٍ، يعبر عن نفسه بنقمة خفية. ومنبّه الحقد قوي أيضاً وعلى نحو مدهش لدى من يقرآن أنَّ أحدهما يحبّ الآخر. والضغينة والمرارة يمكن أن تبقى حية لزمن طويل بعد أن يكون قد تمّ نسيان باعثها. ولعل تقديركم لمقدرة البشر على الغفران والنسيان يتضاءل كثيراً حين تتحققون من أن التحليل النفساني لكثير من أفراد كلا الجنسين يبين بوضوح أن رغبة الانتقام لدى أحد الشريكين تواصل الحياة فترة

طويلة بعد أن يتم الشعور بها على نحو واع. وهكذا فإن رد المُنتَهك، وجعله يتجرّع من طبّه الخاص، بجرعة كبيرة إن أمكن، يبقى واحداً من الرغبات غير الواعية في الحياة الانفعالية للمتزوجين والعشاق. وهو يعبّر عن نفسه لا في التخريب المستتر لجهود الشخص الآخر أو في الصراع المكشوف وحسب، بل أيضاً في تيار العداء والحقد الخفيين اللذين غالباً ما يكون دوامهما مدعاة للدهشة. إنه يحيا في الاستيهامات اللاواعية ويتكشّف في أفعال أعراضية Symptomatic بسيطة تنير فجأة تلك الوضعية النفسية القائمة بين شخصين كما تنير الأنوار الكاشفة مشهداً مظلماً.

تتجلى روح الثأر هذه في توتّر يتم الشعور به لكنه لا يُدْرَك بصورة واعية، وينفذ إلى لبّ العلاقة بين الإثنين. وحقد النساء العميق قمين بإقناع أي شخص أنهن يمكن أن يكنّ ضاريات وعنيفات مثل الرجال. وأنا أعرف أن فتاة لم تغفر لزوجها، بعد سنوات عدة من الزواج «السعيد»، أنه كان قد أقام علاقة مع فتاة أخرى، عندما كان لا يزال خاطباً. ومن المعروف جيداً أن المرأة التي تتزوج رجلاً أرمل نادراً ما يمكنها احتمال إطرائه لزوجته الميتة. ولسوف تمتعض طويلاً بعد مقارنة تُجرى بين محاسن الميتة ومساوئها هي. وفي مثل هذه الظروف يضرم الحب نار العداء.

تزوجت فتاة رجلاً كان يبدو لفترة طويلة وكأنه غير مبالٍ بإعجابها الصريح به. وبعد زواجها منه شعرت تجاهه بنقمة ثابتة خفية. كانت تكرهه لأنها اضطرت لأن «تصطاده» بدلاً من أن يخطب هو ودّها. ولم تستطع أن تغفر له؛ إذ طالما شعرت قبل الزواج بالإذلال الناجم عن هذا الانقلاب في دوريهما الملائمين. واستيهامات الثأر لدى النساء، اللواتي يشعرن أنهن منبوذات أو اللواتي ينتظرن طويلاً قبل أن يسعى وراءهن أحد، هي استيهامات مألوفة إلى حد بعيد. ولقد اشتكت إحدى الفتيات قائلة: «إنه بعيد جداً فلا أستطيع أن أكون باردة معه. أتمنى لو يشعر بالانجذاب نحوي كي أتمكن من رفضه». وكان لدى فتاة أخرى استيهام ناشط جداً أضحت فيه مغنّية مشهورة وأحرزت نجاحاً عظيماً في إحدى الأوبرات التي كان يحضرها شاب محدد. وبينما كان ينتظرها على باب المسرح، عبرت دون أن تنظر إليه. وحين اتجه إليها، قالت بفتور: «دعني أمضي». والشكل الأكثر تكراراً لمثل هذه الاستيهامات هو الذي تمضي فيه المرأة مع رجال آخرين بقصد أن تُري الشخص المحبوب والمكروه كم هي محطّ إعجاب وتقدير.

إن تضارب الإرادات، الذي سبق ظهور العاطفة وكان خفياً، غالباً ما ينتعش ثانية بشكل آخر. والمحللون النفسانيون يصابون بالدهشة حين يجدون كم يمكن للرجال والنساء أن يشعروا بالنقمة في لاوعيهم في حين تبقى علاقاتهم وديّة على السطح. ويتكوّن لدى المرء انطباع بأنّ العلاقة الأصلية للرجل بالمرأة وللمرأة بالرجل هي علاقة عداء، وأنّ الكراهية والخوف موجودان منذ بداية العلاقات البشرية.

لماذا يلعب الحقد مثل هذا الدور تحت السطح في حياة الأزواج الانفعالية؟ ثمة أسباب عديدة للضغائن أحادية الجانب أو المتبادلة، لكن من الواضح أنّ تلك التي يتمّ الشعور بها على نحو أكثر جدية هي أذيّات واقعية أو وهمية تصيب تقدير المرء لذاته. والسبب واضح. فقد أكّدنا أن الحب يزيل انعدام الأمن الداخلي، ويزيل ارتياب المرء بجدارته وقيمته، ويمنح المحب توكيداً على كرامته واحترامه لذاته. ومن الطبيعي أن يلقي به شكّه في كونه محبوباً في مهاوي انعدام الأمن القديم، ويحيي عدم ثقته بنفسه، وينعش السخط في داخله. هكذا يعود القلق القديم، الذي كان قد تغلّب عليه تأكُّد المرء من أنه محبوب. لقد جعله كونه محبوباً غير قابل للانجراح كما يبدو، ولكن ها هو عرضة من جديد لتعذيب الذات إذ فقد الثقة بالنفس التي استعادها عبر الحب. ولديّ انطباع قوي أن شعور المرء بكونه غير مطلوب، هذا الانفعال الأصيل المعبَّر عنه بعبارة «لا أحد يحبني»، مرتبط من حيث طابعه النفسي بالخوف، بل بالخوف من الموت في بعض الأحيان. إن الوضعية التي يتضح فيها فجأة لشخص ما أنه ليس محبوباً قط تولّد انفعالاً مشابهاً لسكرة الموت، أو ربما لهلع طفل هجرته أمه فجأة.

يبدو أنّ اقتناع المرء بقيمته الخاصة - المحروسة والمعززة بكونه محبوباً - هو وقاء ضد هذا القلق.

إنّ تجريد المرء من إحساسه هذا بقيمته ككائن بشري يماثل إلقاءه من جديد في الظلمة الحالكة للنفور من الذات، تلك الظلمة التي أنقذه الحب منها. وعندما يتبيّن الرجال والنساء فجأة أنهم كفّوا عن أن يكونوا محبوبين من قبل من أحبهم يقولون إنهم يشعرون كما لو أنهم يموتون، وليست هذه مبالغة مفرطة. فذلك يعني أنهم عرضة لقلق يشابه ما في خطر الموت. وهم لا يعلمون أن هذا الخطر آت من الداخل، من نزوعات تدمير الذات في الطبقات العميقة من العقل اللاواعي.

دعونا نقارب الإشكالية من زاوية أخرى: ثمة شكل خطير من الجنون insanity يدعى البارانويا Paranoia، يشعر فيه المريض بأنه معرّض للخطر من قبل أشخاص يعرفهم أو لا يعرفهم يبدون على أنهم يتآمرون ضدّه ويريدون تقييد حريته ووضع حد لحياته. وفي كل الاستيهامات الناشطة لدى المصابين بالبارانويا، ثمة أناس يكيدون لهم، ويضطهدونهم، ويضعون الخطط ضد أمنهم وحيواتهم. وهؤلاء المرضى، وقد وصل سوء الظنّ لديهم إلى أقصاه، غالباً ما يفسّرون الأحداث والأفعال اليومية البسيطة كما لو أنها موجهة ضدهم، وكما لو أنها دليل ماديّ على الخطة المتخيَّلة التي رُسمت ضدهم سراً. وغالباً ما يخشون تهديدات غامضة تتهددهم. وفي الوقت ذاته، يتطوَّر لديهم هوس العظمة Megalomania، الذي يحسبون فيه أنهم شخصيات عظيمة ومهمة جداً وأنهم ذوو رسالة لشعبهم أو للبشرية جمعاء.

إن التأويل الذي قدّمه التحليل النفسي لحالات الجنون الغريبة هذه يصوّر السيروات الانفعالية التي أفضت إلى المرض باعتبارها ضروباً من الرفض غير الواعي لميل جنسي مثلي قوي. فالشخص الذي يظهر بمثابة مُضطهِد لمريض البارانويا كان في الأصل رجلاً يحبه، قريباً، أو صديقاً، أو طبيباً، أو أستاذاً. وهذه المكابدة الجنسية المثلية، التي يتنصّل منها مريض البارانويا في لا وعيه، تنقلب عداءً تجاه الشخص نفسه. ويبقى هذا العداء غير واعٍ في حين ينسب المصاب بالبارانويا كراهيته العدوانية الخاصة إلى الشخص الذي نبّه جنسيته المثلية المكبوتة. لست أنا الذي أكرهه، بل هو الذي يكرهني. والطور الأخير من المرض وحده يكون واعياً.

ليس مفهوم البارانويا، كما يعرضه فرويد، خاطئاً، لكنه مشوَّه ومحرَّف. ولقد لاحظت لدى مرضى البارانويا أن السيرورة النفسية تأخذ الشكل التالي: لقد شعر المريض بعداء شديد غير واعٍ. وأراد أن يكون محبوباً كي يهدّئ ما تثيره عدوانيته وعداؤه المكبوتين من قلق. وخاف في لاوعيه من ألا يكون محبوباً لأنه لا يستحق ذلك. وطابق في لا وعيه بين كونه غير محبوب وثقته بأنه مكروه. كما لو أنّ كلمتين، مترادفتين، تُستخدمان للشيء ذاته. والإسقاط Projection، الذي هو، بالطبع، الطور الأشدّ أهمية في السيرورة النفسية، تمكن صياغته على هذا النحو: «أنا أكرهه. أتمنى

أن يحبني، رغم أنني أكرهه. إنه لا يحبني. إنه يكرهني». وعبر إسقاطه الكراهية الأصلية غير الواعية على شخص ما، فإنّ مريض البارانويا يبدو لنفسه على أنه ضحية لعداء ذلك الشخص. فالمصابون بالبارانويا يحتاجون لأن يكونوا موضع حبّ ومحطّ إعجاب، ويمكن للسيكولوجي في الوقت ذاته أن يلاحظ بوضوح رغبتهم في أن يُغفَر لهم عداؤهم الخاص.

يبدو هوس العظمة كما لو أنه محاولة تعويض يقوم بها مريض البارانويا كي يعيد التأكيد لنفسه أن يستحق أن يكون محطّاً إعجاب وحب. ولا تهمّنا إشكالية البارانويا برمتها إلا لأنها تثبت النظرية التي مفادها أن الموقف الأصلي للرجل تجاه الرجال هو العداء. فإحساس المرء بقيمته الخاصة يتوقف، إلى حد بعيد، على ما إذا كان بمقدوره تحمّل عدائه وعدوانيته اللاواعية الخاصة. ونقطة الضعف في شخصية هؤلاء المرضى هي بالضبط عدم الثقة بقيمتهم الخاصة، والدرجة المحدودة لثقتهم بأنفسهم، والتي يتم الإفراط في تعويضها في تطورات المرض اللاحقة من خلال أفكار هوس العظمة المتعلقة بذواتهم. ونلاحظ أن الشعور بكونهم غير محبوبين يخلق لديهم قلقاً ويُفسَّر في لا وعيهم كمكافئ لكونهم مكروهين. وحين يشعر المرء أنه غير مطلوب وغير محبوب، فإنّ الجو يعبق بالخطر والوعيد، بل بتهديد الموت أيضاً.

لاحظ كاتب فرنسي مرةً أن الحب هو أساساً "absence de l'anxiété"(*). وبالطبع، فإن مثل هذه العبارة لن تحظى من المحللين النفسانيين بغير الازدراء. («خاصة حين يحصل عرضاً أن تكون مستوردة من فرنسا»، كما يقول جلبير وسوليفان). لكن ثمة تبصّراً سيكولوجياً في هذه العبارة. فالحب لا يكون ممكناً حين تخشى شخصاً ما. ومن جهة أخرى، فإن الحب يزيل الخوف. ويمكن القول إنه ليس لدى المصابين بالبارانويا أية أسباب مادية للخوف من «مُضطهديهم»، لكن لديهم أسباباً سيكولوجية وافية. وهم يعلمون بصورة لا واعية أن بغضهم لمُضطَهِديهم المفترضين يستلزم، منطقياً، إثارة عداء مقابل.

تعالوا ننظر من زاوية أخرى لنرى سبب الأهمية الشديدة التي يحوزها إحساس المرء بقيمته الخاصة، ولماذا تخبو الأنوار كلها إذا ما تهدّدنا فقدان هذا الإحساس. إن احتفاظ المرء باحترامه لذاته ضروري سيكولوجياً، كضرورة الحفاظ على الصحة

* – «غياب القلق» – بالفرنسية في النص الأصلي.

الجسدية. وأذيّة المرء في احترامه لذاته يتم الشعور بها على أنها ضرب من التهديد شأنها شأن مرض جسدي خطير. وصحة الشخص النفسية تتوقف على تقويمه لذاته تماماً كما تتوقف صحته الجسدية على بنيته الجيدة. ويمكن لنا أن نفهم الآن على نحو أفضل لماذا يكون للهجمات التي تُشَنُّ على جوهر علاقة الحب هذا مثل هذه الأصداء أو المضاعفات العميقة والدائمة. ولقد سبق لغوته أن عبّر عن الفكرة الأساسية في هذه الإشكالية تعبيراً بليغاً. قال غوته: ليس مهماً فقدانك أي شيء آخر ما دمت تمتلك نفسك، وما دمت باقياً ما أنت عليه. إن اللطمة التي تنزل بهذه النقطة الأضعف لدى شخص مثقّف، أي ثقته بنفسه، والقيمة التي يسبغها على ذاته، يتم الشعور بها بمثابة لطمة مهلكة، خاصة حين يسدّدها المحبوب. والحال، إن هذا العامل غير المرئي يسبب الكوارث الثقيلة في المعركة بين الجنسين. هكذا يختفي وهم الأمن وعدم قابلية الانجراح، ويصبح الرجل من جديد عرضة للفتور والوحدة التي تملؤه بالذعر والإحساس بدنوّ الأجل.

ليس صحيحاً أن الجنسية مفتقدة هنا. فهي إن كانت موجودة، يكون الإشباع الفيزيائي متاحاً بيسر. لكنْ ثمة مطالب أخرى يتم الشعور بها ولا يمكن إشباعها بالسهولة ذاتها. وليس لديّ أي شك أنه بعد إرضاء حوافزنا الأشد أوليةً، فإن الانفعالين اللذين يتحكمان بحيواتنا هما الخوف من الموت والرغبة بأن نكون موضع حب.

مقالة في الغيرة

لنقل بوضوح أن موضوع الغيرة لا ينتمي إلى ميدان سيكولوجيا الحب. ويرى بعضم أنه ما من حب حقيقي دون غيرة، لكنني لا أتفق مع وجهة النظر هذه. فقولهم يماثل القول إنّه ما من أناس أصحاء إلا ومرضوا في وقت من الأوقات. وعلى الرغم من صحة القول أنْ ليس ثمة بشر أصحاء لم يمرضوا قط، إلا أن المرض بحد ذاته ليس علامة على الصحة، وإنما على اضطرابها. وهذا الاضطراب سوف يحصل مرات عديدة خلال الحياة الطويلة ويتم التغلب عليه. ولن ينفي هذا الاضطراب الطبيعة الصحية أساساً للشخص، رغم أنه نوع من التعطّل الوظيفي. وبالمثل فإن الغيرة هي علامة على أنّ ثمة شيئاً ما خاطئاً، دون أن يكون فاسداً بالضرورة، في منظومة الحب، التي كثيراً ما تكتنفها المشكلات. وبهذا المعنى فإن الغيرة هي عَرَضٌ من أعراض اضطراب داخلي، لكنها ليست المرض ذاته.

لقد تمّ بحث الغيرة بكل أشكالها وتظاهراتها المرضية. ويبدو لي أن طبيعة هذا الاعتلال قد تحدّت، حتى فترة قريبة، كل محاولة للتفسير السيكولوجي. ولا أزعم أن لدي مفهوماً أوضح مما لدى أي باحث آخر. ويمكن تقييم مساهمتي في هذا الموضوع، لا كتفسير، وإنما كتمهيد للتفسير. والتحليل الذي أقدّمه هو نتيجة استخلاصات مستمدة من التحليل النفساني لكثير من حالات الغيرة «السوية» وغير السوية.

وبدلاً من عَرْضِ هذه القصص المرضية والمادة السريرية أفضّل تقديم عدد من الانطباعات التي تكونت لدي من قراءة دراسة حول مسرحية ***عطيل*** لشكسبير. وهذه الانطباعات، المتناقضة بحد ذاتها، أفضت تلقائياً إلى صياغة وجهة نظر تؤسس، على الرغم من بعدها عن أن تكون نهائية، لبعض النتائج السيكولوجية المؤقتة. وإني لأعترف أنه ليس لدي في الوقت الراهن ما أقدّمه أكثر من ذلك، لكن الباحث (حين

يعتقد مخلصاً أنه على الطريق القويم) لا حاجة به لأن يخجل من الإشارة إلى أنّ بحثه لم يبلغ سوى مرحلة تمهيدية.

يشدّد كاتب الدراسة التي أشرت إليها[1] على أن مسرحية ***عطيل*** ليست تراجيديا عن الغيرة مطلقاً. ويشير إلى أنّ البطل يكون في البداية متحرراً من الغيرة على نحو غريب وأنّ هذا الهوى ليس سمة رئيسة في طبع المغربي. أما سر المسرحية فهو ليس الصراع بين الحب والغيرة، بل بين الحب والشرف. فعطيل لا يريد أن يكون مغفلاً مخدوعاً. ويشير كاتبنا إلى قول عطيل إنه ما فعل شيئاً «بدافع البغضاء، بل بدافع الشرف». ويبيّن كيف يصبح المغربيّ - ابن العرق الوضيع، إنّما المفعم بالكبرياء والافتخار بنسبه الملكي، الغامض - محارباً ظافراً وقائداً عظيماً، شرّفته البندقية، وكيف يسقط شيئاً فشيئاً ضحية قَدَرٍ أسود. فعطيل، «الذي لا يغار بسهولة»، والذي حاز نصراً اجتماعياً عظيماً بكسبه حبّ ديدمونة، السيدة الحلوة، يرى نفسه محطّ ازدراء واحتقار نبلاء البندقية الذي عاش بينهم نداً شريفاً. وهكذا يجد نفسه مهزوماً ومخدوعاً من جديد. وفي تخيّله المحموم يرى نفسه وقد أُلقيَ ثانية إلى الطبقة الوضيعة المحتقرة التي هزمها العرق الأبيض من جديد، الأمر الذي يعني أن يعود مرة أخرى، هو المغربي، منبوذاً، ونفاية مزدراة. هكذا يصبح هذا الرجل ذو الهوى المشبوب، والمضطرب في أعماقه، تجسيداً للحنق، والكراهية، والعنف. ومن هنا، فإن مؤلفنا المثقف يعتبر عطيل تراجيديا للكراهية العرقية والشعور بالدونية الناجم عنها.

كان الانطباع الأول الذي تكوّن لدي بعد قراءة الدراسة انطباعاً قوياً أكثر منه عميقاً. كما أنه لم يكن انطباعاً راسخاً ذلك أنه، رغم مناقشة الكاتب الجيدة، لم يكن الانطباع الوحيد ولا حتى الأشد بروزاً. فمع أنّ لوجهة النظر هذه ما يبررها، إلا أنها أحادية الجانب. فلقد تجاهلتْ، بل أهملتْ، الغيرة باعتبارها الهوى الرئيس. وبما أن ثيمة الغيرة قد دُفعت إلى المؤخرة، فقد احتلت مكانها مسألة ثانوية غير مهمة وغير ذات صلة بالموضوع مفادها أن هذه التراجيديا العظيمة هي تراجيديا شعور عطيل بالدونية العرقية. ولقد خطرت في ذهن انطباعات أقدم، مستمدة من قراءة مسرحية شكسبير

---

١ - ويلكر غيڤين، «دراسة إضافية حول عطيل»، Papers of the Shakspeare Society of New York، العدد (١١)، ١٨٩٩.

ورؤيتها وهي تُؤدّى على المسرح، واقتضت مني أن أصغي إليها. ومرة بعد مرة، وضع الاستيهام أمام عين عقلي صورة عطيل وديدمونة، والمشهد الليلي في حضرة والدها، واشتهار حبهما، والوداع والعودة، والمحادثة الأخيرة قبل موت ديدمونة، وعويل عطيل فوق جثمانها. أيمكن أن يكون هذا كله نتيجة لشعور عرقي خفي؟ لا، بالتأكيد.

ومع ذلك، فإن ثمة شيئاً ما في أطروحة هذا الكاتب رغم اعتراضاتنا. فقد استخلصنا في نهاية المطاف أن لدينا انطباعات متعارضة وأن القضية ما تزال أمراً غير محسوم أو محلول.

وبعد أن أعدتُ تفحص ظاهرة الغيرة، حيث كنت قد تمكّنت من مراقبتها في تحليل الأشخاص الأحياء، تكوّنت لدي فكرة حول ما قد تكون عليه دلالتها السيكولوجية. ومن خلال انطباع جديد تلقيته، ومن خلال الخبرة اليومية المتعلقة بهذه الحالات، اختفت التناقضات بيني وبين هذا الكاتب، وأصبح ممكناً وضع مفهوم جديد للغيرة. وبالطبع فقد كان بلا معنى أن نُخْضِعَ صفة الغيرة الرئيسة في عطيل لعنصر التمييز العرقي والشعور بالدونية المتولّد عنه. ومع ذلك، فإن ثمة جسراً يصل، ليس إلى كراهية الأقلية العرقية، وإنما إلى مشاعر انعدام الأمن لدى الفرد. ولعل هذا هو العامل المحدِّد في المنشأ النفسي للغيرة. وتبعاً لهذا المفهوم الجديد، فإن «عطيل» تبقى تراجيديا عن الغيرة، لكن المسرحية تقدّم لنا في الوقت ذاته فهماً جديداً للطريقة التي تتولّد من خلالها هذه الغيرة.

ينبعث الحب، في الأصل، من عدم رضا الشخص عن ذاته، وهو مشروط بإحساس بانعدام الأمن الداخلي وإدراك الإخفاق في محاولة تحقيق متطلبات معينة صادرة من داخل هذا الشخص. ويبدو الحب كما لو أنّه يحقّق هذه المتطلبات بتضخيمه أنا الشخص وباستدماجه أناً آخر، هو موضوع الحب. فيختفي عدم الرضا. ولا يكون الشخص واثقاً من نفسه ومن غيره وحسب، بل يكون سعيداً أيضاً. فقد وجد ذاته الحقيقية في الشكل الفيزيائي والسيكولوجي لنصفه الآخر، موضوع الحب. وتحقّق المرء من كونه محبّاً ومحبوباً يكنس بعيداً كل انعدام للأمن الشخصي. ويصبح العالم ثانية ممتلئاً وكاملاً كما في الأيام الخوالي قبل أن يهدد وحدة هذا العالم وجود موقف حرج، يدين الذات في داخل هذا الشخص.

أما الغيرة فهي تَسِمُ عودة عدم الثقة بالنفس بعد أن كان الشخص قد حاز على الأمن عبر الحب. وليس ثمة غيرة دون تمهيد لها في الاستيهام فترة طويلة وعلى نحو خفي. وهذا التمهيد، إن كان واعياً، قد يعبّر عن نفسه في أقوال معينة وفي أسئلة تتم الإجابة عنها في البدء بكثير من الشك قبل التوصّل لاحقاً إلى الاقتناع. ويتعلّق السؤال الأول بموضوع الحب أكثر منه بالغريم rival. أتحبني جين؟ ولماذا؟ هل أنا جدير بأن أُحَبّ؟ وهل أنا محبّب بما فيه الكفاية؟ لماذا تحبني، وهي المحاطة بما لا يُحصى من الآخرين الذين يستحقون - بفضل جاذبيتهم الجسدية، أو مواهبهم، أو إنجازاتهم - حبها أكثر مني بكثير؟ هكذا يفكّر عطيل، مثلاً، بكل النبلاء الأغنياء في البندقية، ويسأل نفسه لماذا اختارته ديدمونة، وهو الغريب بلا وطن وسليل العرق الوضيع، دون ثروة، دون شباب، بغيض ولا أحد يعتبره مكافئاً من حيث العرق لأسياد مدينتها المفعمين بالفخار.

طور الغيرة الأول، ها أنا أكرر، هو عودة شكوك المرء بذاته وعدم رضاه عنها. وأول تعبير عن هذه الانفعالات هو اشتباهه بجدارته كما تمّ تقييمها من قبل موضوع الحب. وهذه الشكوك، التي تعاوده بعد أن كان الأنا قد أحرز انتصاره عبر الحب، تبقى غير واعية لفترة طويلة بقدر ما يتعلق الأمر بالتقييم الذاتي المباشر. ولا يمكنها أن تصبح واعية إلا على شكل شكوك حيال الحب الحقيقي من جانب موضوعه. وإذا ما أردنا التعبير عن ذلك بصيغة تُظْهِر عملية الإسقاط، في مجراها من المستوى اللاواعي إلى الوعي، فإننا نقول: لست جديراً بحبها؛ إنها تشعر أنني غير جدير بحبها. وهكذا يبقى الشك الأول غير واع. أما الثاني، فيمكن أن يصبح واعياً، ولكن ليس بالضرورة، بل إنّه غالباً ما يبقى غير واعٍ.

يأخذ الطور الثاني شكل مقارنة للذات مع آخر - مُتخيَّل أو واقعي - يفرض، بسبب خصاله الأرقى، مطلباً أشد على عواطف المحبوبة. وفي ضلالات وأوهام الحالات المرضية، يظهر في استيهامات المريض غُرَماء متخيَّلون. وهذا التطور الجديد، الذي يُدْخِلُ شخصاً ثالثاً في الترسيمة Scheme المتخيلة، يمكن رده إلى زمنٍ قارنَ فيه الطفل ذاته مع أطفال آخرين ولم تكن النتيجة لصالحه. فالصراع برمّته كان قد نشب في الطفولة على هيئة عدم الرضا عن الذات والحاجة إلى التميّز. وإذا ما أردنا التعبير عن الأمر بصيغة محدّدة،

يمكن لنا أن نقول إن مواصلة السيرورة الانفعالية، الخفيّة حتى عن الشخص نفسه، تجري على النحو التالي: «هي تعتقد أنني غير جدير بحبها وأنَّ الآخر جدير».

هذا التطور بمجمله هو غير واعٍ في العادة. وأحياناً فقط تظهر بعض التجليات الموحية، مندفعة إلى ميدان التفكير الواعي، كي تدل على ما يجري في الجانب الداخلي العميق لدى الفرد. إنها تشبه تلك الفُجاءات البحرية الغريبة، المختفية طويلاً في أعماق البحر الغامضة، والتي تكتسح الشاطئ في بعض الأحيان. والحلقة الأخيرة من سلسلة التفكير وحدها تصبح واعية في العادة؛ أعني: «هي تحبه ولا تحبني». ففي الطور الأخير لا يظهر ذلك باعتباره شُبهة بل كيقين قائم على الاقتناع الكامن بعدم جدارة المرء لدى المقارنة مع قيمة غريمه الفائقة. ولا حاجة بي لأن أضيف أن هذا الغريم لا يبدو متفوقاً في عيني المحب الغيور. فهذا الأخير لا يشعر إلا بأنَّ محبوبته هي وحدها التي ترى مثل هذا التفوق لدى الشخص الآخر. وهذه السمة هي أيضاً حصيلة للإسقاط الذي حدث حين تم نكران شك المرء بنفسه وتحويله إلى المحبوب.

ويتوجّب علينا أن نشير ونؤكد على سمتين اثنتين بصورة خاصة. فالاشتباه موجود قبل أن يظهر الغريم في المشهد. كما لو أن الشخص الذي يريد أن يغار كان يبحث عن رجل ليغار منه. ومثل هذا البحث يفلح دوماً. وإذا لم يجد الشكاك غريماً، فإنه سوف يخلق واحداً بالاستيهام، وسوف تشير كل تخيلاته إلى أن الغريم هو المفضل لدى موضوع الحب. وعندئذ يصبح الغريم شخصية شبحية Phantome - figure، أو لنقل، تشخيصاً لإمكانية فكرية، وبديلاً لذات أفضل. وهكذا فإن خيبة الأمل في حالة الحب يكون قد تمّ التمهيد لها وتوقّعها مئات المرات على نحو غير واعٍ.

الغريم الواقعي مفقود، شأنه شأن الدليل على خيانة موضوع الحب وعدم إخلاصه. غير أنَّ بمقدور الشكاك إقامة وجود كليهما بسهولة، سواء من خلال التفسير السيء للوقائع أو من خلال قوة التحريف التي تتمتع بها المخيلة. فعقل الغيور لا يحاول أبداً إيجاد دليل مادي لإثبات شبهاته. وهو في جميع الأحوال يكبح كل إمكانية للحصول على ما يؤكد شكوكه. أما السمة الثانية، أي الاعتقاد بعدم إخلاص الموضوع، فهو اعتقاد لا يمكن زعزعته لأن جذوره بالغة العمق في الشك الذاتي وفي التفكير المسيطر على المرء بعدم جدارته ممّا يتمّ تحويله إلى المحبوب. ولا يواجه الغيور صعوبة في إيجاد

أسباب لهذا الشك أيضاً. وتصبح الشروط الخارجية ذرائع لنقائصه وإخفاقاته. وعدم التأكد المعاود مما إذا كان موضوع الحب يفضّله هو أو يفضل الآخر يمثّل الشك في جدارته ويحلّ محلّ هذا الاشتباه الأصلي غير الواعي في حكم العقل الواعي.

وفي النهاية، اسمحوا لي أن ألقي نظرة على التطور السيكولوجي لدى عطيل. فهذا الأجنبي الغريب، سليل العرق الوضيع، والمحتَقَر بين نبلاء البندقية، يحقق للجيش انتصارات باهرة وتمنحه الحكومة لقب الشرف. ورغم تقدّمه في السن، فإنه يستميل ويكسب ديدمونة الجميلة، التي رفضت عدداً لا يُحصى من الأسياد ذوي الجاذبية. والآن، بعد نصر جديد على أعداء الدولة، يبدأ التغيّر داخل عطيل. بل إنّه، قبل ذلك، لابد أن يكون قد شعر في لاوعيه أنه نهب للشكوك، وارتاب في أعماق كيانه بحظه الطيب، ولابد أن يكون قد اعتقد أن من الحسن كثيراً لو يكون هذا الحظ الطيب حقيقياً أو يبقى كذلك. أما إياغو فيمثّل هذه الذات الأخرى، الخفيّة بشكوكها المستترة[٢]. وما يقوله إياغو لا يعكس سوى الأفكار غير الواعية لدى المغربي، وهي تُنْطَق من على فمٍ آخر.

هذه الشبهات العميقة، المتلبّثة تصبح أكثر إلحاحاً بعد نيله ديدمونة على الرغم من معارضة والدها وفي مواجهة السخط الحسود من جانب كثير من ضباطه، هذا السخط الذي يُحَسّ دون أن يبين تماماً. وإدراك عطيل أنه عرضة لمثل هذا العداء من جهة أولئك الموجودين خارجه لكنهم قريبين منه، ومعرفته أنه هو، الأجنبي، كان محظوظاً على نحو يفوق التصديق، كلاهما عزّزا شعوره بانعدام الأمن الداخلي. وعلى الرغم من فضائله، فإنّ عطيلاً كان مستعداً للمشاجرة أو القتال. فهو، المغربي بين البيض الذين يكنّون له العداء بينما يشرّفونه في الظاهر، لم يتحرر قط من هذا الإحساس الممضّ بالدونية. وشيئاً فشيئاً راح انعدام الثقة يتحوّل إلى يقين، وها هو يصبح ضحية هولة حسود. ولو أنه كان في لا وعيه أكثر ثقة بنفسه، لكان قادراً على مقاومة شكوكه حيال نفسه بفاعلية أشد ولكان واثقاً ثقة من حب ديدمونة له. فالحب

---

٢ – في حديث له أشار السيد كيمون فراير ، المحاضر في الأدب الانكليزي ، إلى أن إياغو ذاته مدفوع بالحسد وكره الذات . ويجد فراير مفتاح أفعال إياغو في التعليق المكروب الذي يبديه تجاه كاسيو قبل أن يقتله في كمين : « إنّ في حياته جمالاً يومياً يجعلني أبدو دميماً » .

هو الوسيلة التي يتغلب بوساطتها المرء على كل هذه الشكوك. ومثل كل البشر الغيورين، يحتاج عطيل إلى كثير من الحب كي يهدهد إحساسه بانعدام الأمن. إنه يدعو نفسه بالمرء الذي «لم يعقل في حبه ولكنه أسرف فيه». ولعله كان من الأصوب أن يقول إنه من أراد أن يُحَبَّ لا بتعقلٍ وإنما بإسرافٍ تام. فالحاجة المفرطة إلى الحب في حالة كحالته هي حاجة نهمة لا تشبع لأن الشك النابع من الداخل لا يمكن إزالته حتى ببراهين العاطفة وتعبيراتها الأشد إقناعاً. ذلك أنَّ الشبهات عميقة الجذور لديه ولا يمكن تسكينها. وما من حاجة لأي إياغو من أجل إيقاظها. لقد كانت موجودة مسبقاً في الأفكار غير الواعية لدى عطيل، ومن الأدق القول إنها استخدمت إياغو أكثر مما استخدم إياغو عطيلاً.

ليست مشاعر الدونية الناجمة عن التمييز العرقي ثيمة هذه المسرحية. والصراع فيها لا يدور حول قضية الشرف.

لقد حاز عطيل الظافر فوزاً لم يوفّر له أساساً كافياً للأمن الداخلي والإشباع. «فكل ما تتحلّى به الحرب المجيدة من فخامة وجلال» لا يكفيه؛ حب ديدمونة وحده ما يمنحه شعوراً بتحقيق ذاته. هل يشعر بالدونية تجاه النبالة الفينيسية؟ ليس كرجل وكجندي بالتأكيد. إن شعوره بالدونية تجاههم هو بمقدار شعور بيتهوفن تجاه ارستقراطية فيينا التي انتزعت منه «المحبوبة الخالدة». ولقد كان ثمة صراع عميق لدى عطيل قبل لقائه بديدمونة:

... ويوم لا أحبك»

سيكون الكون قد عاد للفوضى من جديد.

من جديد؟ إذاً لابدّ أنها كانت موجودة من قبل. وعطيل لم يفكر أن ديدمونة كفّت عن الإخلاص له لأنه مغربي وحسب. فهو يعتبر، في شكوكه المعذِّبة، أنها تفضّل عليه كاسيو، «لأنني أسود وتعوزني نواعم الماجنين في التصرف والحديث، أو لأنني هبطت في وادي السنين». أحقاً أن «عطيل» هي تراجيديا التمييز العرقي وحده؟

لقد راقبت تطور الغيرة المشبوبة، والعنيفة عنف غيرة عطيل تقريباً، لدى رجل أبيض كان لديه من الأسباب بمقدار ما كان لدى المغربي. وكان هذا الرجل عصامياً ذا ذكاء عظيم حقّق عدداً من المآثر الجديرة بالفخار، ومع ذلك كان يهجس بشبهات مفادها

أن زوجته الجميلة قد لا تكون مخلصة له. ولقد كشف التحليل أنه لم يكن يشعر بقدرته على منافسة عدد من الرجال أكثر منه فتوة ووسامة ممّن يطرون زوجته. وكان يراقبها على نحو متواصل ويفسر كل نظرة توجهها إلى شاب وكل جملة تنطق بها في حديث على ضوء أفكار غيرته الشاحب. قال مرة: «لا أستطيع منافسة الملايين ممن هم أكثر فتوة وأشد جاذبية مني». وكانت شكوكه شكوكاً بنفسه في حقيقة الأمر، فقد كان يخشى من أنّ قدراته الجسدية والذهنية تضمحل، وأنه يهرم بسرعة. وتحت غيرته كان يجري تيار عميق من عدم الثقة بالنفس. وهذا الشخص الشبيه بعطيل، والذي قتل زوجته في استيهاماته الضارية وحسب، لم يكن زنجياً، ولم يكن حتى يهودياً. ولم تلعب مسألة العرق في حالته أي دور.

وثمة رجل آخر دفع زوجته، التي أفرط في الغيرة عليها، إلى ذراعي غريمه. قال لها: "امضي إليه إن لم أكن أجدر منه. هذا هو الحل الأمثل إن كنتِ في شك. امضي إليه». كان واضحاً أن كبرياءه الجريحة هي التي حددت موقفه. ولقد تنحّى جانباً لأنه كان أكثر كبرياءً بكثير من أن ينافس غريماً. إن إشكالية الغيرة متصلة دوماً بإحساس المرء بقيمته الخاصة.

لقد وجد شكسبير شخصية المغربي في مراجعه. لكن عبقريته لم تكن بحاجة إلى هذه المراجع من أجل تقديم تراجيديا عن الغيرة. كان من الممكن إيضاح أصل هذا الهوى المشبوب ومفاعيله النفسية في مسرحية ليس بطلها مغربياً أو فرداً من أي عرق أو مجموعة دونية. وما كان هذا البطل ليحتاج أن يكون لديه أية وصمة اجتماعية. كان من الممكن أن يكون أي رجل يشك بنفسه شكاً مستديماً لا برء منه، ويشك بجدارته، وإنجازاته، أي رجل غير راضٍ عن نفسه ولا يجد خلاصاً أبداً في حب امرأة له. والأمر كله أن السبب الحقيقي لغيرة عطيل قد تمّ التأكيد عليه على نحو فعّال من خلال لون بشرته والثقل الذي يلقيه هذا اللون على كاهله.

يتخيّل عطيل أن لديه غريماً لأنه يشعر بالدونية تجاه النبالة البيضاء. ونتيجة استيهامه الشكوك هي نتيجة مأساوية. ومثل هذه المآسي تحصل أيضاً لأشخاص لا يرهقهم أبداً مثل هذا العائق الاستثنائي الذي حمّله شكسبير لبطله. إنها مآس تحصل بين ظهرانينا كل يوم، في كل مدينة وقرية صغيرة في العالم بأجمعه. وليس العامل

الأساسي أنّ الشخص الغيور ينتمي إلى عرق مُحتقر، وإنما معاناته من شعوره بأنه ليس نداً لغيره من الرجال، في قيمته ومنجزاته، في مظهره وطبيعته.

نحن نفهم الآن أن ثمة جزءاً من دراسة المؤلف لعطيل له ما يبرره وأن ثمة أجزاء شوهت شخصيته السيكولوجية الحقيقية. لقد انطلق المؤلف من الطرف الخاطئ. فمسرحية عطيل لا تقدم تراجيديا ناجمة عن وعي بطلها دونيته العرقية. إنها تبقى تراجيديا الغيرة. وهي تَنفذُ بصورة لا واعية إلى التحريض العميق والجذور النفسية لهذا الهوى. وتبيّن في صور لا تُنسى أن الغيرة تنشأ من الشك غير الواعي لدى المرء في ذاته وفي قيمته، وأن الحب وحده لا يقدر في الغالب أن يتغلّب على إحساس المرء الخفي بدونيته. وليس أساسياً أن هذا الشعور يترافق في مسرحية شكسبير مع قضية العرق. فهذه الأخيرة هي ذريعة للغيرة وستار لها. وسر الدراما لا نجده في مثل هذه الإشكالات الخارجية، مهما يكن تمثيلها للصراع العميق حسناً، وإنما في السيرورة الانفعالية واللاواعية التي تؤدي إلى نموّ الغيرة.

والإشكالية في مسرحية شكسبير ليست هذا المثال المفرد لهوى عطيل العنيف، وإنما الغيرة نفسها، هذا الهوى الذي نشعر به جميعاً. ولا شك أن شكسبير شعر به أيضاً. وما يدعنا الشاعر نفهمه، أو يجعلنا ندركه على نحو غير واع، هو أن الغيرة لا تنشأ من الظروف الخارجية، وإنما تتوقف على الافتقار إلى الثقة بالنفس وتقدير الذات؛ وأنها تمدّ بجذورها العميقة في قناعاتنا غير الواعية تجاه أنفسنا. وحتى الآن لم يتحقق السيكولوجيون ذلك التحقّق الراسخ من أن تطوّر الغيرة لا يتوقف على موقفنا من موضوع الحب بقدر ما يتوقف على موقفنا من شخصيتنا الخاصة، وعلى تقييمنا غير الواعي لأنفسنا. وعندما يبلغ علم السيرورات النفسية هذه النقطة، فمن المخجل أن نجد أن هذا الفهم كان موجوداً منذ بضعة قرون خلت، ليس لدى شكسبير وحسب، بل أيضاً لدى الدوق لاروش فوكولد، الذي كتب في مخطوطته المعنونة **حِكَم**، أنّ في الغيرة حباً للذات أكثر مما فيها من حب.

تعليق على عدم الإخلاص

حين نتحدث عن عدم الإخلاص أو نفكّر به، نعني في العادة تلك الخيانة الجنسية المُثبتة من خلال نشاط جنسي مع شخص آخر؛ أي، فعل لا يمكن نكران واقعه المادي. هل ثمة عدم إخلاص في الحب؟ إذا ما كان موجوداً، فلابد أن يكون أكثر مراوغة بكثير؛ ولابد أن يكون الحصول على الدليل المادي أشقّ بكثير لأن حقيقة الخيانة في الأفكار والانفعالات تصعب إقامتها أشدّ الصعوبة. ويمكن الجدل أيضاً أن عدم الإخلاص في الحب هو أمر مستحيل لأن شخصاً ما إما أن يحبّ شخصاً آخر أو لا يحبه. وفي الخيار الأول يكون الغدر متعارضاً مع فكرة الحب؛ وفي الخيار الثاني، لا يكون الحب موجوداً؛ وإذن فإن عدم الإخلاص مستحيل هنا. لكن هذه تبقى مجرد تأملات منطقية محض، شديدة الشبه بالمغالطة التي مفادها أن الموت لا يجب الخشية منه حيث لا حاجة بك لأن ترتعب منه ما دمت حياً كما أنك لا تستطيع الخوف منه إن كنت ميتاً. وبالطبع، فإن مثل هذه الاعتبارات المنطقية لم تمنع الناس أبداً من أن يغاروا في الحب أو أن يخافوا من الموت.

نحن نستطيع كسيكولوجيين أن نعتبر عدم الإخلاص ظاهرة مقصورة على الحب، أو على مشاعر الحنان وحدها. وهذا يعني اختيار طيف أنا ego - phantom آخر، وتغيّر رغبة التشبّه بشخص محدد إلى رغبة التشبّه بشخص آخر. وإذا ما استخدمنا المقارنة نقول: إن هذا الانزياح يشبه ذاك الذي يخضع له من يتحول عن دينه إلى اعتناق دين جديد، الأمر الذي يضطره إلى تغيير إيمانه من البروتستانتية، مثلاً، إلى معتقدات دينية كاثوليكية. وما دام تغيير المعتقدات ممكناً، فلماذا نشكّ بإمكانية حصول تبدّل في القلب؟

علينا أن نفرّق الآن بين ثلاثة أمثلة متباينة في سماتها: الأول، تبدّل عاطفة المرء من موضوع إلى آخر (وقد عزمنا على أن ندعو هذا «خيانة» أيضاً)؛ والثاني، الانجذاب الجنسي إلى شخص آخر؛ والثالث، اندماج كلا الشعورين. ولا يفوتنا أن نلاحظ أن انتقالاتٍ من شكل إلى آخر يمكن أن تتم بسهولة. ومع ذلك، فإن ثمة تمايزات واضحة مشابهة لتلك التي نلاحظها بين الحب والجنس، وإعادة اتحادهما. ويحتل هذا التفريق الآن مكان التفريق السابق. ومن الأدقّ القول إنّ التفريق القديم يبقى ذا قيمة إلى جانب الجديد، وإنّ تغيرات جديدة من شكل إلى آخر تصبح ممكنة.

وإنني لأجد نفسي على طرفي نقيض مع من يجادل بأن مثل هذا التمييز الدقيق ليس له أية أهمية حقيقية. ذلك أن هنالك فارقاً، من وجهة نظر سيكولوجية، فيما إذا كان الاهتمام، أو الإعجاب، أو العاطفة هو ما تُظْهِرُهُ المرأة تجاه رجل آخر، وفيما إذا كانت مستغرقة في استيهامات جنسية حياله، أو أنّ كلا النوعين من الانجذاب حاضران على حد سواء. والزوج أو المحبّ قد يحتمل العاطفة «الإفلاطونية» التي تكنّها زوجته أو محبوبته لرجل لم تكلمه قط أكثر مما يحتمل بكثير أحلام يقظة من طبيعة جنسية تدور حول هذا الرجل. وقد تغفر المرأة، من جهة أخرى، ما يبديه زوجها أو محبوبها من انجذاب جنسي مجرد تجاه فتاة أخرى أكثر بكثير مما تغفر إعجابه بشخصية المرأة الأخرى. ففي الحالة الأخيرة، نجد أنّ فرادة المرأة الأخرى هي وحدها التي تهدّد أمنها وتجعلها تغار. وثمة قول مأثور شاع بين سيدات ڤيينا القديمة: «فتيات كثيرات لسن بمثل خطر فتاة واحدة». فقد أدركن أن عبث رجل مع عدد من الفتيات يمكن أن يبقى دون ضرر، بل إنّ العلاقات العابرة مع واحدة أو أخرى قد لا تعرّض للخطر عاطفة الزوج الأساسية تجاه زوجته. فالخوف، كلّ الخوف، هو من تضافر الاهتمام الجنسي مع تقدير شخصية المرأة الأخرى.

ومعظم النساء يتحملن أيضاً تلك الاهتمامات والإطراءات التي يبذلها شريكهن تجاه فتاة جميلة أكثر مما يتحمل أزواجهن وعشاقهن الود نفسه إذا ما أبدته زوجاتهم وفتياتهم. وهذا التحمل، الذي لا يغالي في تقويم مثل هذه الاهتمامات، يدعمه إدراك النساء حقيقة أن الرجال يروقهم أن يشعروا أنهم أحرار ويكرهون أن يدركوا أنهم مقيّدون ببلاهة إلى شخص واحد. فالسيدة التي لاحظت، مبتسمة، كيف عابث زوجها عدداً من الفتيات ارتكست بطريقة مميزة تجاه مضايقتي الودية بأن أظهرت أنها لا تغار

على الإطلاق. قالت، مشيرة إلى زوجها، بل إلى الرجال جميعاً: «مُدَّ له حبلاً طويلاً وسوف تحتفظ به».

وإنني لأتساءل مندهشاً عمّا إذا كان السيكولوجيون قد صرفوا اهتماماً كافياً إلى الفروق العامة بين غيرة الرجال وغيرة النساء. فغيرة النساء نادراً ما تبدي ملامح الغيظ الفاقد للحسّ، وقلما تعبّر عن نفسها في تعذيب متواصل للذات واستغراق في آلاف الصور الكريهة التي تستحضرها المخيّلة المهتاجة. وغيرة النساء لا تثيرهن في العادة إلى تلك الدرجة من الضراوة ولا تقحمهن في تلك الحالات من اليأس كما تفعل بالرجال. وهي لا تدفع بهنّ إلى أفعال من العنف والثأر يصعب التراجع عنها، أو إلى أعمال القتل والتدمير. فالنسخة النسوية من عطيل ليس من السهل تخيّلها. وغالباً ما يغار الرجل من الماضي ("on n'est jamais le premier")(*)؛ أما النساء فنادراً ما يفعلن ذلك. وهن يفضلن أن يكن الحب الأخير. ولقد قالت مريضة، أثناء التحليل النفساني، عن عشيقة زوجها: «يمكنه أن ينام معها، لكن لا يمكنه أن يكلمها». فهي لا تغار لأن زوجها، الذي تحرص عليه، لا يبدي تجاه المرأة الأخرى سوى اهتمام جنسي. أما الرجال الذين يشعرون بالطريقة ذاتها تجاه زوجاتهم أو حبيباتهم فهم ليسوا كثيرين. وإنّ الشك الواخز، في غيرة الرجال، أكثر تعلّقاً بالنشاطات الجنسية منه بالعاطفة. ولقد سمعت مرة في فرنسا تعليقاً طريفاً مفاده أن العازبين وحدهم يعلمون أي حب مشبوب تقدر عليه النساء المتزوجات.

إن التمييز بين الخيانة في الحب، وفي الجنس، وفي كليهما معاً، يوفّر إمكانيات مختلفة، تبعاً لأخذ عدم الإخلاص شكل الأفكار أو الأفعال. والبشر لم يأخذوا في حسبانهم هذه الفروق الدقيقة طوال بقائهم عند مستوى ثقافي متدنٍّ. فعدم إخلاص الزوجة أو العشيقة في الاستيهام لم يكن مشكلة بالنسبة للذكر فاقد الحس ما دامت مخلصة في الواقع.

ولقد التفت سيكولوجيو وكتّاب عصرنا إلى هذه الأشكال الأشد رهافةً ودقة والتي تلعب فيها المخيلة دوراً حاسماً. فغوته، مثلاً، كان قد اهتمّ اهتماماً عميقاً بمثل هذه الإشكاليات. ولقد صوّر في إحدى رواياته امرأةً مستغرقةً في استيهاماتها بصور رجل

* – «ليس للمرء أن يكون الأول أبداً» – بالفرنسية في النص الأصلي .

آخر وقعت في حبه، مع أنّ اتصالها الجنسي مع زوجها كان متواصلاً. ومن ثم يتحطّم زواجها على الرغم من بقائها مخلصة لزوجها جسدياً. ويكون سبب فشل هذا الزواج هو خيانتها الفكرية. وخلال مئة من السنين التي تلت نشر غوته روايته للمرة الأولى، أصبحت مشكلة الخيانة الذهنية واحدة من الموضوعات المحببة لدى كتابنا الذين ينقّبون في متاهات العالم السفلي النفسي بحثاً عن تقييم جدير للخيانة. ولم يستبعدوا إمكانية أن ينام رجل مع امرأة محددة بينما هو يتوق لأخرى، وأنه قد لا يستخدم الأولى كبديل للثانية وحسب بل يمكن أن يفلح تخيّلياً في تفعيل عملية الاستبدال. ولم تَفُتْ فضول كتابنا السيكولوجي حتى تلك الإمكانية الأخرى، التي تستخدم فيها امرأة مخيلتها بالطريقة ذاتها، وهي ظاهرة أندر بالتأكيد لدى النساء منها لدى الرجال. ثمة في إحدى الحواريات الطريفة لآرثر شينتزلر مشهد يكون فيه أحد أولئك الرجال المفرطين في غيرتهم وشكّهم في الفراش مع عشيقته. وخلال الاتصال الجنسي يسأل: «مع من تخدعينني الآن؟".

نظرة عابرة إلى
العلاقات الجنسية غير الشرعية

لست معنياً في هذا الكتاب إلاّ بالمسائل السيكولوجية، ولذا عليّ أن أستبعد، في مناقشة العلاقات الجنسية غير الشرعية، كل الأوجه الأخرى مثل الأوجه السوسيولوجية أو الاقتصادية. وهكذا فإنني مستعد لقبول مقاربة أحادية الجانب. لكن أحادية الجانب لا تتطابق مع ضيق الأفق في التفكير. ومن الممكن أن نركّز على طور واحد من هذه الإشكالية، ثمّ نعترف بما فيها من التعقيد، كي نبقى على إدراك تام بأن ثمة اعتبارات أخرى. فإشكالية العلاقات الجنسية غير الشرعية لا تهمنا هنا إلاّ بقدر ما تستحوذ علينا بواعثها السيكولوجية.

وصف جون دَنْ التنويع Variety بأنه «الجزء الأحلى من الحب». فهل هنالك حاجة مسلّطة فوق رأس المرء لأن ينوّع في الجنس؟ وهل العلاقات الجنسية غير الشرعية هي نتيجة لهذه الحاجة، وتعبير عن الاشتهاء النهم الصادر عن شهوانية قوية على نحو خاص؟ غالباً ما قيل إن الأشخاص الذين يقبلون بممارسة العلاقات الجنسية غير الشرعية في حياتهم الجنسية هم ربما أشخاص شبقون. فهل لهذا الاعتقاد ما يبرّره؟

ومما يُفْتَرَض عموماً أن الحاجة إلى التنويع في الجنس هي أكثر تطوراً لدى الرجال منها لدى النساء. والسبب الذي تمّ تقديمه لهذه الأرجحية بين الرجال هو أن لديهم دافعاً جنسياً أقوى. بل قيل أيضاً إن سلبية النساء والعُرف الذي يمنعهن من اتخاذ المبادرة الجنسية يكبحان التساهل المنفلت مع مثل هذه الحاجة. لكنني لا أتفق مع هذا التفسير. ومن المشكوك به إلى أبعد حد ما إذا كان لدى النساء حقاً حافز جنسي أضعف أو أقل

تطوراً[١]. فالتهتّك الجامح لدى النساء هو في العادة أكثر عمقاً من تهتك الرجال. وبينما يهدأ الرجل ثانية في الغالب، فإن المرأة قد تبقى سادرة في نشوتها.

إن حقيقة كون النساء يلعبن الدور السلبي لا تقتضي بالضرورة استبعاد الحاجة السيكولوجية للتنويع. فضلاً عن أن هنالك نوعاً من السلبية التي يمكن أن تكون عدوانية وانتزاعية على نحو حاذق. والنموذج الثقافي الذي نعيش فيه قد يكبت تجليات مثل هذه الحاجة، لكنها يمكن أن تتواجد كواقع سيكولوجي على الرغم من التأثيرات الخارجية. وكل العوائق التي أشرنا إليها لا تمنع النساء، مثلاً، من إظهار رغبة أقوى بلا ريب قياساً بالرجال كي يلفتن الانتباه. فالغنج خاصية أنثوية. لكن من الخطأ، على أية حال، أن نخلط الدلال أو الغنج مع الحافز إلى إقامة علاقات جنسية غير شرعية. ويمكن لنا هكذا أن نعزز الانطباع بأن الحاجة إلى تغيير الموضوع الجنسي هي عموماً أقوى لدى الرجال منها لدى النساء، لكن هذه القوة أو الأرجحية لها بواعث أخرى تتعدّى الحافز الجنسي القوي[٢].

نحن ندرك أن العلاقات الجنسية غير الشرعية هي إما سلوك عادي عند مستوى ثقافي منخفض أو نتيجة طارئ سيكولوجي في مجتمع عالي التطور. فعند المستوى الثقافي المتدنّي لا يترتب على اختيار الموضوع أي فارق، ذلك أن الحاجة الجنسية يمكن إشباعها جيداً مع موضوع محدد كما يمكن إشباعها مع سواه. ويصحّ هنا قول أحدهم: يمكن للمرء أن يسعد مع أية فاتنة عزيزة حين تكون الفاتنة العزيزة الأخرى بعيدة. فأول من يصل هو أول من يفي بالغرض. أما في أطوار أعلى من التطور، فنجد أنَّ بلوغ

---

١ – إن اختلاف الرأي حول من يتمتّع أكثر بالاتصال الجنسي ، الرجل أم المرأة ، هو اختلاف قديم . ولقد كتب أوفيد (التحولات ، الكتاب الثالث) أن جوبيتر ، فيما هو ثمل ، راح يتبادل الدعابات المرحة مع جونو وأعلن : « أؤكد أن لذتكن هي أعظم من لذتنا » . أما الرّبة فكان لديها وجهة نظر معاكسة . وهكذا قررا معرفة رأي تايريسياس الحكيم ، الذي عرف كلا جانبي الحب حيث كان قد تحول إلى امرأة وقضى سبع سنوات على هذا النحو . وحكم تايريسياس إلى جانب رأي جوبيتر في هذا الجدال الهازل ، فحكمت جونو عليه بالعمى الأبدي لشدة استيائها . ومما له دلالته أن الربة سخطت على تايريسياس ، كما تنقم المرأة اليوم على وجهة النظر المشابهة . ويشير حكمها عليه بالعمى إلى أنه رأى ما يجب أن يبقى سراً . أما ت . س . إليوت ، الذي ألمع إلى هذا المقطع من أوفيد ، فيعتبره « ذا أهمية أنثروبولوجية عظيمة » . (ملاحظات على « الأرض اليباب » في الأعمال الشعرية الكاملة ، ١٩٠٩ – ١٩٣٥ ، ص٨٠) .

٢ – تدرك النساء هذه الحاجة الذكرية ولكن يبقى أن القليلات منهن هن اللواتي يرتكسن لها بتلك الثقة بالنفس التي أبدتها سيدة شابة في تعليقها على خطيبها : « أعرف أن الرجال يحبون التنويع ، لكنني متنوعة بما يكفيك » .

الإشباع يكون أصعب بكثير؛ والمتطلبات التي يتطلّبها الموضوع تكون متعددة جداً ومضاعفة. وعند المستوى المنخفض، الفرصة هي كل شيء؛ والموضوع الأقرب إلى المتناول هو الأفضل. أما عند المستوى المرتفع فيتمّ البحث عن الموضوع الأفضل.

يمكن لنا أن نطرح جانباً مسألة العلاقات الجنسية غير الشرعية في المجتمع نصف المتحضّر لأنها لا تنطوي على أي لغز بالنسبة لنا. فوجود امرأة في المتناول هو العامل الحاسم حين تستيقظ الرغبة الجنسية. أما العلاقات الجنسية غير الشرعية في المجتمع المتحضّر فهي أكثر تشويقاً بكثير. وليس ثمة شك في إمكان حصول انتكاسات إلى الطور السابق، تكون بمثابة نكوصات regressions إلى سلوك ينتمي إلى مرحلة باكرة من التطور الثقافي. ومن الواضح أن الافتقار إلى الإشباع هو ما يسوق الرجل عادة – والمرأة نادراً – من شريك إلى آخر. افتقار إلى أي اشباع؟ والجواب الجاهز هو، بالطبع، الإشباع الجنسي. بيد أنني أعتقد بخطأ هذا الجواب، لأن الدافع الجنسي الخام يمكن إرضاؤه بسهولة. وحقيقة أن الرجل غير مشبع جنسياً ليست هي ما يدفعه إلى العلاقات الجنسية غير الشرعية، أو إلى قنص عدد أكبر من التجارب الجنسية العابرة العارضة. ها نحن نلتقي ثانية بالخلط القديم للدافع الجنسي الخام مع إرضاءات الأنا المتنوعة. وغالباً ما يكشف التحليل النفسي عن أن كثيراً من الرجال الذين نطلق عليهم اسم «الشبقين» يعانون بصورة غير واعية من افتقار إلى تحقيق مطامح أخرى، لكن طاقتهم الجسدية تبدو منزاحة من دوافع الأنا إلى ميدان الحافز الجنسي. وثمة، بالطبع، بواعث كثيرة على العلاقات الجنسية غير الشرعية مثل التحدي، والثأر، والفرار من ميول جنسية مثلية، وإغراء العلاقات المحظورة، وفتنة الانحلال، وغيرها.

ومن المؤكد لدى معظم الرجال الذين يستشعرون قوة الحاجة إلى التنويع في الجنس أن نزوة الانتزاع، وليس الدافع الجنسي، هي ما يقلقهم ويضطرهم إلى البحث عن مغامرات جديدة. وغالباً ما يلعب شك المرء في كونه مرغوباً دوراً حاسماً. ويبدو سلوك الرجل كما لو أنه يكشف عن أنه يريد أن يثبت لنفسه قدرته على انتزاع كثير من النساء مرة بعد مرة. ولقد أدركت إحدى النساء الحقيقة السيكولوجية لهذه الحالة حين قالت لرجل: «أنت لا تريدني حقاً، بل تريد فقط أن تجعلني أريدك».

ورغبة الانتزاع هذه تصبح أقوى لدى ساحر النساء Lady-Killer منها لدى غيره من الرجال. فهو يجمع النساء مثلما يجمع الهاوي الطوابع. ومثل هذا الهوى لا يعني بالضرورة أن الشخص يفهم النساء؛ بل هو بالأحرى دليل مقنع على أنه لا يفهمهن.

والرجل الذي يمكنه أن يفهم امرأة واحدة يمكنه في الحقيقة أن يفهم جميع النساء. ومعرفة الضعف الجنسي وحده لدى النساء لا تتطابق مع فهمهن، إلا بقدر ما تكافئ معرفة الأعضاء التناسلية وحدها التضلّع من التشريح البشري. ولقد اعتقدتُ دوماً أن دون جوان، في جمعه للنساء، جدير بالشفقة أكثر مما هو جدير بالحسد («... في إسبانيا وحدها ألف وثلاثة»، هكذا يقول خادمه في أوبرا موزارت)، ذلك أن الذي ينتزع النساء وحسب لا يمكنه أن ينال أية سعادة حقيقية خارج العلاقة معهنّ. إن إثارة النجاح ولذته الزائلة التي تغذّي شهوة السلطة وتسند الأنا هي التي تقود ساحر النساء. ومن المفهوم تماماً أن هذا الأخير ليس روحاً شريرة بقدر ما هو شيطان بائس. وفضلاً عن ذلك، فإن من يركّز كل اهتمامه على النساء لا يمكنه أن يكون رجلاً كما يجب.

إن هذا الرجل يخلق نوعاً من الزوبعة في مجتمع النساء. نساء كثيرات يتصيّدن الرجل الذي يتصيد كثيراً من النساء. وإنني لأتساءل باندهاش: لماذا؟ ما الذي يجذبهن إلى مثل هذا الرجل؟ وتخبرنا التجربة أنه ليس من الضروري أن يكون جذّاباً شخصياً. وما يغري النساء بملاحقته في الغالب ليس مواهبه، وإنما حقيقة أنه مُستهدف من نساء أخريات. إن ما يشكل قوة الجذب البادية لديه هو بالأحرى التنافس مع النساء الأخريات، والانتصار عليهن، أكثر منه انتزاع هذا الرجل.

ثمة نسخة نسوية من دون جوان تستمد إشباعها من الاستحواذ على كثير من الرجال. وغالباً ما تعبّر الحاجة إلى الانتزاع لدى النساء عن نفسها بالتمتع بقدرتهن على جعل الرجال يرغبون فيهن. وبالنسبة لنمط معين من النساء فإن انتزاع الكثيرين يسند الأنا المفتقر إلى الثقة بالنفس.

وعموماً، فإن النساء لا يتخيلن أن العلاقات الجنسية مع رجال كثر سوف تمنحهن الإشباع. ومعظم النساء يعتبرن العلاقات الجنسية غير الشرعية شيئاً يجلب العار أو شيئاً «وسخاً» على الأقل. وشعورهن أقل انقساماً بكثير من شعور الرجال. والتماسك الانفعالي إما أن يسعدهنّ أو يشقيهنّ. بيد أنهن يملن إلى توحيد متطلبات الحنان مع متطلبات الحاجات الجنسية، هذه الحاجات التي لا تستيقظ في الغالب إلا بعد اهتمام طويل وشديد برجل مهتم بهن أيضاً[٣]. ولاشك أن استيهاماتهن ليست خلواً من

٣ – يبدو أن الكثير من النساء هن مخلصات رغماً عنهن ، ذلك أن شيئاً ما يمنعهن من الخيانة حتى حين لا يكون لديهن أي تردد واع على الإطلاع . ولقد قررت امرأة شابة ، حانقة من قسوة زوجها ، أن تستسلم لعروض أحد المعجبين . ذهبت إلى شقته ، ولكن بينما هي تصعد الدرج اكتشفت أنها قد حاضت .

الفضول نفسه الذي يشعر به الرجال، وهي تدور حول أفكار مثل: «ماذا لو أنه كان يحبني؟». وكثير من الفتيات يغفين وابتسامة سعيدة ترتسم على وجوههن لمثل هذه الاستيهامات، دون أي أثر للتهيّج الجنسي الواعي.

لقد التقيت في جلسات التحليل النفسي بنوع خاص من الفضول في الاستيهامات النسوية، وهو فضول يعبّر عنه السؤال: «ماذا لو أنّ لدي أطفالاً من رجال مختلفين؟». والإلحاح السيكولوجي في مثل هذه الاستيهامات، مهما يكن، ليس إلحاحاً على العلاقات الجنسية غير الشرعية. فالاهتمام مركّز هنا على مظهر الأولاد المتخيَّلين وشخصيتهم أكثر منه على الرجال أنفسهم. وثمة جملة فرنسية تقول: "Faut de mieux on couche avec sa femme"(*)، لكن النسخة النسوية من هذه الجملة هي نسخة يصعب تصورها. ويمكن القول عموماً إن الحاجة إلى تغيير الموضوعات الجنسية هي أقل تطوراً لدى النساء منها لدى الرجال. وفيما عدا اختيارهن للقبعات، فإن أذواق معظم النساء هي أذواق حذرة ومحافظة.

حتى الرجال الذين يمارسون العلاقات الجنسية غير الشرعية يتوصلون في النهاية إلى نتيجة مفادها أن العلاقات الطارئة الكثيرة مع النساء ليست مشبعة. وغالباً ما يفكرون أنّ «الأكثر هو الأتعس». بل يمكن أن يشعر الرجال أنهم مشبعون جنسياً ومع ذلك تبقى لديهم رغبة وحنين للعاطفة التي لا يمكن تسكينها بالإرضاء الجسدي. وإذا ما تقصّينا سبب عدم الإشباع لدى هذا الرجل، فسوف نكتشف نزاعاً في داخله، وافتقاراً إلى الثقة بالنفس. ويتلقّى الباحث انطباعاً مفاده أن الرغبة في السيطرة على هذا السخط الداخلي غالباً ما تجعل الرجال يطلقون العنان لأنفسهم في علاقات جنسية غير شرعية. وثمة ضرب محدد من المأزق يجابه اليوم كثيراً من الشباب. فهم يشعرون أن العلاقات الجنسية العابرة مع عديد من الفتيات لا تشبع حاجتهم إلى الرفقة، لكنهم يخشون التخلّي عن حريتهم بتقييد أنفسهم إلى امرأة واحدة. إنّ الحساب الغريب الذي يحكم علاقة عدد هائل من الشباب مع النساء لم تتم صياغته في أي مكان آخر أفضل مما في الجملة الكشّافة للكاتب الڤييني، إلفرد بولغار: «الكثير قليل جداً، الواحد جدّ كثير».

* - «من المفضّل ألا يكتفي المرء بالنوم مع زوجته» - بالفرنسي في النص الأصلي .

سيكولوجيا العلاقات الجنسية

عندما سُئلَ الدكتور جونسون: ما هي أعظم الفضائل؟ أجاب دون تردد أنها الشجاعة. وحين سُئِلَ: لماذا؟ قال: «لأنه من غير الشجاعة، لن يكون لدى المرء سوى إمكانية ضئيلة لممارسة الفضائل الأخرى». ولقد كبح هذا الافتقار إلى الشجاعة السيكولوجيين والمحللين النفسانيين عن طرح هذه الأسئلة الخطيرة، التي يمكن لأجوبتها أن تزيد ثقافتنا حيال طور أساسي من أطوار الوضع البشري اليوم.

أما من جهتي فلم أطرح الأسئلة التالية انطلاقاً من أية رغبة زائفة في مناقشتها، فقد نجمت بالضرورة عن الفصول السابقة. ولا حاجة بي للقول إنّ ما من سؤال منها قد تمّ طرحه بروح العبث أو قلّة الاحترام. بل إنّ خطورة الوضع الذي تنبثق منه تكاد تكون مأساوية. وليس في نيّتي أن أجري استبياناً في الحب أو الجنس، ولا أن أسعى خلف معطيات وثيقة الصلة بالموضوع أو خارجة عنه، وإنما السعي خلف الحقيقة المستترة.

نحن ندلف هنا إلى منطقة يخشى الرجال والملائكة أن يطأوها. وثمة مؤامرة مكشوفة لتجنّب هذه الأسئلة الجوهرية. ولقد أضحى البحث الحرّ والنقدي أمراً ضرورياً، حتى لو كانت الإجابات التي نحصل عليها واهية الارتباط بالحقيقة. وبعض الأشياء لا تُقال، لكن بعضها لا بد من قوله، على الرغم من أنَّ مجرّد التفكير به قد يكون صعباً.

إليكم السؤال الأول: ***هل العلاقات الجنسية علاقات شخصية؟***

إن في هذا السؤال شيئاً يفوق ما تراه عين توم البصّاص(*) Peeping Tom ولعل من المستحسن أن نشرح ما يعنيه. إنّ العلاقات الجنسية هي، بالطبع، علاقات بين أشخاص، ولكنّ ذلك لا يقتضي ضمناً أنها علاقات شخصية. فهذه العلاقات تتجلى

* – اسم يطلق على كل من يسترق النظر إلى قوم في خلوة. والمقصود به هنا النظرة السطحية والسريعة من الخارج.

في عناق جسدين، لكنها لا تعبّر بالضرورة عن علاقة انفعالية دائمة أو حتى عابرة بين شخصين. واسمحوا لي أن ألجأ إلى مقارنة: قبل أن ترتفع الستارة عن مسرحية، يقرأ المشاهد قائمة بأسماء شخصياتها. ولعلها تكون قائمة بأسماء أفراد عائلة: السيدة سميث، السيد سميث، وابنتهما الآنسة سميث. وكان يُطلق على هذه الشخصيات في الأزمنة السابقة وفي اللغة اللاتينية اسم "dramatis Personae". فهل هذه الشخصيات أشخاص واقعيون؟ إن المشاهد لا يستطيع معرفة ذلك قبل أن يكون قد شاهد المسرحية. فلعلهم مجرد هيئات دون حياة أو فردية. وبقدر ما يتقدّم العرض المسرحي، فإنهم يكونون أشخاصاً بحق؛ أي ممثلين يؤدون أدوار السيدة، والسيد، والآنسة سميث؛ لكن المشاهد حين يصغي وينظر إليهم على الخشبة، لعله لا يميزهم ككائنات بشرية. فهم ليسوا من لحم وعظم، بل من ورق وحبر. وحتى الرب نفسه لا يميزهم كبشر؛ وحده ملاك الرحمة الذي يتّخذ هيئة نقد ودود من يمكنه ذلك. ونحن لا ننسى أن الكلمة اللاتينية Personare تعني في الأصل «التكلم من خلال قناع».

يمكن لشخصين أن يقيما علاقات جنسية، لكنهما ليسا بالضرورة شخصين بالمعنى الذي نعطيه للكلمة. ومن الممكن - وهذا ما يحدث كل يوم وكل ليلة - أن تقوم علاقات جنسية بين فردين لا يعرف أحدهما الآخر، كأن الحدث مجرد فاصل في حفل تنكري، يرتدي فيه كلٌّ منهما قناعه. جسدان يتّحدان وينفصلان، ولا شيء آخر. وهكذا فإن السؤال عما إذا كانت مثل هذه العلاقة شخصية ليس سؤالاً خطيراً وحسب، بل مفعمٌ بالمعنى أيضاً. وهو سؤال يصعب توجيهه إلى المحللين النفسانيين. فتلك الأدمغة المتفوقة سوف تجيب أن ما يوحّد الشخصين هو الليبيدو. لكن الليبيدو يعني طاقة الدافع الجنسي، والطاقة الجنسية الخام ليس لها طابع شخصي. إنها قدرة تعمل عملها في كل كائن بشري وتُثار من قبل كائن بشري آخر. وهي قد تفسر ما الذي يجعل الرجال يركضون، لكنها لا تفسّر ما الذي يجعلهم يركضون نحو هذه المرأة بعينها. ولكي يُجْعَل الاتحاد الجنسي شيئاً شخصياً ثمة حاجة لما هو أكثر من الليبيدو. ولقد قدّم شنيتزلر في حواراته السوداوية Hands Around، أحاديث متخيّلة لكثير من الثنائيات الفردية من كل مستويات المجتمع قبل الاتصال الجنسي وبعده. وثمة واحدة من هذه الحواريات واقعية على نحو لافتٍ: جندي يأخذ خادمة، في يوم عطلتها، إلى

براتر، وهي مركز رائع في ڤيينا، ثم يأخذها - في الليل الحالك - إلى المروج خلف براتر. وحين يضطجعان تقول الفتاة: «لكني، يا فرانز، لا أستطيع أن أرى وجهك على الإطلاق». ويردّ الجندي المتهيج جنسياً: «وجهي، اللعنة». هنا الدافع الجنسي الخام الذي لا تهمه الفردية individuality بينما تعني له الأجزاء الخصوصية كل شيء. هنا الجنس في شكله الفج، ليس خلواً من الغرام وحسب، بل منفصل عنه بحدة أيضاً ومتعارض معه.

في الحب، يصبح الشخص مركز الكون؛ أما هنا فيصبح مركز الجسد الشيء الوحيد الأساسي في شخص. والغُفْلية anonymity تتعارض مع الشخصية Personality. والجنس الفج يعني الحافة الحادة لحافز يتطلّب لمسة حيوانية، كائناً بشرياً، بتنورة أو بنطال أو بدونهما، وليس شخصاً محدداً. قد تكون فتاة معينة أو سواها. فالدافع الجنسي لا شخصي impersonal. والجنس لا يهيئ ضجعاء غرباء وحسب بل هو يهيئ ضجعاء من الغرباء أيضاً. فالموضوع يمكن تغييره في الجنس. أما في الحب فالموضوع لا يقبل التبديل. فكل ما هنالك يعود إليه. ومن المؤذي أن نستر الجنس بالقيم الزائفة. فالنظر إليه على نحو غير واقعي هو نظر عديم النفع، بل وضار.

ليس بمقدور السيكولوجيا المعاصرة أن تقنعنا أن الجنس هو جوهر الحب وأن الحب شكل ناصل ومنقّى من الجنس. وهذا الإعراض من قبلنا عن قبول ذلك ليس له أية علاقة بتقويم كلا الشيئين. وما ننبذه ليس وجهة النظر المادية بل صياغتها الزائفة. فما كانت تسميه جدّاتنا شهوانياً أو جسدياً، وكان ذلك مسلياً، ها نحن ندعوه حباً، وذلك مدعاة للسخرية. إن اضطجاع إثنين في الفراش لا يعني قرب أحدهما من الآخر إلا بالمعنى الجسدي. وها نحن نقول: «لقد أحب أحدهما الآخر»، عندما نقصد أنهما شرعا بإقامة علاقات جنسية أحدهما مع الآخر. والجنس «شرير» قليلاً شأنه شأن الجوع أو حاجة الإطراح، ولا يمكن الا لتفكير بالغ الفجاجة أن يخلط برنامجاً للعلاقات الجنسية غير الشرعية الخالية من الانفعال مع ثورة. إن دون جوان هو المثل الأعلى لولد المدرسة الثانوية. والشبيبة تثير جلبة عظيمة حول الجنس، لكن الجنس الخام هو في الواقع لعبة لا تستحق كل هذا الجهد المبذول تجاهها. فالجنس له أثر يسوي بين الأشخاص ولا يهتم لما بينهم من فرق. والشخص المنفلت لا يهمه من هو الموضوع طالما ينال ارتياحاً.

وممارسته هي أشبه بعملية صحية. ولقد قال الملك الفرنسي لويس الخامس عشر لخادمه ليفيل، الذي كان يتدبّر النساء لسيده: «ليس مهماً من تكون، ولكن خذها أولاً إلى الحمام وإلى طبيب الأسنان».

إن قلة من النساء هي التي تقبل هذا التقسيم أو الفصل بين الجنس والحب في علاقتهن بالرجال. فتهيج النساء ليس سهل التحول والتنقل مثل تهيج الرجال. وهن أقل ميلاً لاعتبار شريكهن مجرد أداة جنسية، فضلاً عن حساسيتهن تجاه غفلية الجنسية الذكرية، التي لا تريد الشخص بل الأنثى، شكلها وقوامها، أطرافها وكاحليها. غير أنَّ عدد النساء اللواتي ينظرن إلى هذا الفصل على أنّه فصل واقعي بالنسبة لهن، فضلاً عنه بالنسبة للرجال، هو الآن عدد أكبر مما كان عليه في السابق. ولقد قالت لي إحدى المريضات: «أريده لأنه رجل من الرجال، ولا أريده بحدّ ذاته».

تشعر معظم النساء أن «الحب اللاشخصي» - وهي عبارة ملائمة وقعتُ عليها في كتاب نُشِر مؤخراً - هو حب مبخِّس. فهن يفرّقن بين الطابع غير الشخصي للجنس والطبيعة الشخصية للعاطفة، ليس لدى الرجال وحسب بل لديهن أنفسهن أيضاً. وهن يشعرن في الاتصال الجنسي مع رجل لا يحببنه أنهن أكثر وحدة مما لو كن وحيدات. وإليكم ما قالته إحداهن عن عاشقها: «ليس صديقاً لي. إني أتمتع به في الفراش وحسب. جسدي يقول نعم، لكن عقلي يقول لا. أكرهه وأكره نفسي لذلك. أريد أن أجعله يشعر بالصَّغار. يجب أن يشعر كما الكلب». وثمة نادرة مشهورة عن امرأة رفضت في اليوم التالي أن تتعرف على الرجل الذي نامت معه في الليلة السابقة. وقد برّرت ذلك بأنّه لم يكن قد قُدِّم إليها رسمياً. ومن المفترض، على أية حال، أنّ نوعاً من الإسقاط قد كان شغّالاً في هذه القصة: كما لو أنَّ المرأة تريد أن تقول إنَّ اللاشخصية في العلاقات الجنسية هي بالأحرى خاصية ذكرية. إن الدافع الجنسي مثله مثل مارد جبّار أعمى يبحث، مثل السجين، عن مخرج. وشهوة الانتزاع، والعاطفة اللاحقة، سوف تقوده إلى الباب. وما من رجل ترعرع في ثقافتنا يمكنه أن ينسى كلياً أنه عانى من الحاجة الجنسية إبّان سنوات نضجه وبعدها في الغالب. ولكن ما من رجل ينكر أن إشباع الرغبة الجنسية الخام هو مصدر للمتعة فقير نسبياً، مجرد إرضاء ميكانيكي للحاجة. إن الشباب ليشعرون باندفاع الدم الحار ويتعذبون لذلك. وثمة وقت في حياة كل شاب لا يمكنه التفكير فيه بالمرأة إلا بصيغة الجمع.

لِنَعُدْ إلى سؤالنا: هل العلاقات الجنسية علاقات شخصية؟ ليس ثمة جواب عام ممكن. فالعلاقات الجنسية قد تكون شخصية أو لا شخصية. ومن الممكن أن تغيّر طابعها، حتى بالنسبة للشخص ذاته. ويمكن لزوجين أن يواصلا علاقاتهما الجنسية مع أن أحدهما بعيد عن الآخر بعد الكواكب. «وما الحب سوى القُبَل التي نطبعها ونتلقّاها؟». إن الحب، في الحقيقة، هو أكثر من ذلك، أو هو شيء آخر على الأقل، لأن القبل أيضاً يمكن أن يكون لها طابع لا شخصي. وفي عودةٍ إلى لب الموضوع، فإن الجواب عن هذه الإشكالية هو أنّ العلاقات الجنسية، بحدّ ذاتها، ليست علاقات شخصية، ولكنها يمكن أن تكون، وربما يجب أن تكون، ولكن ليس بالضرورة أن يحصل ذلك.

ثمة سؤال ثان، ليس أقل إدهاشاً، وهو، بمعنى ما، نسخة من السؤال الأول: ***هل العلاقات الجنسية هي علاقات جنسية وحسب؟*** وسؤال ثالث مرتبط صميمياً مع السؤال الثاني: ***هل العلاقات الجنسية هي علاقات ودية؟*** ولابد من فهم هذين السؤالين أيضاً بوصفهما استفساراً عما إذا كان يمكن الإدعاء أن هذه الخاصية متضمنة في صلب هذه العلاقات وعمّا إذا كانت ملازمة لها على الدوام. ويمكن الإجابة عن السؤال بسهولة من قبل القارئ الذي قبل أطروحة هذا الكتاب. فعندما يكون الأشخاص المعنيون في حالة حب، لا تكون العلاقات الجنسية محض علاقات جنسية؛ فهي أيضاً تعبيرات عن الحنان أيضاً، عن الشراكة الأشد حميمية. ونحن نعلم أيضاً أن بضعاً من نزوعات الأنا تدخل على نحو غير مرئي إلى التجربة الكلية. والحب بحد ذاته ينتمي إلى هذه المجموعة من دوافع الأنا التي لا تربطها بالدافع الجنسي صلة قرابة أو نسب. كما أن هنالك أيضاً إرضاءات لا جنسية في العلاقات الجنسية. ومن السهل ملاحظة هذه الإرضاءات لدى الرجال أكثر منها لدى النساء، ليس لأن المرأة «لا تفشي سرّها»، كما قال كانط ذات مرة، وحسب، بل لأن هذه الإشباعات الأخرى هي أشد وضوحاً لدى الرجال بكثير. فالجنس لديهم هو مسألة هيبة Perstige أيضاً. ليس مجرد فرصة لإزالة توتر جنسي، بل فرصة أيضاً لإثبات رجولتهم، وقوتهم. ليس مجرد إشباع لحافز فيزيائي، بل هو أيضاً علّة إشباع ذاتي انفعالي. هكذا يختلط مع الإرضاء الجنسي شعور بالإنجاز بل وبالانتصار أحياناً، ويتشابك الانفعالان كلاهما على هذا النحو

بحيث يصعب التمييز بينهما في بعض الأحيان. وكثير من الرجال يشعرون بالشرف وبالمجد في هذا الإثبات للذات أكثر مما يشعرون بهما في الإشباع الجنسي بحد ذاته. هكذا يتضح أن هذا هو الميدان الذي يمكن للرجل أن يثبت فيه أنه الأقوى.

لكن هذه المفخرة تتعالى على ما هو فيزيائي، وتنفذ إلى النطاق الذهني والروحي. وبهذا المعنى يكون طموح الرجل وثيق الصلة بعاطفته تجاه موضوع الحب. وحتى حنانه يكون مَشُوباً بهذه الخاصية الخفية، ومتشرّباً بهذا العنصر الغريب: «كيف استطعت أن أحبك، يا عزيزتي، كل هذا الحب! إنني لأحبك أكثر من الشرف». ما من امرأة تقول هذا. بل وتمضي الصلة الخفية بين الجنس والطموح بعيداً جداً لدى الرجال، بحيث لا تتحدد القدرة الجنسية لدى كثير منهم بوجود الثقة بالنفس أو غيابها وحسب، بل تؤثّر القدرة الجنسية في الثقة بالنفس أيضاً. ولقد أتيحت لي ملاحظة عدد كبير من الرجال ممن استعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد الاتصال الجنسي، وقبل ذلك كان قد أصابهم الهمود. كما أعرف آخرين ممن كانوا يرغبون في الاتصال الجنسي، لأنهم يشعرون بالهمود، ويعتقدون أنه يساعدهم على النجاة منه. ويبدو أنهم كانوا يستمدون منه إثباتاً لذواتهم، وإسناداً لأناهم. وأحد الرجال كان يشعر أنه مدفوع لإقامة علاقات جنسية مع زوجته (التي انفصل عنها بسبب عدم الانسجام) كلما شعر بعدم الرضا عن النفس في العمل أو لأيّ سبب آخر. وكان عليه أن يعوّض إحساسه بالفشل بهذه الطريقة، التي كانت تمنحه ليس العزاء وحسب بل شعوراً بالقوة أيضاً. والغريب في الأمر أنه كان يحصل على الأثر ذاته تقريباً عن طريق الاستمناء باستيهامات سادية؛ وهكذا كان يتغلّب على شعوره بانعدام الأمن.

يبدو أيضاً أن إرادة القوة، والهيمنة، تكتمل في الفعل الجنسي[(١)]. واللذة فيه ليست لذة جنسية فقط. فالافتخار بانتزاع المرأة، والانتصار العسير الذي ينطوي عليه القيام بما هو محظور يمكن أن يكون لهما حصة فيه أيضاً. ولقد تذكّر أحد المرضى على

١ – إنّ شعور المرء بالعار لدى اكتشاف أنه عنين هو أكثر ارتباطاً بهذه القوة منه بالحافز الجنسي، على الرغم من وضوح أن حقل الفعل هو الحقل الجنسي. وليس مصادفة أن كلمة عنة impotence ليست مقصورة على الجنس وحده وأنها تعني الافتقار إلى القدرة، والافتقار إلى وسائل تحقيق غاية ما. وعندما يكتشف رجل، وهو في الفراش مع امرأة، أنه عنين، فإنه يشعر بالعار بسبب غياب «الرجولة»، وكأنه مفتقر للشجاعة والعدوانية، وكأنه حَمَل في إهاب ذئب. وهو العار ذاته الذي يشعر به شخص حين يقطع على نفسه وعداً لا يستطيع وفاءه.

نحو دقيق شعوراً بالذهول مختلطاً مع هذه الثقة المستعادة بالنفس بعد أن كان قد خاض تجربة الجنسية الأولى. لقد ارتبك إذْ وجد نفسه يفكر: «جي(*)، يمكنك أن تفعل ذلك للنساء!».

وما يمثّل طموحاً بالنسبة لرجل هو شيء فارغ بالنسبة لامرأة. إن الافتخار بكونها مرغوبة، وتعني الكثير لرجل، وتشغل مركز أمانيه، وتراه تحت سلطتها المطلقة هو أمر يمتع المرأة دون شك أكثر من اللذة الجنسية المحض. فهو يمنحها شعوراً جديداً بالجدارة الشخصية، وإحساساً جديداً بقيمتها. وكثير من النساء يتمتعن بسلطتهن على الرجال إذْ تجعلهن يشعرن للمرة الأولى أنهن أنداد للرجل. أن تكون مرغوباً يعني أن تكون جذاباً. فالجنس بالنسبة لهن، ليس إشباعاً فيزيائياً وحسب، بل أيضاً نَقْفٌ لتفاهتهن بطرف الإصبع. والبنات غالباً ما يختبرن جاذبيتهن؛ إنهن فضوليات لمعرفة أية مشاعر يمكن لهن إيقاظها لدى الرجال. وحاجتهن للانتزاع تأخذ هذا الشكل في غالبية الحالات؛ حتى أنهن قد يستخدمن الجنس في بعض الأحيان إذا ما أملن بلوغ هذا الهدف من خلاله(٢). ولا تكل النساء أبداً من سماع كلمة «أحبك»، لكنهن لا يأخذن القول على أنه يعني «أريدكِ جنسياً». فباعتقادهن أنه يمكن أن يعني العكس تقريباً، أي «لا أريدكِ جنسياً فقط». وهذا التأكيد على كونهن الموضوع الوحيد للعاطفة غالباً ما يتم التعبير عنه من قبل النساء اللواتي يردن أن تكون حتى تعابير الإطراء التي يُبذل لهن جديدة وموحية بمواهبهن الشخصية («أنت تقول ذلك لكلّ الفتيات»).

ثمة نزوع واحد غريب على النساء، ولكن ليس على الرجال. وأنا أشير هنا إلى استخدام العلاقات الجنسية كوسيلة لتبخيس الموضوع. لست أعني أن النساء لا يرغبن أحياناً في إذلال الرجال الذين يُقمن معهم علاقات جنسية، بل أعني أن النساء يستخدمن أسلحة أخرى. فهن يُبدين عناد الضعيف؛ ويثأرن بجعل الرجال يفشلون. ولقد مضت أكثر من أربعمائة سنة منذ أن كتب بنڤينتو سيلليني في مذكراته عن واحدة

* – لفظة تؤمر بها الجياد أو الحمير للحثّ والتشجيع.

٢ – أفضت إليّ فتاة بأنها كانت تؤمن على مدى سنوات عدة أن الرجال عموماً لا يستخدمن النساء إلا باعتبارهن شركاء جنسيين. وشكّت في أن الرجال يريدون رفقة النساء لأسباب أخرى. وفي اعتقادها أن الرجال هم أكثر اكتفاءً بذواتهم وأكثر استقلالاً بكثير من النساء. ولقد عبّرت هكذا عن وجهة نظر تحملها نساء كثيرات سراً وعلى النقيض من آمالهن وأمانيهن.

من موديلاته: «لقد اضطجعتُ معها لأناكدها وأناكد عائلتها». أما المرأة فلا تستخدم مثل هذه الوسيلة للثأر. ويمكنها أن تشعر أن العلاقات الجنسية مُذلّة لها وحدها وحسب إذا ما استسلمت دون إرادة منها؛ لكنها لا تستطيع أن تعتبر هذه العلاقات مبخّسة للرجل. ولا تعني وجهة النظر هذه أن النساء قد لا يشعرن بالعداء تجاه الرجال؛ بل تعني فقط أن ثأرهن لا يتخذ شكل الإغواء.

يمكن للحيوان الذكر أن يستعمل المرأة جنسياً دون الشعور بأية عاطفة، ولكن دون عداء أيضاً. أما المرأة التي تُستعمَل على هذا النحو فسوف تظل تشعر بالعداء إذْ تشعر بالإيذاء والانجراح في احترامها لذاتها. بل إن الأنثى من الجنس البشري المُنْتَهَكة على هذا النحو لهي ألَدُّ من الذكر بكثير. وثمة إمكانية أخرى أقرب إلى متناول المرأة بينما هي بعيدة كل البعد عن مخيلة الرجل؛ أعني، الاستسلام إلى عروض الرجل دون أسف. ويمكن لهذه الإمكانية أن تصبح واقعاً، خاصة حين تغري امرأة رجلاً. فهي، إذْ تمارس عليه سلطتها بأسلوب مفعم بالغنج والدلال، قد تتخلّص من الشعور بالإثم. وقد تشعر أن سلوكها السابق يُلزمها بالاستسلام له، لا لأنها متهيجة جنسياً، بل لأنها تشعر بمسؤوليتها عن كونه هو متهيجاً. وقلة قليلة جداً من النساء هن اللواتي ينلن أي إشباع من مثل هذه العلاقات الجنسية «الغيرية».

من المؤكد أن الأسف لا ينتمي إلى ميدان الحوافز الجنسية. بل هو ينبثق من تربة دوافع الأنا، شأنه في ذلك شأن النزوع الآخر - التعطش للثأر - الذي يحتل مكانه بين الحاجات التي يمكن إشباعها في العلاقات الجنسية مع النساء. فالمرأة المنتهكة أو المهجورة يمكن أن ترحّب بعلاقات جنسية مع رجل آخر انتقاماً من العاشق السابق الذي غشّها أو أذلّها. وهي تتمنى أن تغيظه ولو في استيهامها على الأقل.

ولقد تحدثنا سابقاً عن الدور الذي تلعبه النزوعات المنحرفة في العلاقات الجنسية. فهي تقدّم للجنسية إرضاءات أنويّة مَرَضيَّة. هكذا يعني التعذيب ما تعنيه الملاطفة في هذه الانزياحات dislocations الغريبة؛ فالتمرّغ في الشرّ يمكن أن يشبع النزوعات الجريئة، فتتحول التربيتة إلى ضربة، والقبلة إلى عضّة، والعناق إلى خنق. ويمكن للتبخيس أن يصبح شرطاً ضرورياً للمتعة الجنسية. كما يمكن في هذه الضروب من الإسراف إشباع شعور سرّي بالإثم، فضلاً عن النزوات الجريئة. ولقد قال أحد الرجال،

أثناء التحليل النفساني: «إذا ما التقينا في قاع المدينة، نكون في السماء السابعة». وفي حين لا يهتمّ الحبّ إن كانت الثمرة محرّمة أم لا، فإن الانحراف يستسيغ الثمرة لأنها محرمة. وفي الانحرافات ينال النزوع المتمرد المستتر إشباعه الخبيث[٣]. هكذا تكون الإجابة عن سؤالنا قد تمّت: العلاقات الجنسية ليست جنسية محض؛ فهي تُشْبِع أيضاً دوافع الأنا، كما أنها ليست ودّية بالضرورة.

وإليكم السؤال الرابع: ***هل العلاقات الجنسية أنانية أم غيرية؟*** حين يُستخدم الشريك كأداة جنسية فقط، تكون طبيعة الجنس أنانية صرفاً، ولكن ماذا لو كان الشريك محبوباً؟ إن الجنس دون عاطفة يولّد شعوراً بالوحدة؛ أما الجنس متضافراً مع الحب فهو مصدر متعة مشتركة. فهو هنا لا يعمل على أن يبدو الجسدان ملتحمين وحسب، بل تبدو النفسان متحدتين أيضاً. ليس ثمة هو وهي، وإنما الواقع الانفعالي الذي لا يقبل القسمة لكائن واحد. إن المرأة التي قالت أثناء التحليل: «نام معي، ولم أقم بأي دور في ذلك»، من المستحيل أن تكون في حب مع الرجل. فالجنس يمكن له أن يترك اثنين وقد انفرد كل منهما بنفسه، أما الحب فلا.

إنّ كون العلاقات الجنسية أنانية أو غيرية يتوقف كلية على ما إذا كان الفعل الجنسي مترافقاً مع الحب أم لا. فإن تواجدت علاقات الجنس والحب سوية، كفّت الإشالية عن الوجود، ذلك أن متعة أحد الشريكين تكون في الوقت ذاته لذة للآخر. وهما أنانيان وغيريان. كلاهما أو لا أحد. وبدقة أشد: إنهما فوق مثل هذا التوصيف. ومنذ بضع سنوات خلت نشر طبيب هولندي، يدعى ثيودور ڤان ديرڤيلد، بعض الكتب عن الحياة الجنسية أوصى فيها بتقييد جنسي للرجل، واحترام بالغ اللطف للمرأة وتقدير دائم لها ولدورها المختلف في الاتصال الجنسي. وهذا الكاتب ليس وحيداً في هذه التوصية، ذلك أن عدداً هائلاً من الكتّاب كانوا قد ألمعوا إلى أن المرأة تحتاج إلى تقدير عظيم في الفعل الجنسي ذاته.

---

٣ – ثمة إغراء غريب في تبخيس الذات الذي يعبّر عن نفسه في اختيار شريك جنسي أدنى أو في اختيار ممارسات جنسية يتم الشعور، على نحو واع أو غير واع، بأنها مُذِلّة. ويبدو أن الباعث الأساسي في هذه الحالات يكمن في تضافر الإشباع الجنسي مع الحاجة إلى عقاب الذات أو تحقيرها. ويتجلى هذا الموقف في أفعال واستيهامات يكون فيها للمكابدة الجرينة حصة عظيمة أيضاً. فالفرد الذي يعتبر، في لا وعيه، أنّ النشاط الجنسي شرير أو محرّم يتمتع من خلال خرقه التحريم أو الشر بجرأته القوية واستقلاله، وبالإحساس بسيادته الخاصة ضد العوامل المقيِّدة أو الكافّة.

مثل هذه التعليقات تخلّف في بعض الأحيان انطباعاً بأن المرأة، لأنها امرأة، تتمتع بالجنس أقل بكثير مما يتمتّع الرجل. بل إنّ هنالك تقليداً قديماً مؤدّاه أن النساء خاضعات للاتصال الجنسي خضوع الضحايا كارهات ودون إرادة. إنها كذبة مبتذلة، لكن الأهم من ذلك هو أنها كذبة سيكولوجية. فالنساء، في الواقع، قادرات عموماً على نيل متعة في الجنس أعمق وأبقى من متعة الرجل. وحماسهن، إذا ما كان كاملاً، يبلغ لحظة «غياب» تقارب اللذة فيها حد الإغماء، والإحساس بأن الأجراس جميعها قد بدأت تقرع. من الذي لفّق خرافة أن النساء غيريات في الجنس، وأنهن لا يرغبن سوى في منح الرجل لذته ويستطعن التضحية إلى حد نكران متعتهن الخاصة؟ من الذي اخترع عبارة «فليرتوي وكفى...»؟ إنها حكاية خرافية، لكنها ليست جميلة[٤].

إن امرأة تحب وتثق في أنها محبوبة من جانب الرجل سوف تمنح له نفسها بكل كيانها. ولن يعرقلها ما يشعر به كثير من الرجال من شكّ في كفاءتهم تجاه المهمة. ولن تحتاج لأن تثبت لنفسها أنها سوف تقوم بوظيفتها جيداً ككائن جنسي. فالتحقّق من كونها محبوبة يجرف بعيداً كل الشكوك المتكوّنة في دماغها، كما أن إشباعها، الذي لا تعيقه المخاوف التي تُغير على الرجل، يبلغ أعماق كينونتها، الأمر الذي لا يحسّ به الرجال. واستسلامها ليس أقلّ جنسية لأنه أكثر من جنسيّ. أما إشباع الرجل، من جهة أخرى، فيمكن أن يبقى في المجال الجنسي.

إن من يكون غيرياً في الجنس، ويظلّ ينكر على نفسه المتعة دوماً ولا يفكر إلا بمنح اللذة للشريك، لن يوفر الإشباع لا لشريكه ولا لنفسه. وأنا لا أتحدث هنا عن الاهتمام والاحترام الضروريين بالطبع واللذين يجب بذلهما للمرأة باعتبارها كائناً بشرياً

٤ - نساء كثيرات يخلطن استمناء الرجل مع الإشباع. لكن قذف السائل المنوي ليس له دوماً طابع الرعشة لدى الذكر. ويمكن للقذف أحياناً أن يترك الرجل غير مشبع وأن يترك حافزه ناشطاً. ويمكن لضروب الكف الانفعالية، والقلق، والعداء أن تغيّر طابع الرعشة الذكرية من انفجاريتها المعتادة إلى إطلاق لطيف، كما يمكن أن تحوّلها من تعبير درامي إلى آخر غنائي. ومثل هذا القذف اللا إرادي أو المبتسر لا يدلّ على ذروة المتعة الجنسية، وإنما على هبوط مفاجئ. ولقد تم تجاهل ظاهرة الاستمناء المبتسر حتى في أدبيات التحليل النفسي، وغالباً ما أسيء فهمها. ومن الممكن مقارنة هذه الظاهرة على أفضل وجه بتلك الحالة التي يعرض فيها شخص ما على طفل قطعة كراميل في طرف عود، تاركاً إياه يلعقها، ثم يسحبها لحظة يريد الطفل وضعها في فمه. إن «توقيت» القذف المبكر يخفي مقصداً لا واعياً. وهو يخلق انطباعاً بأنّ خدعة تُلعَب على المرأة، حيث يتركها الرجل تتوقع الإشباع لكنها تصاب بخيبة أمل. وإذا ما كان هذا هو الأثر المحقَّق، فلابد أنه واحد من بواعث الفعل اللاواعية، فمهما تكن البواعث الفردية (النقمة على المرأة، الشعور بالإثم، إلخ)، يجب أن لا يفوتنا أن هنالك أيضاً آثاراً سيكولوجية على الرجل. وهو يدرك ذلك بألم، وغالباً ما يشعر بالعار. فهو حين يخدع المرأة يخدع نفسه أيضاً، وغالباً ما يكون هذا الخداع الأخير أشدّ قسوة.

حراً ومكافئاً يتمتع بإرادته ورغباته الخاصة. فجسد المرأة هو جسدها بالطبع، وما من عاشق أو زوج يمكنه التصرّف به ضد إرادتها.

إنني أتحدث عن ذلك الاهتمام المدروس والواعي بالمرأة كما لو أنها من نوع آخر، نوع راغب عن الجنس، بينما البهيمة، الرجل، وحده الراغب فيه. ولكن أليس احترام المرأة والاهتمام بها علامة على الحب؟ كلا، فهما إذا تمّت ممارستها منهجياً وتم التخطيط لهما حريّ بهما أن يدلا على العكس. وعندما يكون احترام المرأة وتقديرها مفهومين ضمناً، فلا ضرورة للتفكير بهما على نحو واضح أثناء الاتصال الجنسي، ذلك أنهما سيعبّران عن نفسيهما تلقائياً.

ومن حق النساء أن يشتبهنَ بالاحترام المفرط الذي يُبْدى حيال ضعفهن الجنسي وهشاشتهن. وهن يدركن بدهاء أن الاهتمام واللطف الزائدين هما اعتراف غير مباشر بعنّة الرجل. ويعلمن، أو بالأحرى يحسسن، أن مثل هذا الاهتمام الفائق ليس تعبيراً عن الحنان بل هو بديل له. وهن يشتبهن بالرجال «الغيريين» في الجنس. ويعلمن، بحكمة مستمدة من أجسادهن، أن المرء في سعيه خلف لذته الخاصة يقدم لذة كبيرة لشريكه الجنسي. وعندما تطرح النساء جانباً برقع الاحتشام، يكنّ في العادة أكثر أمانة من الرجل حيال حاجاتهن الجنسية. شيء ما يهتف لهن أن التطلع الدائم لإشباع الآخر يعني حرمانه من لذته فضلاً عن لذتكِ أنتِ. والنساء اللواتي يحتفظن بغرائزهن الطبيعية هن «أنانيات» في الجنس. وعلى الرغم من أن هذه الاستنتاجات قد تنطوي على مفارقة؛ إلا أنها صحيحة. وأقول، دون أن أتجاهل الحدود الضرورية التي أشرت إليها، إن من يرغب في إشباعه الحسي الخاص هو وحده من يمكنه أيضاً توفير الإشباع للآخر.

لقد نشأنا، نحن الكائنات البشرية، خلال حقبة مديدة من الزمن، على الاحتفاظ باحترام واعٍ شديد لبعضنا بعضاً. وسوف يتحقق كل محلل نفساني ذي تجربة طويلة من حقيقة أن الرجال الذين لا يحسبون إلا لإشباع زوجاتهم والمستعدين لإنكار إشباعهم الخاص لفترة طويلة، سوف ينتهي بهم الأمر إلى كره زوجاتهم. وسوف يتأكد هذا المحلل أيضاً أن النساء اللواتي يأخذن على عاتقهن الدور ذاته سوف يصبحن عدوانيات تجاه أزواجهن بصورة غير واعية على الأقل. فالممارسات غير العادية في الجنس والتي تؤدّى لمصلحة الشريك وحده، كتأخير القذف وإرجائه المقصود، والتي تستمر شهوراً

عدة، سوف تخلق عداء وحقداً غير واعيين يتجليان ليس في الجنس وحده، بل في علاقات الزوجين الأخرى أيضاً. فنحن لم ننشأ على أن نكون قادرين على التضحية بأنفسنا لفترة طويلة، حتى من أجل من نحب. كما أن ادّخار الطعام والتطلّع إلى أكل الآخرين غالباً ما يمكنه أن يشحذ شهيتك لكنه لا يشبع جوعك أبداً.

الأنانية المفهومة بوضوح في الجنس يمكنها وحدها أن تأتي للشريك بالإشباع إذا ما كان الشريك أنانياً أيضاً. فأن تنتظر الآخر أو الأخرى حتى يقذف يمكن أحياناً أن لا يكون ضاراً، لكن هذا التأخير الواعي وخلال سياق طويل ينتقم لنفسه بإيقاعه الاضطراب في العلاقات الانفعالية للشخصين المعنيين[5]. فمثل هذا التأجيل لا يمكن تحمّله دون أذيّة سيكولوجية. والاتصال الجنسي عملية اجتماعية لا تكون مشبعة إلا إذا نال كلا الشخصين حصته من الإرضاء. إن اللحن يكون ناشزاً أو منسجماً تبعاً لكون الأصوات ما تزال تكافح لبلوغ النغمة أو أنها قد بلغتها. وبالمثل فإن الرغبات الجنسية لدى إثنين، والتي يُعَبَّر عنها في الاتصال الجنسي، تبلغ هدف الإشباع المشترك أو تخفق دونه مكافحةً من أجل هذه الغاية. وتؤمن العاطفة المتبادلة هذا النوع من الإرضاء بالطريقة الأمثل، ولو أنها ليست الطريقة الوحيدة. ويتعامل المحللون النفسانيون مع كثير من الرجال الذين يعانون من القذف المبتسر (الاسم التقني هو القذف المبكر)[*] ومع كثير من النساء الباردات جنسياً أو اللواتي لا يستطعن نيل الإشباع نظراً لأن استجابتهن تحصل متأخرة جداً. وكلما حلّلنا مثل هؤلاء الأفراد نجد عداءً خفياً، وحسداً وروح ثأر تجاه الشريك. فالجسد معاند وكاره لأن الروح معارضة لهذا الشريك. أما الحب فيؤالف بين الواحد والآخر، ويجعل قلبين يخفقان بإيقاع واحد، وليس صحيحاً أن «التواقت»، والتزامن في الجنس، هو نتيجة للاهتمام والاحترام.

ليس من الممكن تحديد الوقت الصحيح بوساطة حيلٍ ميكانيكية كتلك التي يصفها كثير من الأطباء واختصاصيي الجنس. وكل من يحاول بلوغ هذا الهدف بطريقة ميكانيكية محض يمكنه في أفضل الأحوال أن يأمل بأن يصبح حِرَفياً، ولكن ليس فناناً،

---

٥ – إن الإرجاء المفتعَل في الاستهلال يحد من لذة الرعشة ، وفي بعض الأحيان يُبطلها . والمحافظة على إرجاء مديد هو أحد إنجازات قوة الإرادة الذكرية ، ولنقُل ، إنه نسخة جنسية من تمرين اليوغا . ولكن يبدو أن سر الجنس يتمثل في أن الجنس يجب ألا يكون واجباً ، بل متعة . وليس نافلاً تذكير الرجال العصريين أن بلوغ الرعشة يُفترض به أن يكون لذة .

* – ejaculatio praecox .

في الحب. ذلك أن على الشخص أن يكون متآلفاً انفعالياً، وإلا ضاعت كل الجهود. فالدافع الجنسي يأخذ الأمور على محمل الجد ولا يحب المداخلات الزائدة عن طريق الحيل والألاعيب الماكرة. وفي ميدان الجنس، كما في كثير من الميادين الأخرى، الحقيقة هي: ***ليس ثمة تقنية؛ ثمة صدق وحسب***. ثمة مؤشر غير مرئي لدى كلا الشخصين يقيس الوقت[٦]. وإشباع الأول يقدّم مقياساً لإشباع الآخر. أما أن تلعب خارج الوقت فيعني، جنسياً، أن هنالك اضطراباً انفعالياً، حتى لو كان اضطراباً خفيفاً وحسب.

ليس صحيحاً أن الرجل يمكن أن يكون مُشْبَعاً تماماً حين يحقق ارتياحاً فيزيائياً بينما تبقى شريكته غير مشبعة. فمثل هذه الحالة لا يسري مفعولها إلا بالنسبة للرجل غير المثقف الذي لا ينشد سوى التخلّص من ضغط جنسي خام. أما بالنسبة لكل الرجال الآخرين، فإشباع المرأة هو ضروري أيضاً لأن الإرضاء بالنسبة لكليهما هو انفعالي فضلاً عن كونه فيزيائياً.

لعله مرّ زمن كان فيه الاعتقاد صائباً بأن للإشباع الجنسي جانباً واحداً وحسب، وذلك حين كان الرجل رجل كهوف وكان الفعل الجنسي اغتصاباً سادياً. وحينئذ ما كان من الممكن وصف اللذة بأنها أنانية لأن الآخر ما كان مُعْتَبَراً فرداً من الناحية السيكولوجية. كانت المرأة مجرد أداة جنسية. ويترك التحليل النفسي في بعض الأحيان ذلك الانطباع بأننا بلغنا الآن الطرف المعاكس. فكثير من رجال اليوم – وعدد أكبر من النساء – مستعدون لإنكار إشباعهم الخاص إذا ما استطاعوا ضمان إرضاء الشريك. ولكن ليس بالإمكان وصف هذا الإنكار بأنه غيري بالمعنى الحقيقي، لأن إشباع الشريك بمفرده لا يتم الشعور بأنه كامل. أما خارج هذه التضحية الدائمة بالنفس فتنمو الكراهية، ببطء شديد، ولكن على نحو مؤكد. والفرد الذي ينكر على نفسه الإشباع ينكره أيضاً على الآخر. ومن يأثم هكذا بحق نفسه قد يشعر أنه بالغ النبل واللطف، لكن الطبيعة لا تحب الاعتداد بالنفس والاعتقاد بأننا أقوم من غيرنا في الجنس. وهي تعاقب أولئك الرجال والنساء الذين يتنصّلون من إرثهم الحيواني، كما تعاقب من يغشّها بينما هو يزعم أنه يصدر عن أنبل البواعث.

---

٦ – ليس لدى الأطفال والحيوانات إدراك للزمن . وكلما عدنا إلى شكل من الوجود شبيه بالحيواني ، فإن مرور الزمن يفقد معناه بالنسبة لنا . وإذا ما كان الإنسان يقيس الوقت في الاتصال الجنسي ، فإنه يعمل ضد تيار الطبيعة الذي يوجّهه عن طريق صعود وهبوط الحاجات الغريزية .

التخييل في الجنس

لقد رأينا أنه عندما تفهم النفوس بعضها بعضاً، فإن الأجساد تفهم بعضها أيضاً. هكذا يعكس الاتصال الجنسي موقف شخصين، أحدهما تجاه الآخر، في أجمل ظلاله وتدرجاته الدقيقة. أما العوامل الميكانيكية فلا تقرّر ما إذا كان المحبّان متناغمين، ومتوافقين جنسياً. فهذه المسألة لا تقرّرها الميكانيكا، وإنما انفعالاتهما، والانفعالات ليست كلها واعية بالضرورة. وهذه القوى غير المرئية هي التي تحدّد النجاح والإخفاق في الجنس والحب. ويتجلى جزء - بل الجزء الأكثر جوهرية - من هذه الانفعالات في التخييل، في الأشكال الفردية للاستيهام الذي يتحكّم بالحياة الجنسية، شريطة أن يكون مُثَاراً بما يتعدّى الضغط العضوي الخام. ولقد التقينا عامل الاستيهام من قبل في خلق مثال الأنا، الذي يحلّ محله موضوع الحب لاحقاً. كما التقيناه ثانية عندما أشرنا إلى أن كل شخص يشكل لذاته نوعاً من الهيئة المتخيلة التي تأخذ صورة شخص من الجنس الآخر.

تُعنى فكرة التخييل الجديدة التي أودّ أن أقدمها بالخيال الفردي أيضاً. فمقارنة الدور الذي يلعبه الاستيهام في الجنس مع دوره في الجوع أو العطش تُظْهِر الأهمية البالغة التي يحظى بها التخييل بالنسبة للتهييج الجنسي. وهذا الموضوع يستحق كتاباً بحد ذاته. وأنا أدعو بالتخييل الجنسي إجمالي الاستيهامات والصور البصرية المتخيَّلة التي تثير الرغبات الجنسية عفوياً لدى الشخص. ولدى كثير من الناس يوقظ التخييل خليطاً من نزوات الجنس، والعدوان، والحنان. كما أن الحب يعمل في بعض الأحيان كقوة مضادة في وجه تطور الصور الجنسية. وأعرف فتاة اعتادت أن تهيج نفسها عن طريق اللقطات الجنسية بحيث كانت تمارس الاستمناء كوسيلة للارتياح، ولقد اشتكت

هذه الفتاة أثناء التحليل النفساني: «إن التفكير بشارلي يُفسد عليَّ ذلك». وعندما حاولت أن تستوهم استيهامات جنسية مع شارلي، لم تُفلح؛ أي، لم تشعر أنها متهيجة. لكن تخيلها صورة زنجي يغتصبها على سطح منزل أيقظ لديها مشاعر جنسية ناشطة جداً. وبعد مرور بعض الوقت، فقدت هذه الصورة الذهنية قوتها المهيّجة لأنها كلما استحضرتها، كانت صورة المحبوب المنافسة تظهر وتعترض الشعور الجنسي. إن حالة التبخيس المتصل بالجنس، والمألوفة كثيراً في ثقافتنا، هي المسؤولة عن الانشقاق في التخييل. وقد قالت الفتاة نفسها، بعد تقبيل جندي لا تكاد تعرفه: «لقد زعمت لنفسي أنه كان شارلي». فقوة التخييل تعمل هنا بطريقة يتم فيها استبدال شخص معين بآخر. وفي هذا الاستبدال أمكن للفتاة أن تتمتع بالقبلة للحظة، ولكنها من ثم فكّرت: «إن ذلك ليس حقيقياً ما لم يأتِ عفوياً»، فخبا تهيجها. ومثل لقطات الفيلم السينمائي، فإن الصور Images يمكن تسريعها أو تبطيئها بل ويمكن إيقافها في مراحل مختلفة؛ كإيقافها، مثلاً، على امرأة تتعرّى. وبالطبع، فإنه ليس بمقدورنا هنا مناقشة العديد من خصائص التخييل الجنسي مثال الثبات والتغير، وتراكب المشاهد والأشخاص، وزيادة ونقصان قوة التهيج، والدوام والتنوع.

غالباً ما يُبزّ التخييل الجنسي الواقع بدرجة كبيرة، بحيث تجعل قوة التهيّج التي في الصورة الحالةَ الواقعية مخيّبة: («امضِ ودعني أحلم بك»). لابدّ أن مقارنة مثل هذه بين الواقع غير المُشْبِع والتخييل الفتّان هي التي أملت على الكاتب الڤيني كارل كراوس تعليقه الساخر: الاتصال الجنسي بديل بائس للعودة السرية. وغالباً ما يجرّب الشباب صوراً مختلفة إلى أن يجدوا الصورة الأكثر إشباعاً. والواقع، أنَّ السيكولوجيين يتوصلون إلى الفهم الأوضح للتخييل الجنسي من خلال تحليل استيهامات الاستمناء. واختيار الموضوع في الاستيهامات ليس اختياراً واعياً دوماً. ففي بعض الأحيان تظهر صور لم يتمّ استدعاؤها. ولقد قالت فتاة أثناء التحليل، بينما هي تفكّر في هذه الاستيهامات: «من سيكون هذه الليلة؟».

يمكن لنا أن نكشف في تخييل شخص ما عن الظروف الفردية لحبه وعن اللقطات النوعية التي توقظ لديه الرغبات الجنسية. ويمكن أن ندرك أية أهمية هي أهمية

التخييل الفردي إذا ما أخذنا بالحسبان أنه يحدد طابع حياة الشخص الحبّية في تعبيراتها الجنسية والحنانية. وعندما يقع شخصان في حب واحدهما الآخر، فذلك يعني أن تخييلين قد توافقا. وها أنا أسارع وأضيف أن الشخص لا يدرك التخييل الذي يخلقه أو الذي يُخْلَق لديه إلا إلى حد معين. بينما يبقى جزء عظيم منه غير واعٍ بوجهٍ عام.

يمكن للشريك أن يشعر على نحوٍ غير واعٍ بوجود الأثر السيكولوجي للتخييل الجنسي، مهما يكن هذا الأثر. ولقد أحسّت إحدى المريضات أن لدى زوجها صوراً منحرفة عن الاتصال الجنسي واضطربت بشدة لمعرفتها ذلك بحيث لم يعد بمقدورها أن تمنح له نفسها بحماس. وسألت امرأة أخرى زوجها: «هل أنت هنا حقاً؟». لقد شعرت أن لديه استيهامات أخرى بينما كان يعانقها. ومن جهة أخرى، فإن الصور اللاواعية التي يكمل بعضها بعضاً يمكن أن تعزّز الإشباع الجنسي لكلا الشريكين. وثمة سمات ملحوظة أخرى للتخييل: فالمواقف الجنسية التي لا تؤدي إلى الإرضاء يمكن مواصلتها في الاستيهام إلى أن تنتهي بالإشباع. كما أن الصور تكون خاضعة للاضطرابات الانفعالية التي تخضع لها التجارب العملية نفسها: كانت امرأة شابة تتهيّج كلما تذكرت أن حبيبها أطلق عليها أسماء دلع ولاطفها، لكنها «تتجمّد» كلما تذكرت تعليقاً جرح كبرياءها.

ويمكن أن نستمد معرفة أفضل بدور التخييل إذا ما حاولنا تحديد تلك العملية الانفعالية الأساسية القائمة في الاتحاد الصميمي الوثيق بين إثنين متحابين. قلنا سابقاً إن اللذة في هذا الاتحاد ليست أنانية ولا غيرية، أو أنها أنانية بمعنى جديد؛ أعني، أنّ الذات تتوسع أو تتضخّم، وأنها تستدمج شخص موضوع الحب كجزء منها، كما لو أن شخصين تمّ جعلهما شخصاً واحداً. إن هذا ليبدو صوفياً mystical أو، إن شئتم، شعرياً، غير أنّ من الممكن ترجمته إلى لغة سيكولوجية علمية وحتى إلى اصطلاحات إغريقية أو لاتينية طنّانة، إن كان ذلك ضرورياً. وبعبارة واضحة، إن الرجل أو المرأة في حالة الحب يشعر أو تشعر بالمتعة الجنسية للشريك وكأنها المتعة الخاصة من خلال اضطلاع غير واعٍ بدور الآخر. أقصد أن الرجل يختبر في تخييله بصورة غير واعية ما تشعر به المرأة في التهيّج والإشباع المتزايدين، وأن المرأة تماهي إحساساتها وانفعالاتها الخاصة

مع تلك التي للرجل. وتحدث عملية تبادل الأدوار اللاواعية هذه في حين تبقى هوية الفرد الشخصية والجنسية على ما هي عليه بصورة واعية. والتحول التخييلي هو في الحقيقة توسيع أو تضخيم لشخصية المرء الخاصة بمعنى أن تصبح مندمجة مع شخصية المحبوب. وهذا التغيّر الذي يحدث يكافئ، انفعالياً، امتصاص المرء شخصية أخرى إلى شخصيته، كما يكافئ تمدد الذات وزيادة الحساسية الانفعالية. ولكن أليس من الصعب تخيّل مثل هذا التحول والامتصاص؟

كيف يمكن لرجل بأي حال من الأحوال، ولو على نحو مؤقت وعابر، أن يشعر بما تختبره امرأة في الاتصال الجنسي، وكيف يمكن لامرأة أن تشعر بما يختبره رجل؟ أليس فانتازياً أن نزعم أن شخصاً قد يتبادل بشكل غير واع وتخيّلي الانفعالات والأحاسيس مع فرد من الجنس الآخر؟ إن مثل هذا التغير يوازي الحالة الموصوفة في حكاية خرافية عن سلطان يكتشف، بينما هو خارج في نزهته،أنّه إذا ما قال "mutabor" (وهو اللفظ اللاتيني المقابل لـ "سوف أتغير") يتحول إلى لقلق ويمكنه أن يفهم ما تقوله اللقالق. فلماذا لا يكون الخيال الجامح قادراً على اجتراح مثل هذه المعجزة أيضاً؟ خاصة أن أرضية مثل هذا التحول غير الواعي لمدة تستغرق بضع ثوان هي أرضية مُعدّة سيكولوجياً. ولقد تحدثنا سابقاً عن تلك الأفكار والأوهام سريعة الزوال في مرحلة الطفولة المتأخرة، حيث يتخيل الصبيان أو البنات أنفسهم من الجنس الآخر ويدهشهم أنهم يرغبون في أن يكونوا كذلك. هذه الاستيهامات تنتعش الآن بشكل غير واع في العلاقات الجنسية. ويمكن بسهولة أن نتبيّن أن الباعث الأقوى لمثل هذا التحول العابر اللاواعي هي رغبة المرء في أن يكون مرغوباً من قبل الشريك الجنسي إلى أبعد حد. وواضح أيضاً ذلك التأثير الشديد الذي يمارسه تهيّج الشريك على التهيج الحسي الخاص، ذلك أن التهيج يتساوق مع إدراك المرء أنه مطلوب أو محبوب ويتطابق معه في بعض الأحيان. وعليّ أن أذكّركم بأننا لم نقل إنَّ استيهام أحد الشريكين يعكس بالضرورة الواقع الانفعالي للآخر. ولعل انفعالات وأحاسيس الرجل تختلف عن تلك التي تتخيل المرأة أنها له. ولعل المرأة تختبر - هذا ما يحصل في أغلب الحالات - إحساسات مختلفة تماماً عن تلك التي يفترض الرجل أنها تشعر بها.

إن توافق التخييل مع العملية الانفعالية الواقعية لدى الشخص الآخر ليس أساسياً، بل الأساسي، والذي له السيادة، هو المحاولة غير الواعية لاختبار مشاعر الشريك. كما نعتقد في الوقت ذاته أن في الحب فهماً واقعياً للشخص الآخر، نوعاً من التخاطر Telepathy الذي يمكّن الواحد من التفكير والشعور بما يختبره الآخر. وليس ذلك نتيجة جهد واع من التفكير والحدس، وإنما هو عملية اتصال communication غير واعية، تمكن مقارنتها بالإرسال البرقي اللاسلكي أو الراديو.

ويجب ألاّ ننسى أن فهم حركات الشريك، وإيماءاته، وأنفاسه، وترنّماته، وتفاصيل أخرى من سلوكه تساعد على مثل هذا الاتصال. فنحن نفسّر كل ذلك بصورة غير واعية كتعبيرات عن انفعالاته. فتفاعل المشاعر اللاواعية يعبّر عن نفسه في أفعال ممارسة الحب Love making، والتي لا تتطابق مع الاتصال الجنسي لكنها تكون هنا متوافقة معه. فتهيّج أحد الشريكين هو الذي ينبّه الآخر. ويتم هنا أيضاً امتصاص دوافع من ميدان الأنا إلى المجال الجنسي. وتعكس العمليات الجنسية في هذه الحالة مشاعر الحنان كما لو كانت شعوراً واحداً، تمكن مقارنته مع داخل وخارج القفّاز. وليس ثمة شك في أن الانفعالات غير الواعية لشخصين، حتى لو لم يكن هنالك حنان لدى أي منهما، إنما تفهم بعضها بعضاً، أما الجنس فيمكن أن يكون شيئاً إفرادياً بالنسبة لأي منهما.

إذا افترضنا أن هنالك مثل هذا الاتصال اللاواعي الذي يفعل فعله في الجنس، وأن ثمة تفاعلاً سرّياً للدوافع والانفعالات بين الشريكين كما في التخاطر، فإن سؤالاً آخر يطرح نفسه - وهو ليس بالسؤال النهائي بالتأكيد، لكنّ له طابع النهائية - : ***هل الإشباع الأحادي الجانب في الجنس ممكن، وفي أية ظروف؟*** ويمكن لنا أن نعتبر هذا السؤال مواصلة للبحث السابق عما إذا كانت العلاقات الجنسية غيرية أم أنانية. وما من شك في أن مثل هذا الإشباع أحادي الجانب ممكن. وفي إرضاء الحاجة الجنسية القاسية والخام تصبح هذه الإمكانية واقعاً. وما يجب بحثه هو فقط نوعية هذا الإشباع.

إن الرجل الذي يغتصب امرأة راغبة عن ذلك، مثل رجل ما قبل التاريخ في لوحة فيليسان روبس "La chasse de la femme"(*)، ينال إشباعه، لكن من المشكوك

* - «صيد المرأة» - بالفرنسية في النص الأصلي .

به، حتى بالنسبة إليه، ما إذا كان إشباعه جنسياً محضاً. أليس إغراء الانتهاك violation، ولذة كسر مقاومات الأنثى الجسدية والعنيفة، هو ما يحثّ الذكر؟ إن أخذ ذلك في الحسبان يجعلنا أقرب إلى الجواب. فالإشباع أحادي الجانب لا يكون ممكناً إلا حين يكون للفعل الجنسي طابع سادي، وحشي. وبالطبع فإن من الممكن حتى عندئذ أن يتمتّع الشريك أيضاً بمثل هذه التجربة؛ أي، إذا كان هذا الشريك مازوخياً ويشارك في شهوة الآخر بالوكالة. لكن مثل هذه التركيبة تبقى استثنائية. والجواب العام عن سؤالنا هو أن الإشباع الجنسي المقصور على شخص واحد لا يكون ممكناً إلا عندما يكون للفعل الجنسي سمات العنف والوحشية، سواء في التخييل أو في الواقع.

إذا استبعدنا هذه الحالات - وعددها قليل بحيث يمكن إهماله - فإننا نتوصل إلى استنتاج مدهش مفاده أنْ ليس ثمة إشباع جنسي أحادي الجانب. ولعل من الأفضل أن نصف هذا القول بأنه لا يُصدَّق أو يصعب الاعتقاد به أكثر منه مدهشاً، ذلك أنه يتعارض مع كل ما تعلّمنا أن نفكّر به. انظروا ما الذي ينطوي عليه هذا الجواب. إنه يضع حداً لتلك القصة الخيالية التي تقول إن أحد الشريكين في الفعل الجنسي يمكنه أن يتمتع بينما لا يتمتع الآخر. وهو يفضح زيف تلك الخرافة التي تزعم أن المرأة تستطيع التضحية بنفسها، أي تستطيع ترك الرجل يقطف لذّته بينما هي متورطة في الأمر جسدياً وحسب. فنتيجة موقفها هذا هي أن الضغط الفيزيائي في حاجة الرجل الجنسية هو وحده الذي يتم تفريغه أو إنقاصه؛ لكننا لا يمكن أن ندعو هذا الارتياح لذة، ومن المؤكد أنه ليس إشباعاً كاملاً. فالفعل يصبح مجرد وظيفة بيولوجية تزيل إحساساً منغّصاً، لا شيء أكثر. وإنه لمن الصعب على رجل بلغ مستوى ثقافياً معيناً وبلغت مشاعره مرحلة النضج أن يستعمل امرأة ببساطة على أنّها مجرد أداة جنسية بينما هي لا تشارك في لذته الحسية.

لقد أجرت إحدى السيدات المقارنة الطريفة التالية: «إن المرأة مثل سيارة الإطفاء. تقف لأيام منتظرةً في المحطة، لكنها يجب أن تكون مستعدة دائماً للخدمة حين يندلع حريق». ولعل لهذا التذمّر ما يبرره، لكن الحريق لن يخمد تماماً إذا لم تقم سيارة الإطفاء بعملها. وبعبارة أخرى، فإن المرأة يمكن أن تُستعمل

جنسياً، لكن النتيجة لن تكون مشبعة للرجل. فحاجاته الجنسية المحض قد يتمّ تسكينها نوعاً ما، ويتمّ إنقاص التوتر في داخله، لكن ذلك ليس كافياً سيكولوجياً. وهو، في الواقع، قليل جداً بالنسبة للرجل المثقف الذي لديه حاجات انفعالية لا يمكن إشباعها منفصلةً.

نحن نعود بهذا الالتفات إلى أهمية التخييل الجنسي. ليس بمقدوركم أن تسألوا بجدّ ما إذا كانت العلاقات الجنسية واقعية أو تخييلية في جوهرها. فهي واقعية وتخييلية؛ أي أنّها على الرغم من كونها نشاطات واقعية ومادية، إلا أنها في الوقت ذاته مُعدّة من خلال الاستيهام ومترافقة معه. فأنت لا تعانق الفتاة الواقعية فقط، بل معها فتاة من بين الكثيرات اللواتي حلمت بهن في أحلام يقظتك واللواتي كُنَّ هناك قبلها. كما أن الفتاة لا يقبّلها رجل واقعي وموجود فحسب، وإنما يقبّلها أيضاً البطل أوالشخصية الرئيسة في كثير من الصور اللاواعية التي قد لا تشبهه البتة، لكنها تحولت إليه وتولّفت في شخصه. ونحن نعرف النموذج الفردي الذي يُصاغ على غراره موضوع الحب الفعلي؛ أعني، مثال الأنا. وهكذا فإن الإشباع الجنسي الكامل يكون مستحيلاً دون إعداد في الاستيهام. (وأنا أتحدث هنا عن أشخاص ناضجين بلغوا مستوى ثقافياً معيناً. ولكن هل يستطيع الآخرون حقاً نيل إشباع كامل بالمعنى الذي نفهمه للإشباع؟ لعل حاجاتهم يتمّ إشباعها، لكنها حاجات محدودة جداً أو متواضعة).

ليس الإعداد أو التمهيد في الاستيهام بحدّ ذاته شرطاً ضرورياً للإشباع، بل تترافق العلاقات الجنسية على الدوام مع تخييل غير واع. ويتوقف الإرجاء والإطلاق في الجنس، من حيث الطابع والتوقيت، توقفاً جمّاً على هذا التعاقب في الصور التي يمكن مقارنتها بموجات تيار خفيّ. وقد أفضت إليّ إحدى السيدات بأنَّ شعوراً مدهشاً قد تملّكها في البدء أثناء الاتصال الجنسي مع زوجها. فقد اعتادت على التساؤل مندهشة: «كم يداً يملك الرجل!». وحين نخمّن ما رمت إليه، لا نستطيع أن نصف ذلك بالتفكير الواقعي. وهو ينتمي بالتأكيد، إلى ميدان تلك الصور الرائعة التي ترافق المشاعر الجنسية.

ما نعنيه يتعدّى التفاصيل؛ إنه يتعلق بالطابع العام للحالة الانفعالية. ألم نقل إن المتعة الأساسية في الاتصال الجنسي ليست تلامس جلدين وإنما التبادل اللاواعي لدورين، والتفاعل السري لانفعالين؟ لعل هذا المفهوم الجديد أن يكون مدهشاً، ولذا سأحاول توضيح معناه من خلال مقارنة بين المرسل والمستقبل لموجات الراديو. فهذان الشخصان يكونان متوالفين؛ حيث الأول، وليكن المرأة، يدير جهاز الراديو على محطة بثّ معينة، فيتلقّى رسالة، ويستجيب لها. فأن تكون متوالفاً يعني أن تركّز على هذه المحطة وطول موجتها المحددة وعليها وحدها. ونحن نفهم أنّ الاقتصار على طول هذه الموجة هو أمر هام، لأنه يزيل كل الموجات الأخرى ويستبعد الأصوات المتداخلة الصادرة عن محطات أخرى. أما الارتكاس على الرسالة المُسْتَقْبَلة فيكون متوافقاً مع محتواها وطابعها. ولقد افترضنا أنّ الاستجابة في الجنس قائمة على تماهٍ غير واعٍ مع الشخص الآخر، مع موضوع الحب. ويمكن لمقارنتنا أن توضّح أيضاً ذلك التأخر البسيط في ارتكاس المرأة[1]. فالأصوات بحاجة إلى وقت معين كي تصل إلى الأذن والدماغ، كما أنّ الارتكاسات قد تكون بطيئة باعتبار كثير من الظروف المحيطة. ولنقل: إن الرجل هو أحد المقاييس المتقدمة في دوره كناقل، وينبغي أن يكون كذلك.

إنّ النقطة الأساسية في العملية هي التماهي المتبادل في التخيّل، فهو يؤدي إلى جمع، أو بالأحرى إلى مضاعفة، لذّة المرء الخاصة مع متعة الشريك المتخيَّلة أو المتوقّعة. وليس بمقدورنا أن نطلق على ذلك صفة المشاركة في متعة الآخر، فالشعور به لايتمّ على أنه كذلك. إنه بهجة المرء الخاصة، كما لو أنّ الواحد هو الآخر. واسمحوا لي أن أشدّد على أن هذه العملية غير واعية إلى حد بعيد؛ فالشخصان يبقيان غير مدركين لتغيّر الأدوار. أما إذا كان التخييل واعياً، إذا كان مخططاً له أو مُعداً قصداً، فإنه يعكّر التجربة أو يقلّل من حدتها. فهو حين يتركّز بصورة واعية يؤدي إلى مراقبة الموضوع بدلاً من مماهاته مع الذات، أو أنه يحوّل الاستيهام في أقنية جنسية مثلية.

---

١ – ليست المقارنة اعتباطية كما قد تبدو. فقد اشتكت إحدى المريضات من تجربة جنسية غير مشبعة ومن خراقة الرجل قائلة: «لم يكن طول الموجة الذي يناسبني إطلاقاً».

يمكن على ضوء هذه المعرفة السيكولوجية أن نجيب الآن عن السؤال الذي انطلقنا منه. فالإشباع الجنسي أحادي الجانب ليس ممكناً لأن الشخص الواحد يدرك على نحو واع أن استجابة الآخر الملائمة مفقودة وأن ارتكاسه من نوع خاطئ. ويمكن تشبيه الحالة عندئذ بالحالة التي يرسل فيها مرسل الراديو رسالة لا تستطيع بلوغ المستقبل. فهو يتحدث بوضوح، لكنه لا يتلقى أية استجابة لأن موجات أخرى تداخلت معه. والتماهي المتبادل لا يمكن أن يحدث على اعتبار هذا الغياب للاستجابة، ونتيجة لذلك فإن متعة الشخص الآخر تتضاءل هي أيضاً بصورة كبيرة. وهكذا تنتهي المحاولة بنجاح ضئيل جداً، نجاح يقارب الفشل. فمن الذي يودّ أن يتكلم بينما الشخص الآخر لا يصغي إليه؟

إن لمقارنتنا ميزة تتمثل في أنها توضح الحالة اللاواعية؛ غير أنها تشتمل أيضاً على كل إشكاليات اللغة المجازية. ونأمل أن يكتشف العلم، في المستقبل القريب، ما يجعل شخصين «يطقطقان معاً» click (كي نستعمل تعبيراً أمريكياً عاماً) في علاقاتهما الجنسية. وربما لن تكون السيكولوجيا من يحلّ اللغز في النهاية. ولعل البحث في الإفرازات الداخلية أو في تيارات الدماغ الكهربائية أنْ يقدّم معطيات ليس بمقدورنا تخيّلها الآن. ولكن بغض النظر عما يُكتَشَف، فإنه سيكون واضحاً أن العوامل الحاسمة لا تحدد الحافز الجنسي الفردي وحسب، بل تحدّد أيضاً الشخصية التي تعبّر عن نفسها في الجنس والحب.

ويبقى السؤال: لماذا التجربة الجنسية هي في آن تعبير فيزيائي محض وفي آن آخر تبلغ كمالاً عميقاً وقوياً. من المؤكد أنّ قدرة التجربة على أن تصبح كاملة تهدّئ كل قلق وتشبع كل مطلب، وتعمل على تزامن إيقاعين تماماً، ليست ظاهرة جنسية محض، بل تنفذ إلى لبّ الشخصية. وليس صحيحاً أنّ مثل هذا الكمال غالب الحدوث. فكثير من النساء والرجال يموتون دون أن يجرّبوه البتة.

وقد تفيد مقاربتنا هذه في توضيح طبيعة كثير من الاضطرابات التي تحصل في هذا التبادل اللاواعي للانفعالات والأحاسيس. فمثل هذه الاضطرابات يمكن أن نجدها في محطات الإرسال كما في محطات الاستقبال. فالخوف ومشاعر الإثم، والعداء

والنقمة، والكبرياء الجريحة والافتقار إلى الثقة بالنفس هي عوامل يمكنها أن تثبّط الإنجاز بل أن تمنعه أيضاً. وبالطبع، فإنّ الإرضاء الجنسي يمكن بلوغه دون الشعور بالعاطفة تجاه الشريك. بل ويمكن بلوغه بمساعدة استيهامات وحشية وسادية، ولكن تبقى حقيقة واضحة هي أن التهيج الجنسي يكون في الحالة السويّة متنافراً مع العداء أو النقمة. فالحاجة إلى الانتزاع والعدوان والتملّك العنيف يمكن أن تترافق مع الحافز الجنسي، لكن الضغينة والعداء يحبطان مقصده. فهما يعملان كمنبهات مضادة. وغالباً ما عبّر رجال ونساء أثناء التحليل عن أنهم يفضّلون أن يكون لهم اتصال جنسي مع شريك حيادي بدلاً من علاقاتهم أو علاقاتهن مع زوجاتهم أو أزواجهن الذين يحبونهم ولا يتعدّى الأمر معهم حدود النزاع. إن البواعث اللاواعية يمكنها أن تُبْطِل كل الأفكار والنزوات الواعية وتمحق قوتها.

ثمّة مثل صيني يقول: «المكان الأشدّ عتمة هو تحت المصباح». إن هذه العوامل الخفية ليست من طبيعة جنسية؛ فهي جميعاً تنتمي إلى مجموعة دوافع الأنا. والطابع المتغطرس للحافز الجنسي يجعلنا لا نرى حقيقة أن القيمة الانفعالية للتجربة الجنسية تعتمد على أثر هذه الدوافع، وأنها تقرر ما إذا كانت التجربة تبلغ إلى مجرد تماس البشرتين أم أكثر من ذلك.

وبهذا الصدد، كما في غيره، يتضح أنّ سوء التقويم التحليلي النفسي للجنس، ذلك التقويم الذي اعتبر الحب سمة مميزة للرغبة الجنسية المفوَّتة، هو غلط فاضح. وما بدا في البداية مجرد مبالغة وإفراط يظهر الآن بوصفه تشوشاً وخلطاً بائسين غالباً ما يفضيان إلى عواقب مخيفة. ففي دراستهم سيكولوجيا هذه الاضطرابات، ركّز المحلّلون اهتمامهم على العوامل الجنسية، وطابع الجنسية الطفلية، والتثبّت على موضوع الحب الأول، وهلمجرا. غير أنَّ بمقدورنا أن نردّ جميع الإخفاقات الانفعالية والعيوب، والعنّة والبرودة الجنسية، والإمناء السريع عند الرجال والارتكاس المتأخر لدى النساء إلى نزوات العداء والنقمة، وإلى مشاعر الخوف والكراهية. وإذا ما عدنا إلى مقارنتنا، فإن هذه الأعراض تعني: «لا أريد سماع رسالتك» أو «لا أميل للطريقة التي ترسلها بها». إن الكفّ الجسدي ليس إلا التجلّي الخارجي للتداخل،

وللاضطرابات الجوية في المجال الانفعالي بين شخصين. فما يحدث في العلاقات الجنسية نادراً جداً ما يتحدد بالعوامل الجنسية وحدها. وما يحصل عند اتحاد جسدين هو تعبير عما يحدث في الحياة الانفعالية لهذين الشخصين.

الكرامة البشرية في الجنس

احتجزت الحورية كاليبسو أوليس التائه سبع سنوات في جزيرتها. وعندما التقته شعرت أن ثمة تحفظاً بينهما، وقالت لملك إيثاكا: «فلنمضِ إلى الفراش كي يتآلف أحدنا مع الآخر». لقد فكّرت الحورية باستخدام العلاقات الجنسية بقصد التغلّب على التحفظ والحذر بين شخصين. وهو أسلوب كان مألوفاً لدى الذهنية الإغريقية وغريباً على ذهنياتنا. لكن ما يتغلّب على الهوة بين الحورية وأوليس ليس الجنس وحده، بل هو أيضاً اللطف والحنان المعبّر عنهما في دعوة كاليبسو البسيطة. فما أجبر التائه على المكوث سبع سنين على جزيرة كاليبسو لم يكن مقتصراً على إشباع جوعه الجنسي وحده.

إذا أردنا الكشف عن البواعث غير الواعية التي تقف وراء الإخفاقات والقصورات الجنسية فإن علينا البحث ليس في ميدان الجنسية، وإنما أبعد من هذا النطاق بين الانفعالات الشخصية. فالكتاب المقدّس يخبرنا أن الله خلق البشر. خلقهم ذكراً وأنثى. وليس مصادفة أن التفريق الجنسي موضوع في المقام الثاني. وهكذا فإن البشر يجب النظر إليهم ككائنات بشرية أولاً ومن ثم كرجال ونساء.

يطوّر كل جنس إحساساً بقيمته وكرامته الخاصة يكون من الصعب أحياناً على الجنس الآخر أن يفهمه. وثمة مآسٍ ومهازل يومية في المعركة من أجل الكمال. ويُخاض الكثير من هذه الصراعات في ميدان الجنس، على الرغم من أنّ منشأها ليس هناك.

وسوف أقتصر هنا على بعض الملاحظات في سيكولوجيا البرود الجنسي لدى النساء. وهو مثل عنّة الذكر، ومثل الإمناء الباكر جداً وسواه من الظواهر المشابهة، له طابع التدمير اللاواعي للشريك الجنسي. ولدى تحليل البرود، فإن الأثر الانفعالي يمكن اعتباره ثانية ذلك المفتاح النفيس المؤدّي إلى البواعث الخفية. فإذا ما كانت نتيجة مثل هذا الإخفاق هي خيبة أمل الشريك، فإنّ هذه النتيجة تكون مطلوبة ومرغوبة بصورة غير

واعية، على الرغم من كل النوايا الحسنة الواعية. ويمكن تشبيه الوضع بذاك الموصوف في القول المأثور: تستطيع أن تقود الحصان إلى الماء لكن لا تستطيع أن تجعله يشرب.

وليس صحيحاً، كما يؤكد المحللون النفسانيون، أن التهويل الجنسي، والتثبّت على الأب، وعوامل مشابهة أخرى هي الأسباب الرئيسة لبرود النساء. فالحب يتغلب عليها جميعاً، بما فيها الطهرانية Puritanism. فحين لا تشعر المرأة بأي شعور أثناء الاتصال الجنسي، فإنها لا تحب الرجل - في تلك اللحظة على الأقل - أو لعلها لا تعتقد أنه يحبها. وليس ثمة أي تلميح مفيد إلى هذه الحقيقة السيكولوجية. وارتكاس المرأة لا يتطابق مع كراهيتها للرجل، ولا حتى مع عدائها تجاهه. وغالباً ما ينجم الإخفاق عن الكبرياء الجريحة أكثر منه عن المقت. وبعبارة أخرى، فإن المرأة تشعر أنه لا يحترمها أو أنها لا تحترمه.

والمرأة عموماً هي أكثر صدقاً مع جسدها منها مع عقلها. ولا يمكن لأحد أن يؤكد أن النساء عاجزات عن الإفصاح وعيّيات في موضوعات أخرى، أما في هذا الموضوع المحدد فهن غالباً ممنوعات من التعبير عن انفعالاتهن العميقة.

ثمة فارق مميز بين سلوك الرجال والنساء فيما يخصّ الجنس. لنفترض أن هنالك جدالاً بين رجل وزوجته، وأن بعض الكلمات الجارحة صدرت عن كلا الجانبين. وكان الرجل سابقاً قد نسي، إن لم يكن قد غفر، بعض التعليقات المهينة التي تلفّظت بها زوجته. وهو يأمل أن الشمس سوف تغرب على حنقها وأنه عندئذ سوف يسترضيها بمقاربتها جنسياً. ولخيبته الشديدة، فإن محاولته تثبت فشلها، ليس حين ترفضه وحسب بل أيضاً حين تستسلم له بعدها. فهي تبقى دون شعور. الرسالة مسموعة، لكن ليس ثمة استجابة وشيكة أو في المتناول. هكذا يتلقّن الرجل أن الجنس لا يمكنه أن يؤثر على الحب، أما الحبّ فيمكنه أن يغيّر المشاعر الجنسية، وأنَّ المرأة يمكن أن تُدفَع أو تُقحم في الجنس، لكنها يمكن أن تُهدى وحسب إلى الشعور بالعاطفة. يمكن للرجل أن يمتلك المرأة جنسياً، لكنها لا تعود إليه إلا في الحب. وحقيقة أن الرجل يريد الجسد وأن المرأة لا تستطيع فصله عن النفس ليست بالسبب الوحيد للصراع بين الجنسين، وإنما هو واحد من الفروق الأساسية التي غالباً ما تخلق الصراع.

تصل كبرياء المرأة في حساسيتها إلى هذا الحدّ بحيث أنها غالباً ما تشمئز من

نفسها حين تستسلم للرجل الذي أهانها. وعلى النقيض من نواياها الواعية، فإن جسدها يبقى متحجراً وانفعالاتها منغلقة، كما لو كانت تقول: «لست هنا سوى بجسدي». ولقد عبّرت إحدى النساء مرة عن شعور تشاركها فيه الكثيرات من أخواتها، فقالت: «كنت غاضبة عليه لأنه جعلني أستسلم وحانقة على نفسي لأنني تركته يفعل ذلك». وفي عيادة التحليل النفسي يمكن أن نسمع كل يوم تقريباً توصيفات مماثلة تصف انفعالات النساء. ولقد جمعت بعضاً من هذه التوصيفات، وسوف أورد نخبة منها كي أثبت مقدار التشابه بين ارتكاسات النساء الانفعالية: «أستطيع أن أنام معه ليس لأنني مثارة جنسياً، وإنما لأنني مغرمة به كشخص. ليس وحده من يكون متحفظاً حين أكون معه ضد إرادتي، بل أنا أيضاً أكون متحفظة تجاه نفسي. وحين أفكر أنني أدعه يضطجع معي أشعر بالاشمئزاز من نفسي. أين كبريائي؟». «لم أكن موجودة باعتباري أنا». «كما لو كان الأمر رسالة». «كنت أفضّل قلع الأسنان». «شعرت أنني لا أحترم نفسي وليس لدي كرامة – أحطّ من دودة». «لقد صرت نائية فجأة، لأنه بدا غير مدرك لوجودي كفرد، وإنما فقط كامرأة قد يستعملها». «كنت بالنسبة لة مجرد محطة بنزين». «شعرت كأنني لن أستطيع أبداً أن أشعر بالنظافة ثانية». «لا يمكنه أن يفعل لي ذلك. لست واحدة من فتياته الراقصات». «لقد استسلمت له وكرهت نفسي لذلك. لقد جعلني أشعر أنني رخيصة». «لم يكن لدي أي احترام لنفسي. شعرت وكأنني عاهرة». «شعرت أنني منحطة وعلمت أنني سأكره نفسي في الصباح». «أشعر أنني عارية من آخر مزقة لدي من احترامي لذاتي». «لقد استسلمت له، لكني لم أحب نفسي بعدها». «لقد اهتم بي جنسياً وحسب، وليس كشخص. إنني أموت، فأنا أشعر أنني رخيصة كالوحل». ولقد قالت لي مريضة أنها أثناء الاتصال الجنسي مع زوجها راحت تفكّر بتفاصيل التسوق الذي كان عليها القيام به من أجل الغداء في اليوم التالي، كما قالت لاحقاً عن علاقاتهما: «لم تكن شيئاً نقوم به سوية». إنها لكلمات قوية، لكنها ليست أقوى الكلمات المستعملة بهذا الصدد.

النساء نزّاعات إلى الشك والاشتباه حين يعتبرهن الرجال مجرد أدوات جنسية وحين لا يمارس الرجال معهن الحب، بل يتظاهرون بذلك. وهنّ لا يملن إلى جعل الرجل يفكر بأنه انتزعهن، بل يفضلن أن يفكر أنهن استسلمن. ومثل هذا التفضيل لا يرتبط

بالخزي الاجتماعي بقدر ما يرتبط بالإحساس بالقيمة الذاتية، ولا يرتبط بحفظ ماء الوجه بقدر ما يرتبط بنظرهن إلى وجوههن في مرآة الحكم على الذات. وهنّ يعلمن أن الجنس لا «يعمل» إلا حين يشعرن أنهن قريبات انفعالياً من الرجل؛ وليس ثمة طريق أخرى لجعله يعمل بالنسبة لهن. فهن يردن العيش مع رجل، وليس النوم معه وحسب.

لقد كان باسكال محقّاً في قوله إن للقلب أسبابه التي لا يعرف عنها العقل شيئاً، لكن كان عليه أن يضيف أن الجسد غالباً ما ينمّ على هذه الأسباب ويكشفها. ويُثْبِتُ البرود الجنسي لدى النساء هذه المعرفة غير الواعية. فالبواعث على الافتقار إلى التهيّج لا تكون واعية على الدوام؛ وغالباً ما تتصارع الرغبة مع الكبرياء، لكن الكبرياء هي التي تكسب في العادة. وإليكم بعض الأمثلة التي توضح أن النساء لا يكن بالضرورة مدركات لما يبعث على المقاومة والإحجام الجنسي. لقد حكت لي مريضة أنّ الذهول قد أصابها حين وجدت أن التهيّج الذي شعرت به في البدء لدى الاتصال الجنسي مع زوجها توقف فجأة، على الرغم من أنها لم تعرف لذلك سبباً. ولقد وجدنا في التحليل أنها لابد أن تكون قد فكّرت في نفورها من زيارة كان عليها القيام بها إلى بيت عمها (أهل زوجها) في اليوم التالي. وكان زوجها قد حثّها على الذهاب.

مريضة أخرى، وهي فتاة شابة كان خطيبها قد عاد للتو من رحلة عمل دامت عدة شهور، أدهشتها برودتها التامة التي لم يسبق لها أن حصلت، على الرغم من أنها شعرت بتوق شديد إليه أثناء غيابه. أما الباعث الذي كان خفياً حتى عليها هي نفسها فهو التالي: كانت قد وضعت ثوبها بإهمال على كرسي حين تعرّت والتقطه الشاب. وبينما هو يبسطه على نحو مرتّب، صدر عنه تعليق نصف مازح مفاده أن أثواب السيدات ينبغي أن تُرَتَّب على هذا النحو. وقالت الفتاة، بانزعاج: «رائع، يا سيد، فأنت خبير». ولم يكن صعباً أن نكتشف أن هذا التعليق هو المفتاح في تفسير موقفها البارد الذي أبدته بعد عدة دقائق. لابدّ أنها فكرت في لاوعيها أن الرجل تعلّم التعامل مع أثواب النساء أثناء رحلته، ولابدَّ أنه قد خاض «تجارب أخرى».

مريضة أخرى تذكّرت فجأة أن زوجها لم يُبْدِ تعاطفاً حيالها حين مرضت، وجعلها هذا التفكير تتجمّد فجأة. «للحظة يشعر تجاهي بالحنان، وفي اللحظة التالية لا يهتمّ كم أكون بائسة إذا ما أمكنه إنفاذ مشيئته وحسب». وثمة فتاة أخرى كان عليها، وقد مضت إلى الفراش مع عاشقها، أن تنهض كي تحضر شيئاً ما. وحين لامست قدماها

الأرضية علّقت نصف جادة: «إن كنت تريد أن تكون لطيفاً حقاً عليك أن تؤمّن خفّين، نمرة قدمي هي ستة». فقال، مازحاً: «في هذه الحالة، عليّ تأمين عدد منها، نمرة خمسة وسبعة ومقاسات أخرى كثيرة». وكانت الفتاة، وهذا ما أدهشها، باردةً تماماً أثناء الاتصال الجنسي الذي حدث بعد نصف ساعة.

غالباً ما تحتج النساء بهذه الطريقة اللاواعية على فقدان الاحترام أو الاهتمام، فيعبّرن عن وجهات نظرهن الرافضة لمعاملتهن كمجرد قطع من اللحم. وليست مقاومتهن موجهة ضد الجنس، بل ضد الجنس الخالي من الاحترام أو العاطفة. وما يبدينه من عدم الاستجابة يكشف للمحلل حلاً الكثير من إشكاليات التنافر الجنسي حين يقاربها باعتبارها تجليات ممكنة للنقمة اللاواعية والكبرياء الجريحة.

والرجل ليس خالياً من الإحساس تجاه ارتكاس المرأة أو بالأحرى تجاه غياب هذا الارتكاس. فهو يشعر أنه هامد قليلاً ويدرك أنه قد أخفق. وهذا الإدراك لا يكون واعياً دوماً، لكنه على الدوام ضَرْبٌ من النتيجة الانفعالية. وفي بعض الأحيان يقتصر الأمر على شعور الرجل بأنه غير متوالف مع شريكته، ولكنه يؤول هذا التنافر في لاوعيه بأنّه تعبير عن تباعد نفسي. وإذا كان ما افترضته صحيحاً، أي أن كلاً من الشخصين يفهم الآخر بصورة لا واعية، فإنه عندئذ سيحسّ بالمعنى العدائي لهذا العَرَض، أو بمعناه الرفضي على الأقل. وإنني لأجرؤ على المضي أبعد من ذلك. فحتى عندما يحيّره الأمر بصورة واعية، فإن الرجل سوف يفهمه بوصفه ثأراً أو نقمة على الأذية التي أنزلها بتقدير شريكته لذاتها. وتدعم هذا القول حقيقة أنّ افتقار الشريكة للاستجابة الجنسية هو لطمة توجّه إلى كبريائه الذكري، كما لو أن سلوكها يعني ضمناً إخفاق فحولته، يعني عنّته الجنسية.

ويفهم الرجل بصورة لا واعية أن هذا العقاب يتماشى مع الجريمة. فإذا ما كانت كرامته كرجل تعاني من الإخفاق، فذلك لأنه أهان الكرامة الإنسانية لزوجته أو لمحبوبته. أيمكن لنا إذن أن نظل نردد أن النساء لا يستخدمن العلاقات الجنسية أبداً كوسائل للتعبير عن مشاعرهن السلبية أو العدوانية؟ لم يصدر عنا مثل هذا التأكيد، ولكن قلنا فقط إنهن لا يعتبرن الفعل الجنسي بحد ذاته مبخِّساً للرجل. وثأرهن أكثر حذقاً بكثير من قسوة الرجل الذهنية. فلأنهن أُهِنَّ وانتُهكن كنساء يهاجمن الموضع الأشد ضعفاً لديه، كبرياءه كرجل. وهن يعلمن بصورة لا واعية أنْ ليس ثمة إشباع

جنسي أحادي الجانب على الرغم من اعتقادهن الواعي أن بمقدور الرجل التمتع حتى لو لم يضطلعن انفعالياً بدور في العلاقات الجنسية. وهل من الضروري أن أضيف أنني بعيد كل البعد عن اعتبار النساء ملائكة؟ إن هنالك نساء قاسيات ومستبدات بما فيه الكفاية لا يُشبعهن أن يكن خليلات للرجل بل يردن أن يكن سيدات له وأن يسحقنه. فتحجُّر القلب ليس مقتصراً على الذكر. وكونغريف محق في قوله: «لا تعرف السماء سورة غضب مثل سورة حب انقلب إلى بغضاء، ولا يعرف الجحيم روحاً منتقمة كروح امرأة مزدراة».

تعبّر النساء عن كبريائهن الجريحة، جنسياً، بواحد من اتجاهين: ضد الرجل أو ضد أنفسهن بإذلال مازوخي للذات؛ فهنّ يُردن إما تبخيس الرجل أو تبخيس أنفسهن، كما لو أنهن يماهين أنفسهن مع الرجل، كما لو أنهن يدمجنه بكيانهن. أما الخيار الثاني فيؤدي غالباً إلى عدم الإخلاص أو إلى العلاقات الجنسية غير الشرعية، فيتصرفن كما لو أنهن فقدن كل قيمة لذاتهن لأن الرجل المحبوب لم يهتم بهن، كما لو أنهن ما عدن يخشين أن يكن «رخيصات» لأنه يعتقد أنهن بلا أيّة قيمة. ولقد قالت إحداهن، وهي مغتاظة بعد أن هجرها الرجل إلى امرأة أخرى وانغمست في علاقات جنسية غير شرعية: «بعدما فعله بي لم يعد مهماً إن كان هو أو غيره». وفي بعض الأحيان، تبدو العلاقات الجنسية غير الشرعية بالنسبة للمرأة وكأنها ليست سوى إجراء انتقامي، ضرب من الثأر من الرجل وتقليد كاريكاتوري غاضب لموقفه، كما لو أنها ترمي إلى القول: «انظر، ذلك هو ما فعلتَه وتعلمتُه منك». وغالباً جداً ما يكون التحدي والاستهزاء، فضلاً عن الحقد، غير واع عند مثل هؤلاء النسوة. فالصلة الانفعالية مع ذكرى الكبرياء الجريحة يتم اعتراضها ومقاطعتها كما لو أن التذكر كان مؤلماً جداً.

اسمحوا لي للحظة أخرى أن أعود إلى القول إنه، باستثناء السادية، ليس ثمة إشباع جنسي أحادي الجانب؛ لكنني الآن سوف أستعمل هذا القول في الدفاع عن الرجل. فالرجل الذي نشأ في ثقافتنا نادراً ما يشبعه الجنس الخام، على الرغم من كل تبجحه. فهو غير فاقد للحس كما يحصل غالباً أن تتخيله النساء - وعلى الأقل هو غير فاقد للحس والشعور في عقله اللاواعي - ولو أنه غالباً ما يزعم لنفسه أنه بحاجة للارتياح الجنسي وحده وليس إلى الرفقة والمشاركة أيضاً. وهو رومانتيكي في الأساس، ويشعر أيضاً أن الأجساد تبقى غريبة عن بعضها بعضاً إن لم تتحد النفوس.

وقد يخدع نفسه لبعض الوقت، لكنه لا يستطيع أن يخدعها إلى الأبد. وقد يدندن أغنية داعرة في عتمة وحدته الانفعالية، لكنه يعلم نوعاً ما في أعماقه أن العلاقات الجنسية وحدها لن تشبعه. ألم يلفّق خرافة أن كل حيوان يكون حزيناً بعد الاتصال الجنسي ("omne animal post coitum triste")(*)؟ يجب أن يعلم أن ذلك ليس صحيحاً، ذلك أنه، هو الحيوان الذكر، لا يشعر بالهمود إلا حين لا يكون بمقدوره نيل إشباع كامل. وهو لا يستطيع نيل هذا الإشباع إذا كان الجنس والتعاطف منفصلين أحدهما عن الآخر، اللهم ما لم يكن حيواناً ذكراً بالفعل.

ثمة أيضاً شيء ما لديه يبحث عن العاطفة ويصاب بخيبة الأمل إن لم يجد سوى الجنس. وقد يعني له الارتياح الفيزيائي أكثر مما يعنيه للمرأة، لكنه لا يعني كل شيء بالتأكيد. وأحياناً قد تجده عقب العلاقات الجنسية غير جائع جنسياً على الإطلاق، وإنما جائع للعاطفة. كما يمكن أن يشعر بالوحدة، أيضاً، رغم اتحاد جسده مع جسد الأنثى. وهو يعلم أن كل تجربة جنسية هي تجربة مختلفة، وأن قلّة قليلة منها هي تجارب كاملة. لعله لا يعرف هذا الدرس جيداً كما تعرفه النساء، لكنه يعرفه، فضلاً عن أنهن قادرات على تعليمه إياه. والرجال قادرون جيداً على الشعور بالتعارض بين الحافز الغُفْل إلى الإشباع الجنسي والحاجة إلى شخص معين والرغبة فيه. وهذا التعارض قد يطمسه تهيج الفعل الجنسي على نحو مؤقت، لكنه لا يلبث غالباً أن يعود مباشرة بعد الرعشة. وإليكم كيف وصف أحد الرجال تجربة جنسية: «كان الدافع قوياً، لكن الرغبة كانت ضعيفة». وتابع: «إن كان يمكنك أن تنال مثل هذه اللذة الكبيرة مع امرأة لا تكترث بها، فكيف هو الجنس إذاً مع امرأة تهمك». لقد تعلم الرجل أن يطيل أمد التسلسل المتصاعد نحو ذروته والذي يبدأ بالتشويق suspense الذي يخلقه إحجام المرأة، ومن ثم يفضي إلى استسلامها، فتشوّقها، وفي النهاية إلى انغماسها في النشوة ecstasy. وهذه المراحل المتعاقبة تصبح أهدافاً مرغوبة على نحو لاهث. وعبر هذا الطريق نصل ثانية إلى النتيجة السيكولوجية التي مفادها أن العلاقات الجنسية لا تبلغ إشباعاً كاملاً إلا إذا أشْبَعت في فعل واحد كلاً من الدافع الجنسي وحاجات الأنا، ومن بين هذه الأخيرة ذلك المطلب الأحدث سناً، الذي ندعوه بالعاطفة. وليست هذه الرؤيا بالتي يمكن أن نصفها بأنها رؤيا حسية. غير أنّها شيء من بين تلك الأشياء الموجودة في السماء والأرض والتي حلمنا بها في سيكولوجيتنا.

* – باللاتينية في النص الأصلي .

الرغبة في أن تكون مرغوباً

يمكن حتى لحركة ثورية في الأصل، مثل التحليل النفسي، أن تصبح محافظة وأن تلجأ، في النهاية، إلى ضربٍ من الإذعان الرجعي. كما يمكن لكثير من العقول الثورية، من مقاتلي الأمس، أن تتعب، وتوقف قضيتها على العقائد الجامدة والأفكار المسبقة. لكنّ تقدم العلم لا يحتمل مثل هذا الملجأ. ولسوف تكون هيئة التحليل النفسي حوالي عام ٢٠٠٠ من حقبتنا جدّ مختلفة عن مفهوم جميعة نيويورك للتحليل النفسي عام ١٩٤٥. ولا يحتاج المرء لأن تكون لديه موهبة النبوءة كي يتنبأ بأن الاهتمام سينصبّ على الشخصية البشرية الإجمالية أكثر بكثير منه على المكونات الجنسية. وإنني لواثق أن صورة التحليل النفسي عام ٢٠٠٠ سوف تكون أقرب إلى الصورة التي رسم ملامحها التحليل النفسي الجديد منها إلى نظرية اللبيدو. وسوف يتبين عندئذ أن الدافع الجنسي الخام لا يمكن أن يكون له تلك القدرة التي يعزوها له فرويد، وأن تلك الخلائط الباكرة من الحوافز الجنسية وغير الجنسية ستكون ملحوظة على نحو واضح في تلك الظواهر بالذات التي تُخلّف لدينا انطباعاً بأنها جنسية «محض».

إن إعجابي بفرويد ليفوق إعجابي بأي واحد من أتباعه، وربما بمعظمهم. ومع ذلك فإنني أرى أن عظمة فرويد ليست قائمة على نظرية اللبيدو وإنما على مآثر أخرى. وأنا مرتبط بفرويد، لكنني لست مُستعبداً له، وإعجابي لا يحول دون رؤية الحاجة إلى تغييرات، ولا يلزمني بعقيدة متعصبة كتلك التي تقيّد كثيراً من المحللين النفسانيين، «اللبيدو هو اللبيدو، وفرويد هو نبي اللبيدو الملهم».

حتى عند أولئك الأشخاص الذين تقف لديهم الجنسية في المقدمة وتبدو متحكّمة بالحياة الانفعالية، ليس الدافع الجنسي البدئي وحده من يحدد استيهامات الفرد وأفعاله. والرجل الذي يغتصب امرأة، ويقتلها منتشياً لا يُقْسَر على ذلك بالجنس

وحده. فالشهوة النهمة لدى الذكر، أي الشبق satyriasis، والرغبة القهرية المشابهة لدى المرأة، أي الغلمة nymphomania، ليست أبداً ظواهر جنسية صرفاً.

ليس ضرورياً أن نتفحص حالات مرضية كي ننفذ إلى طبيعة الخليط الغريب الذي غالباً ما دعوناه بالجنس دون تمييز بين الدوافع المختلفة. فالتحليل السيكولوجي للحياة الجنسية السوية لدى الرجال والنساء يثبت النظرية القائلة أن ثمة في الأفعال والاستيهامات الجنسية ما يتعدى الجنس. ويثبت، أيضاً، أنَّ كلمة «يتعدى»، التي تكون حاضرة في العلاقات الجنسية، غالباً ما تحدد طابع الفعل الجنسي الفردي، وما إذا كان مُشْبِعاً أم لا، ومكانته في حياة الفرد الانفعالية.

كل بحث في تطور الحياة الجنسية، إذا ما جرى دون أفكار مسبقة، سوف يتوصل إلى حقيقة مدهشة مفادها أنه عند نقطة معينة يقتحم المشهد عامل جديد ويكتسي بالدلالة. إنني أشير هنا إلى استجابة الشريك. فكثير من النساء والرجال يشعرون أن الجزء الأشد أهمية في ممارسة الحب هو إيقاظ الحب. وإذا ما نظرنا إلى الدافع الجنسي الخام، هذا الحافز إلى التخلّص من توتر عضوي، فما هي علاقة هذا الدافع المنفلت من عقاله بارتكاس الموضوع؟ إن موضوع الحافز الأولي ليس سوى أداة للذة، وقلما يتمّ اعتباره شخصياً. فكيف يمكن لنا تعليل الأهمية المتزايدة لاستجابة الموضوع ما دمنا نفترض أن الفعل لا يزيل سوى التوتر الجنسي وحده؟ إن شخصاً خاضعاً لتوتر الحافز الجنسي لن يكترث بمسألة موقف الموضوع؛ فانفعالات ومشاعر المرأة التي لا تُستعمل إلا لإرضاء الدافع الجنسي لن تكون موضع اهتمام ظالما أنها لا ترفض الرجل. أما إذا رُفِض الرجل المساق بمثل هذه الرغبة، فإنه يشعر بالضيق ولعله يستخدم العنف لتحقيق هدفه. وثمة طريق طويل من صورة المرأة التي تم كسر مقاومتها، والتي استنزفتها جهودها المبذولة في رد المهاجم، إلى صورة المرأة التي تحتفي بالرجل وترحب به.

يستحق هذا التغيّر العظيم أن يحتلَّ مكانة هامة في تاريخ التطور الذي يؤدي من إشباع الدافع الجنسي الخام إلى التوق الذي ندعوه حباً. إن الحاجة الجديدة إلى الاستجابة لم تظهر في البدء كمطلب غيري؛ فهدفها هو زيادة متعة المرء الخاصة وتعزيزها. كما تم الاحتفاء باستجابة المرأة، في البدء، باعتبارها محض حدث مدهش. أما لاحقاً فقد نُظر إليها كمصدر للذةٍ إضافية. ولقد نبعت الخطوات المتعاقبة في هذا

التغير من ممانعة المرأة أن تكون مطواعةً وتوّاقة. وبالنسبة للرجل البدائي، فإن فتنة الجنس كانت في الحقيقة فتنة الاختلاف الجنسي. ولاحقاً، أصبحت فتنة الجنس تعبيراً واعداً بلذّة جنسية أرفع بالنسبة للرجل. وبدا مظهر المرأة وموقفها، وايماءاتها وسلوكها وكأنه يعد بأنها ستستجيب طواعية، بل بحماس في بعض الأحيان، حيال مقاربتها جنسياً من قبل الرجل الذي اختارته. وهكذا غيّر الوعد بإشباع جنسي أعظم طابعه إلى Promesse de bonheur(*).

ولم يمضِ كثير من الوقت حتى أصبحت استجابة الشريك، فضلاً عن بلوغ المرء إشباعه الفيزيائي الخاص، هدفاً انفعالياً. وفي النهاية أصبحت شرطاً ضرورياً لإرضاء عميق، وأصبحت الاستجابة لهذا التطور ضرورة انفعالية بالنسبة للكثيرين، أصبحت a condition sine que non(**). وهنا يكمن خط التحديد الذي يسم الانتقال من فعل فيزيائي محض يستعمل شخصاً كأداةً للذة، إلى فعل شخصين يبحثان عن متعة مشتركة، من نشاط أناني إلى نشاط اجتماعي. وما اعتيد على فعله لشخص آخر أصبح نوعاً من التجربة التعاونية. ولقد تجاوز الفعل الجنسي في هذا الطور من تطوره نطاق اللذة المشتركة وأضحى تعبيراً جسدياً عن العاطفة. وهو في هذا التحول الأخير يزيل حدود الخوف، وعدم الثقة، والعداء التي تفصل الجنسين، وتفصل الرجل والمرأة الفرديين.

إن الرجل، الذي كان متطفلاً ذات مرة، والذي نظرت إليه المرأة باعتباره رجلاً ما، يُحتفى به الآن كضيف وكصديق. وما كان مستعداً لانتزاعه لأنه مُحتبَس عنه يُقدَّم له الآن كهبة. وما كان يريد أخذه يُمنَح له الآن بابتهاج. الأيدي التي رفضته ممدودة إليه، وحيث وجد الممانعة والمقاومة من قبل تُبذَل له الآن آيات الثناء والتقدير. تلك هي الدلالة الانفعالية للاستجابة.

وأودّ أن أطرح مشكلة فات السيكولوجيين أن ينتبهوا إليها مجرد انتباه، ويمكن هنا عرضها وحسب، وليس حلّها. كيف نشأت هذه الحاجة الجديدة، رغبة المرء في أن يكون مرغوباً؟ ولماذا نالت أهمية متزايدة إلى جانب الدافع الأولي للإشباع الجنسي؟ من

* – «وعد بالسعادة» – بالفرنسية في النص الأصلي .

** – شرطاً لا بدّ منه ، باللاتينية في النص الأصلي .

الواضح أن هذه الرغبة مرتبطة صميمياً بالتخييل الذي ناقشناه من قبل. ومن أجل مقاربة هذه المشكلة علينا أن نعود إلى الدور الذي يلعبه الخيال في الإشباع الجنسي. فطابع هذا الإرضاء يتوقف إلى حد بعيد على نوع التخييل الذي يسبق الفعل الجنسي ويرافقه.

ولكنْ أليست الحاجة الجنسية الحبيسة أو المكبوتة، اللبيدو، هي العامل الأشد أهمية في هذا الإشباع؟ لاشك، ولكن ثمة عوامل أخرى تتطلب هي أيضاً أن تؤخذ بالحسبان. اسمحوا لي أن أجري مقارنة. إن البشر يشربون بسبب الظمأ. فهل يشرب البشر بسبب الظمأ وحده؟ لا، بالتأكيد. فهم يشربون أيضاً لشعورهم بالوحدة، بالهمود، وبالإحباط، طلباً للإثارة والرفقة. وهكذا يبقى الظمأ هو الباعث الرئيس على الشرب، لكنه ليس بالباعث الوحيد. وبالمثل، فإن الضغط الجنسي ليس هو وحده الذي يسوق الرجال والنساء إلى الفعل الجنسي. فالوحدة والفراغ، والفشل والإحباط، والكبرياء الجريحة واليأس تجد عزاءً لها في الإشباع العابر للنشاط الجنسي. فالطفل لا يكون جائعاً بالضرورة حين يطلب قطعة كراميل ليلعقها. إن توق المرء لأن يكون مرغوباً، ذلك التوق الذي لم يلعب أي دور في الدافع الجنسي الأولي لكن إلحاحيته ازدادت في زمننا، يُبدي عن عامل آخر يفعل فعله مقترناً مع الشهوة الجنسية.

ومما ينطوي على مفارقة أن دور هذه الحاجة لا تمكن ملاحظته جيداً في سيكولوجيا الفعل الجنسي السويّ كما هو الحال في تخييل الانحرافات والاستمناء. وليس لهذا الترافق علاقة مع شدة الحاجة، وإنما مع الفرص الأكثر ملاءمة للملاحظة. ومن الواضح أنّ اقتناع المرء بأنه مرغوب يعزز، في التهيّج الجنسي السويّ أيضاً، من شهيته الجنسية، ويزيد من رغبته. ويعمل ارتكاس الشريك بمثابة منبّه، تتنوع شدته، بالطبع، بتنوّع الأفراد، ولكنه على الدوام أداة في الحصول على الإشباع.

وتثبت الملاحظة التحليلية النفسية أن هذا الارتكاس يكون متوقّعاً مسبقاً في التخييل الذي يسبق الفعل الجنسي ويتم الاستمتاع به خلاله. وتتضح أهمية هذه الاستجابة حين تُقارَن التجارب الجنسية التي تمّ الشعور خلالها بالاستجابة مع غيرها من التجارب التي افتقدت إليها. كما أن الرجل أو المرأة اللذين أصيبا بالإحباط يعودان في الخيال إلى علاقات جنسية سابقة كانت أكثر إشباعاً. بل إنّ هذه العلاقات يمكن أن تكون في بعض الأحيان ذكريات تجارب مع الشخص نفسه. ومن المحتمل أن

يكون لذكريات من هذا النوع تأثير على ثبات الولاء أو الإخلاص الجنسي حين يتم الشعور بها كوعود بإشباع مقبل. ومن جهة أخرى، فإن غياب الاستجابة يتم الشعور به على أنّه نوع من الرفض، حتى لو كان الشريك راغباً في الاتصال الجنسي.

يمكن إيضاح ما قلناه في هذه النظرة العامة إلى سيكولوجيا الارتكاس من خلال بعض الأمثلة المقبوسة من الملاحظة التحليلية النفسية. فأحد الشباب قطع علاقته مع فتاة يحتقرها، وأقام علاقة مع فتاة أخرى. وفي علاقاته الجنسية مع الفتاة الثانية شعر أنه غير مُشْبَع، وأصيب بالدهشة إذْ وجد أن تخييله يرتد دوماً إلى خليلته التي تركها. وعلى الرغم من أنه لا يتوق إليها في وعيه ويفضّل الأخرى عليها، فإن استيهامه كان مثقلاً بذكريات من تجاربه الجنسية معها. وحاول، بمساعدة فتاته الحالية، التي كانت جدّ راغبة في التعاون، أن يمثّل ثانية هذه المشاهد المتذكّرة، لكنه اكتشف أنه عندما يفعل إثنان الشيء نفسه فإنه لا يبقى الشيء نفسه. وكان عليه أن يُقرّ أثناء التحليل النفساني أنه كان يفضّل الفتاة الأخرى بقدر ما يكون المقصود هو المظهر والطبع، لكن تفوقها لم يمنع معاودة الصور التي تدور حول موضوعه السابق. إن ما افتقده لدى الفتاة الثانية كان استجابة شخصية معينة أبدتها الأولى. وقد استحضرتْ هذه الذكرى الإيماءات والكلمات ذاتها، وملاطفات محددة، بل وترانيم بعينها للتنهد والحديث، ممّا كان قد شحذ رغبته أثناء النشاطات الجنسية. ولقد حاول دون جدوى أن يتخيّل أن الفتاة الثانية هي الأولى؛ بل درّبها على التلفّظ بالكلمات نفسها، والقيام بالحركات نفسها. لكنه لم يستطع أن يربط بها هذه الصور. لابد أنه شعر في لا وعيه أن استجابة خليلته الأولى كانت تعني تمتّعها بالاتصال الجنسي معه أكثر من خليلته الثانية أو بطريقة مختلفة عنها. فالأولى في استجابتها كانت تحقق على نحو أفضل تلك الشروط الضرورية لإثارة هواه. فقد أرضتْ رغبته في أن يكون مرغوباً[1].

إن كان المقصود هو الدافع الجنسي الخام وحده، أي الحاجة الملحّة للتخلّص من توتر عضوي وحسب، لا يعود بمقدورنا أن نفسّر سبب عدم إشباع الحافز مع الفتاة الثانية مثل الأولى، أو لماذا أحيا الإخفاق في نيل الإشباع منها ذكريات تجارب جنسية سابقة،

---

١ – إن التمييز الذي عرضته إحدى الشابات في أكسفورد ، مسيسيبي ، على ويليام فوكنر يعبّر على أفضل وجه عن اختلاف موقف المرأة : «إن كنت أميل إليه ، فإنني أتركه . إن كنت أحبه ، فإنني أساعده» .

ولماذا حافظت هذه الذكريات على قدرتها التهييجية القوية في تخييل الرجل. لماذا يستحضر الذهن بصورة ناشطة ومهيّجة حركات معينة، وكلمات وإيماءات الشريك الجنسي السابق، ولماذا تُجرى المقارنة بين كلتا التجربتين؟ ولماذا تبهت التجربة الجنسية الجارية مع الفتاة الثانية حين تُقارَن مع التجربة المتذكَّرة؟

نحن نتحدث عن الإشباع الجنسي كما لو كان تجربة عمياء لا تميّز بين الأشخاص وتبقى هي نفسها في جميع الأوقات ومع كل شريك، لكن هذا الافتراض لا يصح إلا في ميدان الدافع الجنسي البدئي. أما حين تتحد عوامل أخرى مع الجنس، فإن السؤال التالي يكون قيّماً: إلى أي حد يكون الإشباع مشبعاً؟ ليس ثمة درجات وحسب وإنما فروق دقيقة وظلال في نوعية الإشباع الذي يمتنع على التوصيف السيكولوجي ويروغ منه. فالتجربة الجسدية مشروطة أيضاً بما يجري في الذهن، خاصة في شكل التخييل المتعلّق بالشريك المحدد. ثمة عامل شخصي، مجهول غالباً أو غير مميّز على الأقل، يدفع المرء إلى التمييز بين التجارب التي تكون العلاقات الجنسية فيها بمثابة العنصر المشترك الوحيد.

أما المثال الثاني، والذي اخترته بسبب سوائه normality، فيثبت أهمية العامل الشخصي السيكولوجي بطريقة أكثر إدهاشاً. رجل تخاصم مع زوجته قبل وقت قصير من ذهابهما إلى الفراش. لم ينم، وشعر بحافز جنسي مبهم. حاول عبثاً أن يربط هذه الحاجة بزوجته، المستلقية قربه. وبالطبع، كان يعلم أن مقاربة زوجته جنسياً ليست ممكنة نظراً لانزعاجها الشديد. وإلى جانب ذلك، لم يشعر هو نفسه برغبة جنسية تجاهها في تلك اللحظة. وفي بحثه عن صور ملائمة لرغبته تذكّر أحداثاً جنسية من حياتهما الماضية، خاصة في السنة الأولى لزواجهما، وتهيّج بشدة. لقد تذكّر خاصة اتصالاً جنسياً في غابة في فصل الصيف. وأثاره تذكّر تهيّج زوجته في ذلك الحين، كيف التصقت بجسده بشدة وضغطته، وما قالته آنئذٍ، وهلمجرا. كان يعلم أنه ليس بمقدوره في تلك اللحظة القيام باتصال جنسي مُشبع مع زوجته المستلقية إلى جانبه، لكنه استمنى بصورتها المتخيَّلة حين نالها في الماضي. لقد استبدل زوجته الفعلية الحاضرة بصورتها حين بدت مرغوبة وخاصة حين بدت راغبة فيه. ولقد حصل أن نظر إليها وهو يمارس العادة السرية فتراجع تهيّجه وكأنما أصابته حالة من الجزر، لكن المد عاد ثانية حين تذكّر التجربة السابقة من جديد.

ليس هذا المثال الذي أوردناه بالمثال النادر الحدوث[٢]. وغالباً ما يسمع المحلل النفساني رجالاً يقرّون بأنهم شعروا بعدم الإشباع أثناء الاتصال الجنسي أو بعده مباشرة وأنهم استمنوا عقبه، مثارين بصور من عندهم. فالتهيج الجنسي أوقظه الاتصال مع الزوجة، لكن هذا الاتصال لم يُرضِ الرغبة، كما لم يتمكّن الاستمناء من تسكينها. ويخمّن السيكولوجي -وهو تخمين كانت قد ثبتت صحته في حالات كثيرة - أن الرجل لم يتمكن من بلوغ إشباع كامل لأن وساوس أخلاقية أو جمالية منعته أن يطلب من زوجته ممارسات جنسية معينة (ممارسات شاذة، مثلاً) وأنّ الفعل قصّر عن إشباعه لأن هذه الشروط الخفية لم تتحقق. لكن هنالك، على أية حال، حالات أخرى تُفتَقَدُ فيها استجابة المرأة أو يتمّ الشعور بأنها غير مُشبِعة. أما الصور التي تُسْتَحضر أثناء الاستمناء فهي تمثل وضعية تتحقق فيها الشروط الضرورية.

يمكن تقييم أهمية الاستجابة في الجنس على أفضل وجه من خلال البحث التحليلي في استيهامات الاستمناء. وليس هذا بالأمر الغريب كما يبدو للوهلة الأولى. فهنا تتأمن شروط أكثر ملاءمة للملاحظة إذ يمكن عزل سمات خاصة للاستيهامات. فالغياب المادي الحقيقي للشريك الجنسي يشترط بالضرورة بديلاً متخيلاً. وما يستدعيه الخيال، ليس، بالطبع، سوى تلك المشاهد، والمواقف، والكلمات المرغوبة إلى أبعد حد. ومن الملحوظ، فوق ذلك، أن تخييل الاستمناء غالباً ما يوقظ ذكريات تجارب جنسية واقعية، ومن المميّز أن التهيج الجنسي فيها يزداد حين تُستحضر استجابة الشريك الحنونة أو المشبوبة.

صحيح أن الاستيهامات المصاحبة للاستمناء غالباً ما تحدث قبل أن يكون الشخص قد أقام أي اتصال جنسي، لكن الرغبة في الاستجابة تلعب دوراً مهماً إذا كان الحالم ناضجاً، حتى عندما تسبق الفكرة التجربة. وأعرف رجلاً غالباً ما يعود في ذكرياته إلى تجربة محددة حصلت قبل عشر سنين ويتهيّج لها دائماً. فحين كان في السادسة عشرة قام أبواه برحلة وتركاه في البيت وحده مع الخادمة التي تكبره بعدة سنوات. وفي إحدى المرات، وبينما هو عائد متأخراً ليلاً إلى البيت، نادته الفتاة من

---

٢ - لا تستبعد القسوة ، ولا التعطش إلى الدماء ، التهيج الجنسي بل هي غالباً ما تعمل في الانحرافات بمثابة عوامل مهيجة ، إلا أن العداء ، والنقمة ، والضغينة تمنع تطور الرغبة . وحتى في الحالات النادرة حيث تُخلي هذه القاعدة المكان للاستثناءات فإن التيارات المضادة المكبوتة تتداخل مع الإشباع .

غرفتها. وحين دخل وجدها عارية في السرير. ولقد تمّ ترصين هذا المشهد في أخيلته بكل التفاصيل التي يتذكّرها. إنه يسمعها تناديه «يا صغيري العزيز»، ويشعر بها تقبّله على نحو متواصل وتشدّه إلى جسدها. ويزداد تهيّجه حين يسترجع أنها هي نفسها التي تناولت قضيبه وأولجته في فرجها. ويتخيل أنه يشعر ثانية بحركاتها المحمومة إثر ذلك، وأن جسدها برمته يرتعش من جديد، وأنها تتأوه وتتنهد وتلفّ ساقيها حوله متشبثة. ويتخيّل أنه يسمع صوتها منادياً «حبيبي» «أوه، هذا حسن! هيا! هيا!». وإذْ يتخيل حنانها وحماسها المتّقد، فإنه يختبر قذفاً مشبعاً جداً.

إنني أعتبر من الضروري تسجيل هذا الاستيهام بكل تفاصيله النوعية على نحو دقيق لأن التفاصيل العرضية التي تبدو غير ذات دلالة في الظاهر هي هامة من أجل الفهم السيكولوجي لمثل هذه الاستيهامات. فالأشخاص الذين يصدمهم بسهولة هذا الوصف، والذين يرغبون في كبت هذه المادة الموحية أو الإباحية، يدفعون ثمن محافظتهم على «البراءة» افتقاراً للفهم. إن العوامل المهمة في مثل هذا الاستيهام هي الدور المزدوج الذي يلعبه الرجل، حيث يقوم بكل من دوره ودور المرأة الغائبة؛ وكذلك دلالة الكلمات (والتنهدات، والهمهمات) باعتبارها منبهات؛ وزيادة الرغبة عبر كون المرء مرغوباً.

وإذا ما كنا قد أسّسنا لأهمية الاستجابة في هذه الأمثلة من حياة الرجال الجنسية، فإن دور الاستجابة كعامل أساسي بالنسبة للنساء واضح بما فيه الكفاية، لأن رغبة الرجل الجنسية هي عموماً شرط لازم لرغبات المرأة الجنسية. وتخييل المرأة ليس أقل حيوية من تخييل الرجال بالتأكيد، لكن منطلقه السيكولوجي هو عادة التفكير بأن رجلاً واحداً أو كثيراً من الرجال يرغبون فيها.

كتب فرويد مرة أن الليبيدو ذكريّ في طابعه، حتى حين يوجد لدى النساء. وهذا القول لا يبدو لي صحيحاً. فلو كان صحيحاً، لما كانت النساء قادرات على الشعور بالرغبة الجنسية. وثمة نواة من الصواب في تأكيد فرويد هي حقيقة أن العدوانية في الدافع الجنسي ذكرية، حتى حين توجد لدى النساء. وأنا أقصد أن العدوانية لدى معظم النساء هي أقل تطوراً منها لدى الرجال. كما أميل إلى الزعم بأن هذا الافتقار ليس قائماً على عوامل سيكولوجية بقدر ما هو قائم على عوامل بيولوجية.

وإذا ما أخذنا هذه الاعتبارات بالحسبان فسوف نفهم بسهولة أن التماهي غير الواعي مع الرجل الذي يخطب ودّها ويرغب فيها يصبح ضرورة بالنسبة لتخييل المرأة كي تشعر بالإثارة الجنسية. فتخييل النساء محكوم بالصيغة التالية: إنه منجذب إلي، يرغب بي، يحبني. وليس لخيالهن من طريق آخر في عرضه لهذا التصاعد crescendo سوى الاضطلاع بدور الرجل في استيهامهن. وفي حين يمكن أن يُفتَقد انتحال دور مزدوج في استيهامات الرجال، نجد أن هذا الانتحال قلما يغيب في تخييل النساء. وليس طابع الجنسية النسوية المنفعل أو الترقبي بالأحرى هو المسؤول وحده عن هذا الفارق. فثمة عوامل سيكولوجية مشروطة بنموذجنا الثقافي تفعل فعلها أيضاً لدى النساء. ففي حين يمثّل تهيج المرأة الجنسي المتزايد، واستسلامها وحماسها إضافة جد مُلِذَّة إلى إشباع الرجل الفيزيائي، فإن التهيج والفاعلية الكافيين من جانبه هما منطلق ضروري لإيقاظ رغبة المرأة. ويمكن للمرأة أن تشكّ كثيراً بجاذبيتها، لكن عدد اللواتي يمكنهن الشك بقدرتهن على استنهاض فحولة الرجل هو عدد ضئيل جداً. (ومن المؤكد أن ثقة الرجال بقدرتهم على إثارة المرأة جنسياً لا توازي ثقة النساء).

يفسر هذا الفارق السيكولوجي، مع كل أصدائه، سبب وقوف ارتكاس الرجال الجنسي حيال جاذبية النساء كمنطلق لمعرفة الذات في تخييل النساء. فمن دون هذا الارتكاس ما كان التهيج الجنسي ليتطور، أو أنه كان سيتوقف في الحال[٣]. ويمكن القول عموماً أن تخييل النساء يبدأ باستيهام أن رجلاً يشعر بالانجذاب نحوهن، يخطب ودهن، يغازلهن، ويرغب فيهن، يتلفظ بكلمات عذبة ومطرية، يطلق عليهن أسماء دلع، يقبلهن، ويقاربهن جنسياً. وفي الغالب، فإن الاستيهام لا يبلغ هذا الطور الجنسي. وإليكم كيف تصف إحدى الفتيات الصورة التي تفضلها: «أزعم أنني رجل وأقول لنفسي: أحبك، أحبكِ، أحبك. وذلك من المفترض به أن يكسر مقاومتي لا أن يهيجني جنسياً». أما في تخييل الرجال، فالمقاربة الجنسية هي أكثر مباشرة؛ ولا يُستخدم الحنان إلا كوسيلة لجعل المرأة مستعدة للعلاقات الجنسية. وعموماً، فإن عاطفة

٣ - هذا الارتكاس الذكري يكون متأخراً في بعض استيهامات النساء، لكن ذلك لا يتعارض مع القول الوارد أعلاه، فهو لا يعني سوى أن الإرجاء ممتع بل تبدو القدرة على انتزاع الرجل الممانع تحت ضوء أكثر سطوعاً. ولقد سبق لي أن ناقشت عامل الإرجاء في الجنس في كتابي «المازوخية لدى الإنسان الحديث»، فارار ورينهارت، ١٩٤٢.

الرجال تظهر بمثابة شرط لازم في استيهامات النساء، في حين أن حنان المرأة وحماسها هما النتيجة النهائية في استيهامات الرجال، وذلك بالانسجام مع الطبع الترقّبي المنفعل والديناميكي الفعّال لدى كل من الجنسين.

إذا أرادت امرأة أن تتمتع باستيهام جنسي محض، فإن عليها أن تلعب دور الرجل أو الفتى الذي يقاربها جنسياً. عليها أن تتخيل أنها هذا الرجل وأن تختبر تهيّجه. وتشعر معظم النساء مثل تلك الفتاة التي قالت أثناء التحليل: «بالطبع أريد الجنس؛ لكنني أريد أيضاً ما هو أكثر من الجنس». وفي لعبها ذلك الدور المزدوج، دور الرجل الفعّال والراغب، فضلاً عن دورها هي، على المرأة أن تتخيّل أنها الرجل الذي تهيّج إلى درجة تمكّنها من التمتع بما لديه من هوى متزايد، وكذلك بمقاومتها الخاصة، واستسلامها النهائي. وغالباً ما تعمل الفتيات، في تخيلهن، على إرجاء قبولهن، حيث يخشين أن يسيء الرجل فهم استسلامهن السريع. («ما الذي سيظنه بي؟ قد يعتقد أنني متهتكة»). ويتضح تماماً طابع هذا الأداء للدور المزدوج حين لا تكتفي المرأة بالتخيل وحسب، وإنما تقوم على نحو ما بحركات الرجل، وإيماءاته، وأفعاله الجنسية. وبذلك تلتحم انفعالات الرجل وانفعالات المستوهمة في النهاية. ولقد وصفت إحدى الفتيات هذا الطور بالعبارة التالية: «لم أكن أعلم أبداً من هو الذي يشعر بماذا».

الاستجابة

يقودنا التعارض بين تخييل النساء، الذي يكون فيه تهيّج الرجل الجنسي شرطاً أساسياً ضرورياً لرغبتهن الخاصة، وتخييل الرجال، الذي يكون حماس المرأة في استيهاماته بمثابة المكافأة، إلى طرح بعض الأسئلة الشائقة. وهي أسئلة لم يطرحها البحث السيكولوجي بسبب افتقاره إلى الشجاعة، ولذا فإننا لم نسمع بها من قبل. لكن حقيقة أنها لم تبرز إلى السطح لا يعني عدم أهميتها ووثاقة صلتها بالموضوع. ليس ثمة أي شك أبداً في أن شخصاً ما يمكن أن يبقى فاتراً بلا إثارة، بينما يُثار شخص آخر جنسياً ويقارب الأول. وهنالك أمثلة كثيرة تثبت هذه الحقيقة، خاصة عن نساء رفض رجالاً يلحّون عليهن.

إليكم هذا السؤال الشائق من الناحية السيكولوجية: هل يمكن لرجل يهيج المرأة جنسياً، ويلاحظ أمارات رغبتها، ألا يتهيج هو نفسه على الرغم من ذلك؟ وإلى أي حد يمكن لهذه الإمكانية أن توجد لدى المرأة؟ ومن الواضح بالطبع أنَّ ثمّة فارقاً بين ذلك وبين المقاربة الجنسية لذكر غير مرغوب. فالرجل يرغب في أن يهيج المرأة ويوقظ رغبتها قصداً. إن الإجابة عن هذا السؤال تقدّم معلومات تتعلق بدور الاستجابة الجنسية. والإجابة هي أن بمقدور رجل أن يهيج امرأة جنسياً عامداً دون أن يكون متهيجاً هو نفسه. فهذه الإمكانية موجودة، لكنها نادراً ما تتحقق. فثمة، مثلاً، أنماط سادية ممن يمكنهم ملاحظة كل أمارات التهيج الذي عملوا هم أنفسهم على إثارته، دون أن يستشعروا أي أثر للرغبة الجنسية.

وحتى لو استبعدنا هذه الحالات المرضية، فإن جوابنا يبقى بالإيجاب، إنّما مع تحفظات شديدة؛ لأن الشخص السوي لا يمكنه ممارسة مثل هذه اللامبالاة الواعية إلا لفترة وجيزة وعبر إجهاد أقصى يُجْهِد به قوة إرادته. فالمحافظة على مثل هذا الموقف

«الانعزالي» لا تكون ممكنة إلا بتحكّم بالنفس عظيم. كما لا تمكن المحافظة على مثل هذا الموقف إلا بدوام وجود قوة الإرادة هذه. وإذا كان هذا الاستنتاج صائباً، فإن تهيّج الشخص الآخر يعمل عندئذٍ كمنبّه قوي، لابد من مقاومة شديدة تجابهه. والسؤال هو التالي: لماذا لا تكون المقاومة ضرورية إن كانت رغبة المرء الخاصة هي مجرد تعبير عن دافع جنسي أولي، عن حافز للتخلص من توتر عضوي؟

ها هنا نوع من البرهان غير المباشر أو، لنقل على نحو أدق، نوع من البرهان التجريبي على أن في الرغبة التي تدفع رجلاً إلى امرأة أو امرأة إلى رجل ما يتعدّى الدافع الجنسي العضوي البسيط. فما يفعل فعله هنا ليس الدافع الجنسي البدئي وحده، وإنما دافع مزدوج حاضر لدى الفرد. ذلك أن الأثر الناجم عن إثارة المرأة يرتدّ على الرجل الذي أثارها. كما لو أن شخصاً يحاول إضرام النار في بيت جاره فيحترق هو أيضاً. ولكننا لم نستطع تفسير انتقال التنبه الحسي إلى المثير. ففي قيام الرجل بتهييج المرأة يتمتع هذا الرجل بكل من قدرته على إثارتها ورغبته في انتزاعها. ولعل هنالك دوافع أخرى تفعل فعلها من مجال الأنا، فمن المؤكد أن ما يؤدي إلى هذه النتيجة ليس الدافع الجنسي الأولي الفجّ. وهذا دليل لا يدع مجالاً للشك فيما يتعلق بالأهمية السيكولوجية التي تحظى بها الاستجابة الجنسية. فحتى حين تتهيج المرأة عن طريق بعض الوسائل الميكانيكية التي يطبقها الرجل، فإن ملاحظته لرغبتها الجنسية سوف تثير التهيج لديه.

أما إذا كان جائزاً توسيع معنى كلمة «استجابة» بحيث تتضمن معنى الارتكاس، فإن ممارسات منحرفة معينة سوف تدعم حجّتنا. فالملاحظات الخاصة بالأشخاص الجنسيين المثليين، والساديين والمازوخيين لا تدع مجالاً للشك في أن تهيج الشريك هو عامل رفيع القيمة في إشباعهم الخاص. وكما في الحياة الجنسية السوية، فإن إدراك الاستجابة، وأكثر من ذلك ملاحظتها المباشرة، تعزز من التهيج إلى حد كبير. وهي لدى بعض الأشخاص لا تشحذ الشهوة وحسب، بل توقظها أيضاً. ويشبه الأمر شخصاً قد لا يدرك أنه جائع حتى يرى شخصاً آخر يأكل بمتعة كبيرة.

يتمتع المرء على نحو خاص بملاحظة استجابة الآخر في النشاطات المنحرفة التي يلعب فيها الإذلال والتبخيس أو تحقير الذات أدواراً حاسمة. فمثل هذه الملاحظة

الشهوانية تشرك في اللذة الجنسية الصرف إشباعاً آخر مصدره دافع السلطة. ذلك أن انتزاع الآخر، والإحساس بالسلطة، وأيضاً إنزال العار بالآخر، أو استنفار صفاقته هي عوامل تلعب دورها في نوعية هذه المتعة المنحرفة وشدتها. أما في الانحراف المازوخي فيتم بلوغ هذا الإرضاء بمماهاة الشريك السلبي ذاته مع الشريك الإيجابي.

لنعد الآن إلى سيكولوجيا النساء، حيث يتضح أن التماهي اللاواعي مع الشريك المستجيب هو اللحظة الأساسية في السيرورة الديناميكية. ويمكن لنا بسهولة أن نبين أن لدى النساء عموماً فرصة أفضل من فرصة الرجال للبقاء غير متورطات انفعالياً في التهيج الجنسي، حتى لو كن قد أثرن بأنفسهن هذا التهيج. ومشهد الرجال المثارين من قبل نساء هو أكثر شيوعاً من مشهد النساء المثارات بالمثل من قبل رجال. لكن النساء، شأن الرجال، لا يمكنهن ملاحظة ما أثرنه من تهيج متعمّد والبقاء هادئات على الرغم من ذلك، إلا بإبداء قوة إرادة عظيمة. وغالباً جداً ما يكون ارتكاس النساء متأخراً، لكنهن يبدين في النهاية ارتكاساً مماثلاً لما يبديه الرجال. وإليكم مثالاً مقنعاً: جاءت إحدى الفتيات إلى التحليل وهي تعاني من حالات همود، ومصاعب في عملها، وعدد من الأعراض الهستيرية. وكانت السمة الأبرز في قصتها المرضية حالة استمناء قهري، كانت تقوم به يومياً، وفي بعض الأحيان عدة مرات في اليوم. وبالطبع فإن استمناء بهذا الإفراط هو نادر جداً لدى الفتيات الشابات اللواتي لم يكن لهن من قبل أي اتصال جنسي ونشأن في مستوى ثقافي معين. وكانت مريضتي هذه، وهي من عائلة كاثوليكية ذات قواعد صارمة فيما يتعلق بالسلوك الجنسي، تشعر بالعار والإثم لانصياعها للغواية كل يوم تقريباً.

كان الانطباع الأول الذي تكوّن لدي من خلال التحليل أنها كانت تتهيّج أثناء حفلات «تقبيل» عابرة مع شباب وأن هذا التنبيه كان يؤدّي إلى نشاطات استمنائية. ولكن ثبت أن هذا الانطباع خاطئ حيث كانت تستمني ولو لم تلتقِ هؤلاء الشباب، ولم يكن للصور التي تثيرها أيّة علاقة بهم. وسرعان ما اتضح أن تهيجها الذاتي كان قد بدأ قبل بضع سنوات، بعد أن قطعت علاقتها مع شاب ظل صديقها المثابر لفترة طويلة.

وهذه العلاقة لها قصة غريبة: فالفتاة كانت قد استمهلت الفتى لبعض الوقت قبل أن تجد نفسها في حب معه. وكان ثمة بعض حفلات «العناق»، المقتصرة على القُبَل

والضمّ. وكانت تتمنى أن تتزوج من هذا الرجل؛ وقالت إنها غالباً ما قبّلته بحماس كي تجعله يتمنى الزواج منها. وكانت تدرك أن هذه المداعبات تهيجها جنسياً لكنها لم تتح له البتة لمس جسدها. وبعد أكثر من سنة أعلن هذا الفتى أنه ما عاد بمقدوره رؤيتها لأنه، كما قال لها: «قد أثير إلى درجة لا يكاد يمكنه تحملها». ورجته: «لا تذهب أرجوك». وشعرت بجرح عميق. وسرعان ما حاولت لقاءه ثانية. وبعد شهور عدة من الترقّب القلق أعيدت العلاقة. وطلبت منه أن لا يسرف في معانقتها لأنها لا تستطيع أبداً أن تمنحه نفسها[1]. لقد علّمتها أمها أن عليها أن لا تسمح أبداً لرجل أن يمسها لأنه «سيفقد كل احترام لكِ». وفي الحال بلغ الشابان تلك المرحلة ذاتها التي بلغاها من قبل. هو يلحّ في طلب الإشباع الجنسي؛ والفتاة تصدّه، رغم خشيتها أن يتركها. وفي جهد يائس للتمسك به، قررت أن تريحه جنسياً دون أن تتورط هي نفسها جسدياً أو انفعالياً[2]. كانت تستمنيه كلما طلب ذلك، وكان يطلب ذلك يومياً، عدة مرات في الغالب. واستسلمت الفتاة كارهة لهذه الممارسة، لكنها ظلّت تؤكد أن عليه ألا يلمسها: («ما الذي سيظنه بي!»). واستمر هذا النشاط الجنسي أحادي الجانب شهوراً عدة، زاد خلالها اشمئزاز الفتاة. كما شعرت بالإثم إذ خشيت أن يتأذى الرجل بمثل هذا النشاط الجنسي المفرط. وغالباً ما كانت تناشده «دعنا نتوقف عن ذلك»، لكنه أصرّ بل ازداد طلبه. وأضحت المريضة جد «عصبية» ومثبطة الهمة، خاصة أنه كان قد اختفى كل غزل من جانبه و«تجاهلني كشخص وأراد الجنس وحده». وفي النهاية قطعت العلاقة وسافرت إلى مدينة أخرى. وبعد مدة قصيرة بدأت تستمني وتستسلم للغواية أكثر فأكثر على الرغم من مشاعر الخجل العميقة.

---

١ - العناق أقل امتاعاً للفتيات مما نتوقع. كما أن التهيج الجنسي، الذي لا يكتمل هو أيضاً غير ملذ بالنسبة للنساء. ولقد وجد ر. س. وهيلين م. ليند في Middletown (نيويورك، ١٩٢٩) أنّ «معظم النساء يسمحن بالتقبيل والعناق لا لأنهن يتمتعن به بل لخشيتهن من أنهن لن يكن محبوبات إن رفضنه». ولقد اشتكت إحدى الفتيات أثناء التحليل من الطبيعة غير المشبعة للعناق «لا أميل إليه. إنه حار وصعب ويشعرك بالقلق. وإذا ما مضيت بعيداً، أحتاج للمضي أبعد، ولا أستطيع». وليس ثمة شك أن المعانقة المستمرة طويلاً، وخاصة «المعانقة الثقيلة» (يقول الفرنسيون: "Tout excepté ça" - "كل شيء إلا هذا") هي ضارة انفعالياً لأنها توقظ رغبات جنسية تبقى محبطة.

٢ - غالباً ما تستعمل النساء الجنس كطريقة لكسب عاطفة الرجال، وغالباً جداً ما يستعملنه للتمسك بهم. ولقد قالت إحدى الفتيات: «عندما تكونين صعبة المنال قد يتركونك».

إن تخييل هذه الفتاة لا يدع مجالاً للشك بشأن السمة الأبرز لدافعها القهري: لقد تماهت مع الرجل. وفي الاستيهامات المصاحبة للاستمناء لم تكن تستمني كفتاة، وإنما كفتى. لقد واصلت تهييجه، في تخييلها، لكنها لعبت دوره أيضاً. وقامت في الوقت ذاته بقلب الأدوار بصورة لا واعية في استيهاماتها؛ لقد تخيّلت ما كانت ستشعر به لو أن الرجل فعل لها ما كانت قد فعلته له. ولقد احتالت هكذا في أن توحِّد في شخصها فردين إثنين. وكان من الملحوظ أيضاً أنها كانت تبلغ في استمنائها رعشة مهبلية عميقة كلّ مرّة.

وبالطبع لابد أن الفتاة قد شعرت بالتهيج هي نفسها عندما ساعدت الرجل تلك المساعدة النشطة على التخلص من توتره الجنسي، على الرغم من أنها لم تسمح لنفسها بأن تشعر في وعيها بالإثارة. لقد عزمت على أن لا تتورط، وعلى أن تحتفظ بتحكّمها بذاتها. ولقد أفلحت وقتها، لكنها أخفقت بعد ذلك. فخلال استمنائها القهري استرجعت ما لم تكن قد شعرت به على نحو واع من قبل؛ وشعرت أيضاً بما لا بد أن يكون الرجل قد عاناه.

إن الطبيعة الجنسية لاستمنائها لا يمكن، بالطبع، أن تكون موضوع شك. ومع ذلك فإن ما يبعث على هذا الفعل القهري ليس الجنس وحده. فقد شعرت في لاوعيها بالإثم لكونها عذّبت الرجل بتهييجه ومن ثم امتناعها عنه. كما أن حالات الهمود، ومخاوفها من أنها قد تمرض بسبب إفراطها في الاستمناء، وأعراضها الهستيرية تعكس أيضاً نزوعات العداء والتنافس الموجهة ضد الرجل. والمسحات السادية التي أبدتها ضده كانت الآن موجهة ضد ذاتها. ومن الواضح بما فيه الكفاية، في هذه الحالة من الاستجابة المتأخرة، ذلك الدور الذي يلعبه التماهي مع الرجل الذي قلّدت الفتاة رغباته الجنسية «النهمة».

يثبت فهم الحالات المشابهة لهذه الحالة وجهة النظر التي مفادها أن من الضروري للنساء أيضاً أن يقدّمن تضحيات عظيمة إذا ما أردن البقاء فاترات غير متهيجات بينما هن يهيجن الرجل جنسياً. ولم أرَ حتى الآن أية حالة، ما عدا الحالات المشار إليها قبلاً، تتعارض مع هذا الاعتقاد. فمن الواضح أنه ما من شخص يمكنه أن يثير جنسياً وبشكل متعمّد شخصاً آخر لفترة من الزمن مهما تَطل ويمكث هو نفسه ساكناً على

الرغم من ذلك. ومن الواضح أن التماهي اللاواعي للشخص المهيِّج مع المهيَّج يمتلك قدرة انفعالية[٣] أعظم مما أسبغناه عليه من قبل.

تمثّل القدرة غير الواعية التي تحوزها استجابة الشريك عنصراً جديداً في ديناميات الجنس. لقد أراد رجل الكهوف إشباع الحافز الجنسي الضاغط وحده. ولم يكن يبالي بما تشعر به المرأة. أما بالنسبة للرجل المثقف من زمننا فقد أصبحت استجابة المرأة ضرورة انفعالية. وغياب هذه الاستجابة يضر بإشباعه الجنسي والانفعالي الخاص. ونحن منساقون إلى نتيجة مفادها أن بعض التغيرات السيكولوجية، التي نجهل طبيعتها، هي التي أيقظت هذه الحاجة الجديدة.

إنني لو تجاسرت على تخمين الاتجاه الذي علينا أن نبحث فيه عن هذه العوامل الخفية، فإن تهوري لا يمكن غفرانه إلا بغياب أي مفتاح آخر. وباعتقادي أن تغيّراً في ثقة الرجال بأنفسهم ربما يكون قد شكّل العامل الأشد أهمية. ويبدو أن الرجل الحديث يشك في لاوعيه بأنه جذاب؛ بل يفكر أحياناً أن جسده قبيح ومنفّر. ويمكن التغلب على مثل هذا الشك بالنفس بحدود معينة إذا ما تم القيام بالمقاربة الجنسية للمرأة، لكنه قد يتلبث طويلاً جداً عند مستوى أعمق. أما الاستجابة الانفعالية من قبل المرأة، في الوقت الراهن على الأقل، فتكنس بعيداً هذا الشك. ويبدو لي أن رغبة المرء في أن يكون مرغوباً تبدأ بالشك في أنه مرغوب، ولا يمكن لهذا الشك أن ينتهي إلا بتجل واضح للاستجابة التي تثبت أن الرجل يشبع أماني المرأة ورغباتها. وفي كثير من الحالات، يبلغ حماس المرأة حد امتلاك الرجل الذي تقيّده باستسلامها. ويكمن سر هذا النصر في حقيقة أن المرأة تشبع إحساس الرجل بالقوة وتسبغ عليه مجد الفحولة. وغالباً ما تشتكي الزوجات من أن أزواجهن غير المخلصين يلتمسون الإشباع في أحضان نساء أقل قيمة. وكثيرات من هاته الزوجات لم يختبرن الرعشة أبداً، وهكذا يحرمن أزواجهن بصورة غير واعية من إشباع الأنا الذي لا ينفصل عن الإرضاء الجنسي العميق. وغالباً ما يلتمس الرجل هذا الإشباع، الضروري جداً بالنسبة له، لدى موضوعات أدنى.

وعند مستوى أرفع، يعكس حافز المرء لأن يكون محبوباً هذه الشكوك ذاتها. ولابد أننا جميعاً نشك أحياناً بكوننا محبوبين. كلنا عراة تحت ثيابنا، ولدينا أسباب

---

٣ - نقلت إليّ مريضة نثرات من الصور التي تراودها قبل أن تغفو. قالت: «ألفّق قصصاً عن شارلي على هواي. أقول لنفسي تلك الأشياء التي أودّ أن يقولها لي، لكنني لا أشعر على هذا النحو إن لم يشعر هو حيالي على هذا النحو».

للاعتقاد أن أجسادنا العارية ليست جذابة. فنحن نعرف عيوبها، ضعفها المستتر أو بقعها المنفِّرة. لكننا أيضاً عراة تحت الأقنعة التي نرتديها أمام الآخرين وأمام أنفسنا. ونعرف في لا وعينا ليس أننا نبلاء وحسب بل أيضاً أننا وضيعون، ليس أننا لطفاء وحسب بل أيضاً أننا قساة؛ كما نعرف في لا وعينا كثيراً من الحقائق غير السارة عن أنفسنا. إن شعورنا بالإثم يحد من ثقتنا بالنفس، الأمر الذي يبرر شكوكنا بأننا غير محبوبين. وحين ننشد الحب، حين نريد أن نكون مطلوبين ومحط إعجاب واحتفاء، فإننا نفعل ذلك بصورة رئيسة، لأن كوننا محبوبين يعني غفران أغلاطنا ونواقصنا، سوء أفعالنا وجرائمنا التي نقترفها في أفكارنا.

أن تكون محبوباً يعني أن تكون لك قيمة مميزة، وأن تحظى بالغفران، وأن تنتمي. والرغبة في أن تكون مطلوباً هي واحدة من الحاجات الانفعالية الأقوى التي ترافقنا خلال حياتنا. إن كونك مطلوباً، ومحبوباً، يسكّن الشعور بالإثم الفردي، ويؤكد مجدداً أننا لسنا متروكين وحدنا أو مُلْقىً بنا جانباً. والحاجة الجديدة إلى الاستجابة في الحب وفي الجنس يمكن ردّها إلى المصدر نفسه شأن النزوات المتجذّرة في مآثر أخرى. فهي أيضاً تنبثق من الإدراك غير الواعي لقصورنا والجهد المبذول للتغلب عليه. ذلك أن اقتناع المرء بأنه غير مرغوب يمنع تطور رغبته الخاصة. واعتقاد الرجال والنساء بأنهم غير محبوبين يمكن أن يدفعهم إلى نكران كل حب. ولقد قالت إحدى المريضات: «إنني جد خائفة من أن أُرفَض، ولذا أرفض نفسي، كي لا أعطي الفرصة لأي أحد آخر».

إن فهم الأهمية المتزايدة التي تحظى بها الاستجابة وديناميات التماهي اللاواعي في التخييل والنشاط الجنسيين يتيح لنا صياغة قانون خفي يبدو أنه يتحكم بعمليات الجنس في زماننا. ثمة مطلب داخلي يدفعنا لأن نفعل للآخرين ما نتمنى أن يفعلوه لنا. ولا مناص من الاقتناع الراسخ أننا في الجنس أيضاً لا ننال سوى ما نعطيه. وأنتم تقرأون وتسمعون الكثير اليوم عن «الجنس الفاتن»، لكن ما يعنيه ذلك ليس الدافع الجنسي، الأولي، الخام. فقدرة هذا الدافع على أن يكون فاتناً ومجيداً لا تتعدى قدرة عمليات الإطراح. والفتنة لا يمكنها أن تنشر عبيرها إلا بتضافر الحافز الجنسي مع نزوات الحنان. وتثبت أهمية الاستجابة وعملية التماهي في الجنس أنهما ناتجان عن مثل هذه الخلائط.

إن لهذا الكتاب طبيعة التحدي، وينطبق عليه ذلك أيضاً من حيث طابعه حين أؤكد بجرأة ووضوح أن المكافأة في الجنس ليست الإشباع الفيزيائي وحده وأنّ قوة الجنس ومجده ليسا جنسيين فقط.

التقاء وانصهار

نحن معنيون عن هذا الحد باندماج الحافز الجنسي، والحاجة إلى الانتزاع، والعاطفة. فقد كان من الضروري أن نفصل ونفرّق بين هذه الدوافع والحوافز التي قلما نميز بينها حين نتحدث عن سعادة الثنائي الشاب جون وجين. ومن الضروري الآن أن نفهم أن ما يجعلهما سعيدين هو اختلاط هذه الحاجات المختلفة. فجذب المرأة للرجل وجذب الرجل للمرأة هو تضافر للفتنة الجنسية مع الفتنة الشخصية. والاعتقاد بأن الرجل يمضي من الجنس إلى الحب بينما تأتي المرأة من الحب إلى الجنس قد يكون صحيحاً، لكن هذه القاعدة تخضع لعدد هائل من الاستثناءات الناجمة عن الفروق الفردية. كما أن امتلاك النساء حافزاً جنسياً أضعف من حافز الرجال هو أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد. ولقد تخلّف لدينا هذا الانطباع من نماذج السلوك، التي هي نماذج مختلفة عند كلا الجنسين في ثقافتنا، لكنه نجم أيضاً، وعلى نحو أكثر تحديداً، من حقيقة أن العدوانية والدافع إلى الانتزاع هي أكثر تطوراً وشدة لدى الرجال. فاختلاف الخليط ناجم عن أن في الجنسية الذكرية قسطاً أكبر من دوافع الأنا الانتزاعية قياساً بالجنسية النسوية. وعلينا أن نأخذ بالحسبان أيضاً أن عوامل الكفّ والإعاقة تعمل عملها لدى المرأة، لكنها لا تعيق التطور الكامل لجنسية الرجل.

تمكن مقارنة عملية اختلاط الدوافع الثلاثة: دوافع الجنس، والقوة، والحنان، بخليط لا يمكن قطّ فصل مكوّناته أو إدراكها منفردة. فليس ثمة أي جدار بين هذه النزوات المختلفة، بل مجرد غشاء يسمح بالتناضح osmosis. وهو تناضح كامل لدرجة أن التعبير عن أحد الدوافع يمكن أن يظهر بوصفه تجلياً لدافع آخر. هكذا يتشابك الجنس، والعدوان، والحب، ويصبح الفصل بينهم متعذراً. فالنفس في الجسد، والجسد في النفس. واقتران العاطفة والجنس هو الوقت المناسب واللحظة التي تسبق فوات

الأوان في الحياة البشرية. وسحر جسد المحبوبة وسحر عقلها متصلان بحيث يتعذّر على المحب أن يميّز بينهما. فكلاهما يزرعان الاضطراب في أحاسيسه، وكلاهما يرتقيان بأفكاره. وهذا التضافر هو من النوع المعقد الذي يصعب نقضه، شأنه شأن سجادة شرقية تشكل فيها الخطوط المجدولة لوحة واحدة، لكن الخيوط المتحابكة يصعب اقتفاء أثرها.

ثمة أنهار ثلاثة قادمة من اتجاهات مختلفة يجري بعضها نحو بعضها الآخر، وتتحد مياهها لتشكل تياراً قوياً يجرف كل عائق. ويمثل التقاء هذه الأنهار محصلة أعظم في قوتها من مجرد جمع تياراتها الفردية. فمن أجل تقدير القوة الناتجة، تتوجب مضاعفة قوة كل نهر بالقوة الأخرى وليس مجرد إضافتها. ذلك أن كل نهر يكتسب من الآخر سعةً وعمقاً. وحين تنظر إلى هذه اللوحة، سوف تدرك تماماً أن الحب الرومانسي ليس حافزاً جنسياً راكداً، وإنما هو رافد عميق وسريع من دفق دوافع الأنا الأقدم كان منفصلاً يتبع مجراه الخاص إلى أن انضمّ إلى تيارات الجنس والهيمنة. وهذا هو الحد الذي فكّر الشعراء عنده بتوحيد الحب الأرضي والسماوي، هذا هو الحد الذي يتم عنده تجسير الهوة القديمة بين الحاجات الجسدية الثقافية، وحيث تتم تلبية الحافز الجنسي والتوق إلى العاطفة. إن الجنس يأتي بالإشباع ويأتي الحب بالسعادة باعتبارهما مساهمتيهما الخاصتين في البهجة التي يشعر بها جون وحين في لحظات تحققهما العامر بالنشوة. ويمضي الابتهاج اللاذع والإشباع الرائق في طريقهما؛ وإجابة الجسد تصبح في الوقت ذاته استجابة العقل. ويكون إشباع الجنس كاملاً لأنه في الوقت نفسه التعبير الدقيق عن الحنان وانتصار الأنا. ولا يعود بمقدور الشريكين في هذه التجربة عميقة الإشباع أن يميّزا ما هو ملذ وما هو ممتع، ما الذي يُعطَى وما الذي يُؤخَذ. ويتداخل هكذا العقل والجسد بحيث تنال مطالبهما في الإشباع اشتداداً متواقتاً ومتبادلاً.

هذا التوافق والتوالف بين الدوافع العظيمة الثلاثة ليس شائعاً، كما قد يُفترض، وإنما هو الاستثناء، ويدل على ذروة السعادة البشرية التي لا يتم بلوغها البتة في كل حياة فردية. وغالباً ما تبقى الهوة بين الجنس والعاطفة، بين الحنان والتملك، دون تجسير نهائياً. فالدافع الجنسي يستحضر إلى العقل صوراً تختلف عن تلك التي تستحضرها العاطفة. والرجل الذي يبحث عن التحقق الكامل غالباً ما يجد الإشباع

الجنسي وحده ويشعر أن توقه إلى الرفقة والمشاركة لم يتحقّق؛ كما أن المرأة لا تكون قادرة في الغالب على التمتع باللذة الجنسية ما لم تكن واثقة من كونها محبوبة.

وكلما ازدادت متطلبات الحضارة، كلما اكتسب ارتكاس الشريك دلالة وأهمية أكبر، وكلما أصبح العنصر الشخصي عاملاً حاسماً في الإشباع الفيزيائي. إن الصعوبة تتزايد بالنسبة للرجل المثقف بشأن تمتعه باللذة الجنسية دون أن يقدّم مقابلاً، فهو لا ينال مثل هذه اللذة إلا إذا تواجدت الرغبة الجنسية والعاطفة معاً لدى المرأة. ليس بالمكافئ الجنسي للخبز وحده يجب أن يحيا الإنسان. فهو يرغب في ما هو أكثر من إشباع الشهوة الفارغة للحظة عابرة. وهو، وهي خاصة، يتمنيان أن لا تكون النزوات الجنسية والحاجة للرفقة منفصلة بَعْد قطّ، وأن يكون الشخص الواحد قادراً على تحقيق متطلبات العاطفة، والجنس والقوة.

ليس ثمة حل عام للإشكالية. وعلى كل رجل وكل امرأة إيجاد سبيل فردي لنفسه ولنفسها. فما من نزهات جماعية يمكن القيام بها إلى مدينة الحب السرية. ولكن حين يجد ثنائي مثل جون وجين الطريق إلى مملكة الحب، فإنهما يؤكدان لنا أنهما يشعران كأنهما شخص واحد. ولا تعود حدود الفردية حواجز، أو عوائق تفصل الجنس، وشهوة السلطة، والحب. ونحن جميعاً يحيّرنا مثل هذا المشهد، بما في ذلك السيكولوجي، الذي يشعر بفضول متزايد وهو يراقب القوى الانفعالية المتنازعة وهي تتعاون فجأة. ولسوف يمرّ وقت طويل قبل أن يتمّ إشباع فضوله ذلك الإشباع الكامل.

مقطوعة ختامية

ونحن نودّع جون وجين وكثيراً من الأزواج الشباب مثلهما، ندرك أن غرامهما لن يدوم طويلاً. بانتظارهما نازلات وأحزان، وخيبات أمل وصراعات من مختلف الأنواع. ومع ذلك، فإن متعاً أخرى مُعدَّة لهما. وكلنا أمل أن شفق السعادة التي هي سعادتهما الآن سوف يرافقهما على دربهما المشترك.

نتطلّع إلى الوراء، ونتساءل بدهشة: أهذا هو الخليط الذي يكوّن الغرام؟ أحقاً أن هذه المكوّنات القليلة هي التي تخلق هذه الفتنة وهذا السحر؟ أما من مزيد؟ لا، ما من مزيد. ولكنْ لنتذكّر أنَّ الأعمال الموسيقية الأعظم التي نستمتع بها ليست مؤلفة إلا من نوتاتٍ ثمان وحسب.

وعند أداء هذه السمفونية التي ندعوها الحياة، يلعب الحافز الجنسي على الكمان بين العازفين الأوَل، لكن ضابط الإيقاع هو الأنا. قد يكون صوت آلته الفخمة خفيضاً بين الحين والآخر، لكنه يبقى مسموعاً على الدوام. وفي بعض الأحيان تصمت كل الآلات الأخرى في الأوركسترا. وعندها يعزف ضابط الإيقاع منفرداً، مفعماً بالتوق والحنان، لحن الحب. وحين تنضمّ الكمانات الأخرى إلى النغم، تقود الأوركسترا بانسجام عميق وتحلّق بها إلى ذروة الغبطة.



كثيرون هم الذين بحثوا في وجوه العلاقات الجنسية ولكن ثيودور رايك يتميز بخصوصية واضحة في التحليل، بحيث أنه لا يشكل تياراً، بل هو مدرسة لها ملامحها في الكشف عن مجاهل العلاقات الإنسانية التي تشكل العلاقات الجنسية فيها حبل السرة.

ISBN:2-84305-775-X